

الفصل الأول

الخلفاء والولاة والأمراء والوزراء والقضاة من أهل الظاهر

- ١ ثبت بخلفاء الموحدين.
- ٢ الأدلة على ظاهرية خلفاء وحكام الموحدين .
- ٣ الخلفاء من أهل الظاهر.
- ٤ الولاة من أهل الظاهر.
- ٥ الأمراء من أهل الظاهر.
- ٦ الوزراء من أهل الظاهر.
- ٧ القضاة من أهل الظاهر.

ثبت بخلفاء الموحدين:

هذا ثبت أولاً بحكام الموحدين من أولهم إلى آخرهم وسيتم الحديث عن كل حاكم منهم ضمن هذا الفصل مع إثبات ظاهرية دولة الموحدين وحكامها.

١- محمد بن تومرت الهرغى ٥١٤ هـ حتى ٥٢٤ هـ

٢- عبد المؤمن بن علي ٥٢٤ هـ - ٥٥٨ هـ

٣- أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ٥٥٨ هـ - ٥٨٠ هـ

٤- أبو يوسف يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن ٥٨٠ هـ - ٥٩٥ هـ

٥- محمد الناصر بن المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن ٥٩٥ هـ - ٦١١ هـ

٦- أبو يعقوب يوسف الثاني المنتصر بالله بن الناصر بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي 611-620 هـ

٧- أبو محمد عبد الواحد المخلوع بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي 620 هـ - ٦٢١ هـ

٨- أبو محمد عبد الله العادل بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن ٦٢١ هـ - ٦٢٤ هـ

٩- يحيى المعتصم بالله بن محمد الناصر بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن ٦٢٤ هـ - ٦٢٦ هـ

١٠- أبو العلاء إدريس المأمون بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي ٦٢٦ هـ - ٦٣٠ هـ

١١- عبد الواحد الرشيد بن المأمون بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي 630 هـ - ٦٤٠ هـ

١٢- أبو الحسن علي السعيد بن إدريس المأمون بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي ٦٤٠ هـ - ٦٤٦ هـ

١٣- أبو حفص عمر المرتضى ابن إسحاق بن يوسف بن عبد المؤمن ٦٤٦ هـ - ٦٦٥ هـ

١٤- أبو العلاء الواثق بالله إدريس بن محمد بن عمر بن عبد المؤمن بن علي لقب بأبي دبوس ٦٦٥ هـ ٦٦٨ هـ وكان آخر خليفة من الموحدين علي قول من قال بصحة نسبهم

القرشي وآلت ممتلكات هذه الدولة الظاهرية إلى بنى مرين التي سرعان ما حولت كل أثر ظاهري إلى مالكي بتأثير فقهاء المالكية.

الأدلة على ظاهرية خلفاء وحكام الموحدين :

قبل الشروع في الحديث عن خلفاء الموحدين لا بد أن نوضح الأدلة والبراهين على ظاهرية هذه الدولة ومنها غير ما سنذكره عند حديثنا عن ظاهرية كل خليفة منهم :

١- انتشار كتب ابن حزم الفقهية والأدبية والتاريخية وغيرها (١)، وكتب الظاهرية عامة في عصرهم بما لم يكن معروفا من قبل.

٢- أن حكام الدولة الموحدية كانوا على علم بالفقه والأصول والحديث والدعوة للاعتماد على القرآن والسنة في الفتيا والأحكام، وهي الأمور التي دعا إليها المذهب الظاهري، وغير موجودة في غيره، فعلى سبيل المثال كان عبد المؤمن بن علي فقيها أصوليا محدثا جدليا (٢) وكان يوسف بن عبد المؤمن على علم بالفقه والأصول وعلوم القرآن، والحديث، وكان يحفظ أحد الصحيحين (٣)، وكان المنصور فقيها محدثا أصوليا مجتهدا جدليا، يعلم الفقهاء والقضاة والكتاب استنباط الأحكام من القرآن والسنة (٤).

٣- اعتماد الدولة في أحكامها على الفقه الظاهري فقد قتل المنصور الموحدى أخا له لخروجه عليه ومطالبته بالخلافة (٥) اعتمادا على فتوى لابن حزم بقتل الخليفة الآخر إذا بويع لخليفته (٦) واعتمدت الدولة مسألة التعزير في الذنوب التي لا حد فيها خاصة ترك الصلاة، والقتل لمن شرب الخمر (٧) وجعل التعليم إجباريا على الذكور

(١) المقرئ، نفع الطيب، ١٩٥/٣.

(٢) الناصري، الاستقصا، ١٤٥/٢، ابن أبي دينار، المؤنس، ص ١١٧.

(٣) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ١٦٥، المراكشي، المعجب، ص ١٩٩.

(٤) المراكشي، المعجب، ص ٢٣١، ٢٣٢، ابن سماك العاملي، الزهرات المنشورة في نكت الأخبار المأثورة، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد، ١٩٨١م-١٩٨٢م، مجلد ٢١، ص ٦١، ٦٢.

(٥) المراكشي، المعجب، ٢٣٣، ٢٣٤.

(٦) اعتمد ابن حزم في فتواه على قول الرسول (إذا بويع لخليفته فافتلوا الآخر منهما) أنظر: ابن حزم، المحلى، ٦٦/١، ٤٢٣/٨، الفصل، ٤/٣، ٥، والحديث رواه مسلم في كتاب الإمارة من صحيحه .

(٧) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ١١/٧، ١٢.

والبنات منذ عهد عبد المؤمن بن علي، وتم تكليف العبيد بالأحكام الشرعية شأنهم شأن الأحرار (١) والرجوع للحاكم في أحكام القتل كقتل النفس والمترد والمستهزيء بدين الله (٢) وهي المسائل التي انفرد المذهب الظاهري بها دون غيره من المذاهب، وأصلها الظاهرية في كتبهم.

٤- دعوة حكامها لعقد مجادلات ومحاورات لترجيح المذهب الظاهري على المالكي، ومن ذلك المجلس الذي ذكره ابن حجر الهيتمي لأحد الأمراء دون ذكر اسمه (٣)، وما وقع في عهد عبد المؤمن بن علي من جمع علماء الظاهرية والمالكية للمناظرة حول عدة مسائل في مدونة سحنون، ومنها مسألة إعادة الصلاة في الوقت والتي يرفضها الظاهرية، وانتهى المجلس بإقرار رأي الظاهرية بعد كلام دار بين ابن زرقون المالكي وأحد الظاهرية، وقد عبر ابن زرقون عن ظاهرية عبد المؤمن بقوله: "كل ذلك مراده أن يحمل الناس على مذهب ابن حزم" (٤)، وكذا ما وقع بين يوسف بن عبد المؤمن وبين الفقيه المالكي ابن الجعد على ما سنفضله عند الحديث عن ظاهرية يوسف بن عبد المؤمن.

٥- أن مشايخ الموحدين قدموا المنصور بن يوسف للخلافة، رغم معرفتهم أنه ظاهري، وكان مشهورا بظاهريته أيام كونه وزيرا في عهد أبيه (٥)، ولو كان لهؤلاء المشايخ نهجا مذهبيا مذهبيا غير المذهب الظاهري لما قدموا المنصور، ولعارضوا من قدمه أصلا، كما كان الحال في عهد المرابطين المالكية الذين اعتبروا أن مذهب الظاهرية بدعة، ورفضوا تولية أي ظاهري منصب من المناصب الهامة في الدولة (٦)، كما أن محمد الناصر بن المنصور استوزر أخاه إبراهيم بن المنصور الذي كان يذهب مذهب أبيه في الظاهرية على

(١) المنوني، حضارة الموحدين، ص ١٢٥، ٢١، ٢٥، ٢٦.

(٢) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٢٢٨.

(٣) ابن حجر الهيتمي، الفتاوى الحديثية، نقلا عن المنوني، حضارة الموحدين، ص ٨٣.

(٤) أبوراس العسكري، الخبر المغرب، نقلا عن المنوني، حضارة الموحدين، ص ٨٣، هامش ٨.

(٥) الناصري، الاستقصا، ٢/١٩٨، ١٩٩.

(٦) الونشريسي، المعيار، ٢/٣٤١.

حد قول المراكشي، وقد ظل إبراهيم في الوزارة حتى عام ٦٠٥هـ/١٢٠٨م ثم ولاه الناصر على إشبيلية^(١)، وهذا الذي فعله الناصر يؤكد خطأ ما ذهب إليه البعض من أن الدولة كانت ظاهرية فقط في عهد المنصور، ويطله أيضا قول صاحب بيوتات فاس بان الناصر كان كأبيه لا يحكم إلا بمحض الظاهرية، وأن دولة الموحدين كلها من بدايتها إلى نهايتها كانت دولة ظاهرية كما أسلفنا^(٢)، ولو كانت الدولة غير ظاهرية لما سكت شيوخ الموحدين عن هذا التمكين للظاهرية ورجالها.

٦- ترويح الدولة الموحدية للمذهب الظاهري من خلال مؤلفات رجالها وعلمائها والتي كانت تحمل طابعا ظاهريا كاختيار اسم للكتاب مقتبس من آية قرآنية مثل كتاب عبد الملك بن صاحب الصلاة - كان مؤرخا ومحدثا ظاهريا- الذي أسماه (تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين) فقد اقتبس اسمه من قوله تعالى (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين) [سورة القصص آية ٥]، هذا فضلا عن ظهور نهضة فقهية أصولية كبرى في المغرب والأندلس في عهد الموحدين فقد كثر المحدثون والأصوليون والمفسرون وعلماء الكلام والجدل، وذلك من جراء الدعوة للعودة إلى الكتاب والسنة في استخراج الأحكام وترك ما دونهما من كتب الفروع، بل وصل الأمر بالمالكية الذين تمسكوا بمذهبهم أن تعلموا الأصول والحديث، والاستنباط من القرآن والسنة حتى يكون لهم مكانا في الدولة أو وصولا لمناصب دينية كان يشترط فيها العلم بالأصول والحديث، كما سبق وكما سيتم توضيحه لاحقا بالفصل الثالث، أضف إلى ذلك ظهور تأليف مهمة في أحاديث الأحكام استدراكا ونقدا وشرحا، وهو الأمر الذي لم يجرؤ أحد على القيام به من قبل ضد كتب الأحكام المالكية، ومن هذه التأليف استدراك القاضي الصقلي على الأحكام الكبرى للقاضي عبدالحق، حيث رأى الصقلي أن هناك أحاديث كثيرة في الكتب أغفلها عبدالحق وأنها أولى بالذكر مما أورده، وألف ابن

(١) المراكشي، المعجب، ص ٢٥٥، ٢٥٦.

(٢) إسماعيل بن الأحمر، بيوتات فاس الكبرى، ص ١٩.

القطان بيان الوهم والإيهام الواقعيين فى كتاب الأحكام (١) .

٧- اعتماد الدولة الموحدية فى القضاء والفتيا والأحكام على القرآن والسنة والإجماع، وهى الأصول التى اعتمدها المذهب الظاهرى، وقد كتب حكام الدولة الرسائل للقضاة والعمال بخصوص هذا الشأن ومن ذلك رسالة المأمون للفقهاء أبى محمد عند توليته قضاء شريش، ورسالة الرشيد لأبى محمد القاضى بشريش، وأخرى لقاى أمره أيضا بالاعتماد على القرآن والسنة والإجماع والاجتهاد، ولقد سبق المأمون والرشيد فى هذا الأمر يوسف بن عبدالمؤمن، أضف إلى ذلك ما أعلنه المرتضى فى رسالة لأهل سبتة جاء فيها (وما تعبدنا ربنا - جلا وعلا- إلا بالظاهر) (٢) وهو القول الذى طالما كرره ابن حزم والظاهرية مرارا فى كتبهم، وهذا القول يوضح أن الدولة ظلت حتى النهاية متبينة للمذهب الظاهرى، إذ إن المرتضى كان الحاكم قبل الأخير فى تاريخ الدولة .

٨- اتخذهم قضاة ظاهرى المذهب كأحمد بن يزيد بن عبد الرحمن بن بقى بن مخلد الذى تولى قضاء مراكش، ثم قرطبة وكانت أحكامه على المذهب الظاهرى، وابن مضاء، وابن دحية الكلبي، وغيرهم كثير بل إن القضاة أنفسهم كانوا إذا استنابوا عنهم أحدا فى الأحكام يختارونه من الظاهرية مثل أبى الحسن على بن عبد الله بن يوسف بن خطاب المعافرى قاضى إشبيلية (ت ٦٢٩هـ/ ١٢٣١م) والذى استنابه القضاة كثيرا فى الأحكام (٣)، وقد أكد صاحب بيوتات فاس سياسة الدولة الموحدية بتولية قضاة لا يحكمون إلا بالظاهرية فى قوله "ولما قلدوا القضاء بالمغرب إلى قاضى القضاة محمد بن طاهر الصقلى الحسينى أمره أن يأمر القضاة بالمغرب أن يحكموا بمحصل الظاهرية، فامثلوا أمره، وصاروا لا يحكمون إلا بمحض الظاهرية، وجروا على ذلك السنن بطول أيامهم" (٤).

(١) المنونى، حضارة الموحدين، ص ٣٩.

(٢) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٢٢٧؛ وانظر: عزواى، رسائل موحدية، ١/٤٩٤، ٤٩٥، ٤٨٣، ٤٢٤.

(٣) توفيق الغلبورى، المدرسة الظاهرية، ص ٣٠٨، ٣٠٩.

(٤) ابن الأحمر، بيوتات فاس، ص ١٩، وابن طاهر من أهل مدينة فاس كان متصوفا اتصل بالمنصور الموحدى سنة ٥٨٧هـ/ ١١٩١م فحظى عنده، وكان عالما بأصول الدين وأصول الفقه، ومسائل الخلاف، ولى قضاء

٩- معاينة حكامها بالحبس لمن يتعرض بالنقد الهدام لابن حزم ومذهبه، ومن يدعو إلى التقليد وكتب الفروع وذلك مثل ما حدث لمحمد بن سعيد بن أحمد الأنصاري المعروف بابن زرقون بسبب تعصبه للمذهب المالكي وانتقاده لابن حزم انتقاصا لقدره وليس تقويما في كتابه (المعلى في الرد على المحلي والمجلى لابن حزم)، وتدريسه لكتب الفروع وقد نهى عنها المنصور (١)، والقاضي أبوبكر بن العربي المالكي الذي انتقد ابن حزم في رسالة له أسماها (الغرة) انتقد فيها كتاب (الدرة في الاعتقاد) لابن حزم (٢)، وأبوبكر الجياني (ت ٥٩٦هـ/١١٩٩م) الذي سجنه المنصور بسبب دعوته للتقليد (٣) وأبوبكر محمد بن علي بن خلف التجيبي الإشبيلي (ت ٥٩٦هـ/١١٩٩م) الذي وشى به للمنصور أيام ألزم الناس بالأثر والظاهر فسجن مع ابن زرقون وعرض للقتل لكنه خلص من النكبة فلزم داره حتى مات (٤)، وكانت لهذه السياسة آثار بعيدة في زيادة الظاهريين والمهتمين بالفكر الحزمي وهو ما يقرره ابن العربي المالكي الذي وصف كثرة الظاهرية في صدر دولة الموحدين بقوله "وجدت القول بالظاهر قد ملأ المغرب" (٥) وأكد ذلك كل من عقيل بن عطية القضاعي، والمراكشي صاحب (المعجب) حيث يقول القضاعي عن الطائفة الكبيرة التي اتبعت ابن حزم في عصر الموحدين: "تعظمه تعظيما مفرطا بحيث تقلده في جميع أقواله، ولا ترى مخالفته في شيء من مذهبه وإذا ظهر لها في كلامه الخطأ البين والوهم الصراح لم تقبله، وأحالت بالوهم والخطأ على من يتعاطى الرد عليه أو على نفسها بالعجز عن الانتصار لذلك

- الجماعة للمنصور، ثم ولى قضاء الجماعة للناصر بعد أبيه ولم يزل كذلك حتى وفاته سنة ٦٠٩هـ/١٢١٢م أنظر: ابن أبي زرع، الذخيرة السننية في تاريخ الدولة المرينية، دار المنصور، الرباط، ١٩٧٢م، ص ٤٨.
- (١) ابن الأبار، التكملة، ٦١٦/٢؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٣١١/٢٢.
- (٢) ابن العربي، العواصم من القواصم، تحقيق محب الدين الخطيب، مكتبة السنة، القاهرة، ط ١، ١٤٠٥هـ/١٤١٢م، ص ٢١؛ وانظر: المقرئ، نفع الطيب، ٣١/٢، ٢٥.
- (٣) المقرئ، نفع الطيب، ٥٨، ٥٧/٢؛ وانظر: محمد الرشيد ملين، عصر المنصور الموحدى، ص ٢٥٤.
- (٤) الغلبزورى، المدرسة الظاهرية، ص ٧١.
- (٥) ابن العربي، العواصم من القواصم، تحقيق عمار الطالبي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ٣٣٦/٢، ٣٣٧.

القول المردود" (١)، ويقول المراكشي في حدود سنة ٦٢١هـ/١٢٢٤م في ختام ترجمته لابن حزم: "وإنما أوردت هذه النبذة من أخبار هذا الرجل، وإن كانت قاطعة للنسق مزيجة عن بعض الغرض لأنه أشهر علماء الأندلس اليوم وأكثرهم ذكرا في مجالس الرؤساء، وعلى ألسنة العلماء وذلك لمخالفته مذهب مالك بالمغرب، واستبداده بعلم الظاهر، ولم يشتهر به قبله عندنا أحد فيما علمت، وقد كثر مذهبه وأتباعه عندنا بالأندلس اليوم" (٢)، ومن كلام المراكشي يتضح أن المذهب الظاهري ظل مذهباً رسمياً للدولة الموحدية حتى سقوطها، إذ إن كلامه كان بعد وفاة المنصور الموحدى بأكثر من ربع قرن، وفي ذلك رد على من ادعى أن الدولة تبنت المذهب الظاهري في عهد المنصور فقط ثم سرعان ما زال المذهب بزواله (٣).

١٠- كثرة الظاهرية في عهد الموحدين حتى شكلوا تجمعا ضد المالكية، وهو الأمر الذي لم يحدث من قبل ومنهم على سبيل المثال لا الحصر محمد بن عبد الله بن مروان التلمساني قاضي الجماعة في عهد المنصور الموحدى وابنه محمد الناصر ٥٩٥هـ- ٦١١هـ/١١٩٩م-١٢١٤م الذي عرف بتعصبه لابن حزم، وإبراهيم بن يعقوب المنصور الموحدى الذى ولى على إشبيلية مرتين ووزر لأخيه محمد الناصر، وكان يذهب مذهب أبيه فى الظاهرية، وعلى بن عبد الله بن يوسف قاضى إشبيلية (٤)، وعبد المنعم بن محمد بن عبدالرحيم الخزرجى الذى تولى قضاء غرناطة وجزيرة شقر ومدينة وادى آش وجيان، ثم تولى الحسبة والشرطة فى عهد المنصور الموحدى (٥). ومن الظاهرية أبو بكر محمد بن علي بن العربي الصوفي الظاهري صاحب الفتوحات

(١) نقلا عن الكنانى، مؤلفات ابن حزم، ص ٩٧.

(٢) أنظر: المعجب، ص ٤٩.

(٣) أحمد بكير، المدرسة الظاهرية، ص ٦٤.

(٤) المراكشى، المعجب، ص ٣٠٨-٣١٠؛ وانظر: بالنشأ، تاريخ الفكر الأندلسى، ص ٢٣٨.

(٥) النباهى، تاريخ قضاة الأندلس، ص ١١٠. جزيرة شقر تقع بين بلنسية وشاطبة، ومدينة جيان كوره تتصل أحوزها بأحواز كوره البيرة ومسافة ما بينها وبين قرطبة خمسون ميلا أنظر: ابن غالب، فرحة الأنفس، ص ٢٨٤، ٢٨٥.

المكية المشهور بمحيي الدين بن عربي والشيخ الأكبر وبابن أفلاطون وقد أصطلح أهل المشرق علي ذكره بغير ألف ولام تمييزا له عن القاضي أبي بكر بن العربي المالكي خصم الظاهرية. سمع كتب ابن حزم من شيخه عبد الحق الإشبيلي، واهتم بنشرها والتعليق عليها، وأثر عنه رؤيا حدث عنها بقوله: " رأيت النبي صلي الله عليه وسلم في المنام وقد عانقه أبو محمد بن حزم المحدث فغاب الواحد في الآخر فلم نر إلا واحدا، وهو رسول الله عليه الصلاة والسلام فهذه غاية الوصلة" (١)، وهذه الرؤيا تشير إلي أن المعتنق لفكر ابن حزم معتنقا لفكر النبي صلي الله عليه وسلم. بيد أن ظاهرية ابن العربي لم تكن كظاهرية ابن حزم فالأول قصرها علي العبادات وسلك في الاعتقادات مسلك المتصوفة أصحاب الباطن، والثاني طبق ظاهريته علي العبادات والاعتقادات في آن واحد، وهذا شأن غريب من ظاهري يعد رأس أهل الباطن من الصوفية (٢). ومن الظاهرية في عهد الموحدين أحمد بن الرحمن بن محمد بن مضاء القرطبي قاضي القضاة بدولتهم وصاحب كتاب الرد علي النحاة (٣)، وعبدالكريم بن عبد الملك بن عبد الله البجائي (من أهل القرن السابع الهجري) كان معروفا عند خلفاء بني عبد المؤمن، وإليه كان مرجع الفتيا وعلى قوله العمل (٤).

١١- أن الدولة الموحدية كان لها الفضل في انتقال المذهب الظاهري الحزمي إلي شمال أفريقيا وخاصة تونس في العهد الحفصي ؛ حيث وجدت جماعة من الظاهرية في القرنين السادس والسابع للهجرة لم تكن تخفى منافستها للمذهب المالكي وكانت تتمتع بحماية الطبقة الموالية للدعوة الموحدية، وتولي البعض منها التدريس بالمدارس

(١) المقري ، فح الطيب، ٣٦٣/٢؛ وأنظر عبد الحليم عويس، ابن حزم، ص ٣٥٠، ٣٦٠. وعن ابن العربي أنظر: أسين بلاسيوس، ابن عربي حياته ومذهبه، ترجمة عبد الرحمن بدوي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٥ م، ص ٥ - ٩٩ .

(٢) المقري، مصدر سابق، ٢ / ٣٦٣؛ وأنظر: بالنبيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ص ٢١٩.

(٣) أحمد بكير، المدرسة الظاهرية، ص ٥٩؛ وأنظر: أحمد أمين، ظهر الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، ط ٣، ١٩٦٢ م، ٣/٩٦، ٩٥؛ خديجة الحديشي، أبوحيان النحوي، مكتبة النهضة، بغداد، ١٩٦٦ م، ص ٣١٩.

(٤) توفيق الغلبزوري، المدرسة الظاهرية، ص ٣٠٣.

التونسية، بل كان بعض الظاهرية يشنع ويقول: لقط أفقه من مالك في المسألة، فإنه إذا رميت له لقمتان أحدهما شعيراً، فإنه يانف عنها ويقبل على الأخرى، وذلك لأن مالكا كان يقول: إن القمح والشعير صنف واحد، وكان مخالفوه يحتجون عليه بقوله صلى الله عليه وسلم: الذهب بالذهب والفضة بالفضة والبر بالبر والشعير بالشعير والتمر بالتمر والملح بالملح مثلاً بمثل سواء بسواء يدا بيد فإذا اختلفت الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كان يدا بيد^(١). كما كان للموحدين الفضل في وجود طائفة تمثل الفقه الظاهري في مملكه غرناطة وفي دولة بني مرين^(٢)، ومن هؤلاء علي سبيل المثال لا الحصر: أحمد بن صابر القيسي الشاعر (ت ٦٦٦هـ/١٢٦٧م) كان كاتباً للأمير أبي سعيد فرج وهو ابن محمد بن نصر أول سلاطين بني الأحمر وكان يتعبد ربه بالفقه الظاهري^(٣)، والقاضي محمد بن يحيى بن بكر الأشعري قاضي غرناطة كان لا يقلد مذهباً ويقضي بما يراه صواباً وكان عارفاً بالأصول والفروع واللغة والتفسير، والقراءات والحديث وعلومه، وعبد المهيمن الأشجعي البلذوزي الظاهري (ت ٦٩٧هـ/١٢٩٧م) الذي كان يصول بلسانه بالمغرب والأندلس على من نافر ابن حزم في عهد بني مرين^(٤) ومن الظاهرية في عهد بني مرين أبو سلمة محمد بن علي البياسي الغرناطي (ت ٧٠٣هـ/١٣٠٣م) شيخ ابن الزبير، وابن رشيد الفهري السبتي (ت ٧٢١هـ/١٣٢١م)، والوزير ابن سهل الأزدي الغرناطي (ت ٧٣٠هـ/١٣٢٩م)، وعبد الحليم بن الحسن بن تدرارت التينمالي (ت ٧٤١هـ/١٣٤٠م)^(٥)، وأثير الدين محمد يوسف أبو حيان

(١) أحمد بكير، سابق، ص ٦٥.

(٢) استولى ابن الأحمر محمد بن يوسف بن هود على غرناطة من الموحدین سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م وأسس مملكته التي دامت حتى سنة ٨٩٧هـ/ ١٤٩٢م، ومنذ انفصالها عن الموحدین بدا ابن الأحمر في إعادة المذهب المالكي إليها ثانية وطبعها بالطابع الذي كانت عليه الأندلس قبل الموحدین أنظر: عنان، تراجم أندلسية، ص ٢٥٧، ٢٥٩.

(٣) بالنشأ، تاريخ الفكر الأندلسي، ص ٢٣٨؛ وانظر: الغلبزوري، المدرسة الظاهرية، ص ٣٦٦، ٣٦٧.

(٤) النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص ١٤٢؛ وانظر ابن الخطيب، الإحاطة، ٤/ ١٨-٢٠.

(٥) المقرئ، نفع الطيب، ٢/ ٥٩؛ الغلبزوري، سابق، ص ٣٧٠-٣٧٣، ٧٣٣.

الجيانى الغرناطى (ت ١٧٤٥هـ/١٣٤٤م) صاحب البحر المحيط في التفسير.

١٢- حرص حكام الموحدين للدفاع عن ابن حزم والمذهب الظاهري وتشجيع علماء الظاهرية للرد على منتقدي ابن حزم والمذهب الظاهري مثل أحمد بن محمد بن حزم المذحجي الذي صنف كتابا أسماه (الزوابع والدوامغ) انتقد فيه أبا بكر بن العربي المالكي في كتابه الذي رد فيه على ابن حزم والموسوم باسم (الدواهي والنواهي في الرد على ابن حزم)، وقد أتى أحمد بن محمد بن حزم على كل شبهة روج لها ابن العربي، وأبطل كل مقولة ردها في كتابه هذا (١)، هذا فضلا عن حرصهم على العناية والاهتمام البالغ بفقهاء الظاهرية مثل الحافظ إبراهيم بن خلف السنهوري الدمشقي (ت ٦٢٠هـ/١٢٢٣م) الذي دخل الأندلس والمغرب فالتف حوله جماعة من الظاهرية درسوا على يديه ورووا عنه مثل ابن حوط الله الظاهري، وابنه محمد، وأبو العباس النباتي الظاهري، وابن القطان الفاسي المالكي صاحب النزعة الظاهرية، وولد ابن القطان، وليس أدل على عناية الموحدين بالسنهوري أنه لما وقع في أسر النصارى خلصه محمد الناصر بن المنصور وأحسن إليه، أضف إلى ذلك حرص حكام وولاة الموحدين على تقريب علماء الظاهرية وأئمتها منهم مثل المنتصر بالله حاكم بجاية الذي استحسن جهود ابن سيد الناس اليعمرى الظاهري (ت ٦٥٩هـ/١٢٦٠م) وآثاره للتمكين للمذهب الظاهري ببجاية فقرب منزله وأجزل عطيته وجائزته، وكان من أخص الحاضرين بمجلسه (٢).

١٣- أن المعاصرين للأحداث من المؤرخين والفقهاء ومن جاء بعدهم أقرروا بأن الدولة الموحدية كانت دولة ظاهرية تحتكم للفقهاء الظاهري، وقد أسلفنا قول القضاعي المالكي، وقول المراكشي عن ابن حزم وكثرة أتباعه في عهد الموحدين، وكثرة ذكره على ألسنة العلماء والحكام مما هو غني عن إعادته. وللمراكشي شهادة أخرى توضح ظاهرية الدولة الموحدية قال فيها عن المنصور

(١) المراكشي، الذيل والتكملة، السفر الأول، القسم الأول، ص ٤٠٨.

(٢) الغلبوري، المدرسة الظاهرية، ص ٢٩٧، ٢٩٨، ٣٦٣.

الموحدى "وفى أيامه انقطع علم الفروع، وخافه الفقهاء، وأمر بإحراق كتب المذهب بعد أن يجرد ما فيها من حديث رسول الله والقرآن... وتقدم إلى الناس فى ترك الاشتغال بعلم الرأى والخوض فى شىء منه، وتوعد على ذلك بالعقوبة الشديدة... وكان قصده فى الجملة محو مذهب مالك وإزالته من المغرب مرة واحدة، وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث، وهذا المقصد بعينه كان مقصد أبيه وجده إلا أنهما لم يظهرهما وأظهره يعقوب هذا - يعنى المنصور- " (١)، فهذه شهادة مؤرخ معاصر للأحداث يؤكد على أن هدف كل من عبد المؤمن وابنه يوسف وحفيده المنصور هو حمل الناس على المذهب الظاهرى، ويؤكد ذلك شهادة ابن زرقون المالكى التى أسلفنا ذكرها بأن عبد المؤمن بن على كان هدفه من المناظرات بين الظاهرية والمالكية حمل الناس على الظاهر؛ وشهادة ابن حمويه السرخسى الدمشقى (ت ٦٤٢هـ/١٢٤٤م) الذى رحل إلى المغرب وأقام بمراكش عند المنصور الموحدى وأخبر بأن الفقهاء كانوا ينسبون المنصور إلى مذهب الظاهر (٢).

وهذا صاحب بيوتات فاس المتوفى فى العصر المرينى يقول "إن ملوك الموحدىن تحلوا بالمذهب المعروف لهم، تابعين للمهدى رئيسهم الأول القائل باعتقاده الفاسد بإنكار الرأى فى الفروع الفقهيّة والعمل على محض الظاهرية... وجروا على ذلك السنن بطول أيامهم" (٣)، وقد وافقه على ذلك صاحب كتاب الإعلام (٤)، وفى موضع آخر نرى صاحب بيوتات فاس يؤكد على ظاهرية الدولة الموحدية من بدايتها إلى نهايتها فى الحكم والقضاء وخلافه بقوله "ولما ولى يعقوب المرينى المذكور وطلب منه أهل المغرب الرجوع فى القضاء إلى مذهب مالك عن طيب أنفسهم، أمر قضاة المغرب بذلك وترك مذهب الظاهرية" (٥)،

(١) أنظر: المعجب، ص ٢٣١، ٢٣٢.

(٢) نقلا عن المقرئ، نفع الطيب، ١١١/٣.

(٣) ابن الأحرر، بيوتات فاس، ص ١٩.

(٤) العباس بن إبراهيم المراكشى، الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، ٣٩٦/٨.

(٥) أنظر: بيوتات فاس، ص ٢٠، ٢١. ويعقوب هو ابن عبدالحق المرينى ولد سنة ٦٠٧هـ/١٢١٠م وتولى الحكم بعد وفاة أخيه أبى بكر سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م، وهو الذى قطع مملكة بنى عبد المؤمن ومحي آثارهم، وهو أول من تسمى بأمر المسلمين من ملوك بنى مرين أنظر: ابن زرع، الذخيرة السنية، ص ٨٥ =.

وهذا النص واضح وجلى على استمرار ظاهرية الدولة حتى عصر يعقوب المرينى الذى حكم من سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م حتى سنة ٦٨٥هـ/١٢٨٦م.

وممن أكد على ظاهرية المنصور والدولة الموحدية ابن جزى الغرناطى (ت ٧٤١هـ/١٣٤٠م) حيث قال "المنصور أبو يوسف يعقوب، كان عالما محدثا ن ألف كتاب الترغيب فى الصلاة، وحمل الناس على الظاهرية، وأحرق كتب المالكية" (١)، والحافظ الذهبى (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م) الذى قال عن المنصور "ألزم الناس باخذ الفقه من الكتاب والسنن على طريقة أهل الظاهر، فنشا الطلبة على هذا بالمغرب بعد سنة ثمانين وخمسمائة" (٢) والشاطبى المالكى (ت ٧٩٠هـ/١٣٨٨م) الذى قال عن مذهب ابن تومرت "وكان مذهبه البدعة الظاهرية" (٣) وفى موضع آخر ينسب الموحدين للظاهرية المحضة بقوله "فمزقوا كتب المالكية وسموها كتب الرأى، ونكلوا بجملة من الفضلاء بسبب أخذهم فى الشريعة بمذهب مالك، وكانوا مرتكبين للظاهرية المحضة ... وثبتت زمانا طويلا، ثم ذهب منها جملة، وبقيت أخرى منها إلى اليوم" (٤).

وذهب النباهى المالقى الأندلسى إلى ظاهرية المنصور الموحدى ودولته أيضا (٥)، وكذلك وصف ابن فرحون المالكى (ت ٧٩٩هـ/١٣٩٦م) دولة بنى عبد المؤمن بالظاهرية (٦)، وقد سبق ذكر كلام البرزالى عن ظاهرية الموحدين، وكذا وصف الونشريسى (١٥٠٨هـ/١٥٠٨م) ابن تومرت بالظاهرى فقال "ومنها ما أحدثه المهدي الظاهرى محمد بن

=ومن عهد يعقوب المرينى بدأ التقليد يعود ثانية، وانطفأت جذوة التجديد والاجتهاد، وجددت كل فروع المالكية ونسى العلماء الأصول ثانية حتى قال قائلهم وهو أحمد بن عمر المزكلى بفس "ما نزل من السماء حكم إلا وهو فى المدونة" أنظر: ابن القاضى المكناسى، جذوة الاقتباس فى ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، دار المنصور للطباعة، الرباط، ١٩٧٣م، ١/١٢٧.

(١) أنظر: القوانين الفقهية، دار القلم، بيروت، ص ٢٧٦.

(٢) أنظر: سير أعلام النبلاء، ٢٢/٣١١.

(٣) أنظر: الاعتصام، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، ١/٢٥٦.

(٤) أنظر: الاعتصام، ١/١٧١.

(٥) أنظر: تاريخ قضاة الأندلس، ص ١١٨.

(٦) أنظر: الديباج المذهب فى معرفة أعيان المذهب، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت)، ٢/٢٦٠.

تومت" (١)، وذهب ابن العماد الحنبلي إلى ظاهرية الموحدين (٢)، ومثله ابن رأس العسكري (ت ١٢٣٨هـ/١٨٢٢م)، والشيخ عlish المالكي (ت ١٢٩٩هـ/١٨٨٢م)، وابن خضراء السلاوي (٣).

وقد ذهب إلى هذا الرأي - ظاهرية ابن تومت والموحدين - جماعة من الباحثين المحدثين منهم الأسباني آنخل جونثالث بالنشيا (٤)، ومحمد المنوني المغربي (٥)، ومحمد عبد الله عنان (٦)، والحجوى الثعالبي الفاسي (٧)، وعبدالحفيظ الفاسي، ومحمد زاهد الكوثري، وسعيد الأفغاني، وسعيد أعراب، والدكتور إحسان عباس، والدكتور شوقي ضيف، وفؤاد سزكين، وبطرس البستاني، والدكتور عباس الجراوى، وأحمد أمين (٨)، ومراجع عقيلة الغناى (٩)، والإمام محمد أبوزهرة (١٠)، وابن عقيل الظاهري (١١)، والدكتور زكريا إبراهيم (١٢)، والدكتور فاروق عبدالمعطي (١٣)، والدكتور محمد إبراهيم الفيومى (١٤)، والدكتور حسان محمد حسان (١٥)، والعلامة محمد بن الأمين بوخبزة الحسنى التطوانى

(١) أنظر: المعيار المغرب، ٣٦١/٢.

(٢) أنظر: شذرات الذهب، ٩٦/٥.

(٣) أنظر: الرد على من يقبض فى صلاة الفرض، مخطوط ضمن مجموع الخزانة العامة بالرباط، رقم (١٧٢٤د)، ورقة ٦٠، ٦١.

(٤) أنظر: تاريخ الفكر الأندلسى، ص ٢٣٨.

(٥) أنظر: حضارة الموحدين، ص ٣٧.

(٦) أنظر: عصر المرابطين وبداية الدولة الموحدية، ص ٢٠٣.

(٧) أنظر: الفكر السامى فى تاريخ الفقه الإسلامى، دار التراث، القاهرة، ط ١، ١٣٩٦هـ، ١٧٢/٢.

(٨) الغلبزورى، المدرسة الظاهرية، ص ٦٨٥، ٦٨٦.

(٩) أنظر: قيام دولة الموحدين، ماجستير، آداب عين شمس، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م، ص ٢١٤.

(١٠) أنظر: ابن حزم حياته وعصره، ص ٥٧٧-٥٨٢.

(١١) أنظر: ابن حزم خلال ألف عام، دار الغرب الإسلامى، بيروت، ط ١، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ٩٨٢/٢.

(١٢) أنظر: ابن حزم الأندلسى، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ص ٢٠٥.

(١٣) أنظر: ابن حزم الظاهري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، ص ١٦٢.

(١٤) أنظر: تاريخ الفلسفة الإسلامية فى المغرب والأندلس، دار الجيل، بيروت، ط ١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ص ٢١٢.

(١٥) أنظر: ابن حزم الأندلسى عصره ومنهجه وفكره التربوى، دار الفكر العربى، القاهرة، (د.ت)، ص ٩٨.

الظاهرى، والدكتور توفيق الغلبزورى (١) والباحث النابه فى تراث ابن حزم سميير قدورى (٢)،
(٢)، ولا شك أن العرض السابق يوضح خطأ بعض الباحثين فيما ذهب إليه من عدم تأثر
الموحدين بالفقه الظاهري الحزمى (٣).
الخلفاء من أهل الظاهر:

١- محمد بن تومرت الهرغى الظاهرى إمام دولة الموحدين (ت ٥٢٤هـ)

أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن تومرت البربري المصمودي الهرغى الخارج بالمغرب
المدعي أنه علوي حسني وأنه الإمام المعصوم المهدي وأنه محمد ابن عبد الله بن عبد
الرحمن بن هود بن خالد بن تمام بن عدنان بن صفوان بن جابر بن يحيى بن رباح بن يسار
بن العباس بن محمد بن الحسن بن الإمام علي بن أبي طالب.

رحل من السوس الأقصى شابا إلى المشرق فحج وتفقه وحصل أطرافا من العلم
وكان أمارا بالمعروف نهاء عن المنكر قوي النفس زعرا شجاعا مهيبا قوالا بالحق عمالا على
الملك غاويا في الرياسة والظهور ذا هيبة ووقار وجلالة ومعاملة وتأله انتفع به خلق واهتدوا
في الجملة وملكوا المدائن وقهروا الملوك.

أخذ عن إلكيا الهراسي وأبي حامد الغزالي وأبي بكر الطرطوشي وكان لهجا بعلم
الكلام خائضا في مزال الأقدام ألف عقيدة لقبها بالمرشدة فيها توحيد وخير بانحراف فحمل
عليها أتباعه وسماهم الموحدين ونيز من خالف المرشدة بالتجسيم وأباح دمه .

وكان خشن العيش فقيرا قانعا باليسير مقتصر على زي الفقر لا لذة له في مآكل ولا
منكح ولا مال ولا في شيء غير رياسة الأمر حتى لقي الله تعالى لكنه دخل في الدماء لنيل
الرياسة المردية وكان ذا عصا وركوة ودفاس غرامه في إزالة المنكر والصدع بالحق وكان
يتبسم إلى من لقيه وله فصاحة في العربية والبربرية وكان يؤذى ويضرب ويصبر أودى بمكة
فراح إلى مصر وبالغ في الإنكار فطردوه وآذوه وكان إذا خاف من البطش به خلط وتباله ثم

(١) توفيق الغلبزوى، المدرسة الظاهرية بالمغرب والأندلس، ص.٧، د.

(٢) أنظر: الردود على ابن حزم بالأندلس والمغرب من خلال مؤلفات ابن حزم، مقال بمجلة الأحمدية، دبي، محرم
١٤٢٤هـ/مارس ٢٠٠٣م، عدد ١٣، ص ٣١٩.

(٣) عبد الله علام، الدولة الموحدية، ص ٣١٢.

سكن الشجر مدة ثم ركب البحر إلى المغرب وقد رأى أنه شرب ماء البحر مرتين وأخذ ينكر في المركب على الناس وألزمهم بالصلاة فأذوه فقدم المهديّة وعليها ابن باديس فنزل بمسجد معلق فمتى رأى منكرا أو خمرا كسر وبدد فالتف عليه جماعة واشتغلوا عليه فطلبه ابن باديس فلما رأى حاله وسمع كلامه سأله الدعاء فقال أصلحك الله لرعيتك وسار إلى بجاية فبقي ينكر كعادته فنفي فذهب إلى قرية ملالة فوقع بها بعد المؤمن الذي تسلطن وكان أمردا عاقلا فقال يا شاب ما اسمك قال عبد المؤمن قال الله أكبر أنت طلبتي فأين مقصدك قال طلب العلم قال قد وجدت العلم والشرف اصحبنى ونظر في حليته فوافقت ما عنده مما قيل إنه اطلع على كتاب الجفر فالله أعلم فقال ممن أنت قال من كومية فربط الشاب وشوقه إلى أمور عشقها وأفضى إليه بسرّه وكان في صحبته الفقيه عبد الله الونشريسي وكان جميلا نحويا فاتفقا على أن يخفي علمه وفصاحته ويتظاهر بالجهل واللكن مدة ثم يجعل إظهار نفسه معجزة ففعل ذلك ثم عمد إلى ستة من أجداد أتباعه وسار بهم إلى مراکش وهي لابن تاشفين فأخذوا في الإنكار فخوفوا الملك منهم وكانوا بمسجد خراب فأحضرهم الملك فكلّموه فيما وقع فيه من سب الملك فقال ما نقل من الواقعة فيه فقد قلته هل من ورائه أقوال وأنتم تطرونه وهو مغرور بكم فيا قاضي هل بلغك أن الخمر تباع جهارا وتمشي الخنازير في الأسواق وتؤخذ أموال اليتامى فذرفت عينا الملك وأطرق وفهم الدهاة طمع ابن تومرت في الملك فنصح مالك بن وهيب الفيلسوف سلطانه وقال إني خائف عليك من هذا فاسجنه وأصحابه وأنفق عليهم مؤنتهم وإلا انفقت عليهم خزائنك فوافقه فقال الوزير يقبح بالملك أن يبكي من وعظه ثم يسيء إليه في مجلس وأن يظهر خوفك وأنت سلطان من رجل فقير فأخذته نخوة وصرفه وسأله الدعاء وسار ابن تومرت إلى أغمات فنزلوا على الفقيه عبدالحق المصمودي فأكرمهم فاستشاروه فقال هنا لا يحميكم هذا الموضع فعليكم بتينمل فهي يوم عنا وهو أحسن الأماكن فأقيموا به برهة كي ينسى ذكركم فتجدد لابن تومرت بهذا الاسم ذكر لما عنده فلما رأهم أهل الجبل على تلك الصورة علموا أنهم طلبة علم فأنزلوهم وأقبلوا عليهم ثم تسامع به أهل الجبل فتسارعوا إليهم فكان ابن تومرت من رأى فيه جلادة عرض عليه ما في نفسه فإن أسرع إليه أضافه إلى خواصه وإن سكت أعرض عنه وكان

كهلهم يهون شبانهم ويحذرونهم وطالت المدة ثم كثر أتباعه من جبال درن وهو جبل الشلج وطريقه وعر ضيق.

قال اليسع وكان في وصيته إلى قومه إذا ظفروا بمرابط أو تلمساني أن يحرقوه فلما كان عام تسعة عشر وخمس مئة خرج يوما فقال تعلمون أن البشير يريد الونشريسي رجل أُمي ولا يثبت على دابة فقد جعله الله مبشرا لكم مطلعا على أسراركم وهو آية لكم قد حفظ القرآن وتعلم الركوب وقال اقرأ فقرأ الختمة في أربعة أيام وركب حصانا وساقه فبهتوا وعدوها آية لغباوتهم فقام خطيبا وتلا (ليميز الله الخبيث من الطيب) [الأنفال ٣٧] وتلا (منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون) [آل عمران ١١٠] فهذا البشير مطلع على الأنفس ملهم ونيكم صلى الله عليه وسلم يقول إن في هذه الأمة محدثين وإن عمر منهم وقد صحبنا أقوام أطلعهم الله على سرهم ولا بد من النظر في أمرهم وتيمم العدل فيهم ثم نودي في جبال المصامدة من كان مطيعا للإمام فليات فأقبلوا يهرعون فكانوا يعرضون على البشير فيخرج قوما على يمينه ويعددهم من أهل الجنة وقوما على يساره فيقول هؤلاء شاكون في الأمر وكان يؤتى بالرجل منهم فيقول هذا تائب ردوه على اليمين تاب البارحة فيعترف بما قال واتفقت له فيهم عجائب حتى كان يطلق أهل اليسار وهم يعلمون أن مآلهم إلى القتل فلا يفر منهم أحد وإذا تجمع منهم عدة قتلهم قرباتهم حتى يقتل الأخ أخاه.

قال فالذي صح عندي أنهم قتل منهم سبعون ألفا على هذه الصفة ويسمونه التمييز فلما كمل التمييز وجه جموعه مع البشير نحو أغمات فالتقاهم المرابطون فهزمهم المرابطون وثبت خلق من المصامدة فقتلوا وجرح عمر الهنتاني عدة جراحات فحمل على أعناقهم مثخنا فقال لهم البشير إنه لا يموت حتى تفتح البلاد ثم بعد مدة فتح عينيه وسلم فلما أتوا عزاهم ابن تومرت وقال يوم بيوم وكذلك حرب الرسل، وقال عبد الواحد المراكشي: ولما كانت سنة 515 قام بسوس محمد بن عبد الله بن تومرت في صورة أمر بالمعروف ناه عن المنكر. ومحمد هذا رجل من أهل سوس مولده بها بضيعة منها تعرف بإيجلي أن وارغن - وهو من قبيلة تسمى هرغة - من قوم يعرفون بأيسرغين وهم الشرفاء بلسان المصامدة ولمحمد بن تومرت نسبة متصلة بالحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وجدت بخطه وكان قد

رحل إلى المشرق في شهور سنة ٥٠١ في طلب العلم وانتهى إلى بغداد ولقي أبا بكر الشاشي فأخذ عليه شيئاً من أصول الفقه وأصول الدين وسمع الحديث على المبارك بن عبد الجبار ونظرائه من المحدثين وقيل إنه لقي أبا حامد الغزالي بالشام أيام ترهده فالله أعلم.

وحكي أنه ذكر للغزالي ما فعل أمير المسلمين بكتبه التي وصلت إلى المغرب من إحراقها وإفسادها وابن تومرت حاضر ذلك المجلس فقال: الغزالي حين بلغه ذلك ليذهبن عن قليل مكة وليقتلن ولده وما أحسب المتولي لذلك إلا حاضراً مجلسنا وكان ابن تومرت يحدث نفسه بالقيام عليهم فقوى طمعه.... ثم قال سمع ابن تومرت ببغداد من المبارك بن الطيوري وأخذ الأصول عن الشاشي ونفاه من الإسكندرية أميرها فبلغني أنه استمر ينكر في المركب فألقوه فأقام نصف يوم يعوم فأنزلوا من أطلععه واحترموه فنزل ببجاية فدرس ووعظ وأقبلوا عليه فخاف صاحبها وأخرجه وكان بارعا في خط الرمل وقيل وقع بالجفر وصادف عبد المؤمن ثم لقيهما عبد الواحد الشرقي فساروا إلى أقصى المغرب وقيل لقي عبد المؤمن يؤدب بأرض متيجة ورأى عبد المؤمن أنه يأكل مع الملك علي بن تاشفين وأنه زاد على أكله ثم اختطف منه الصحيفة فقال له العابر لا ينبغي أن تكون هذه الرؤيا لك بل لمن يثور على أمير المسلمين إلى أن يغلب على بلاده وكان ابن تومرت طويل الصمت دائم الانقباض له هيبة في النفوس قيل له مرة فلان مسجون فأتى الحبس فابتدر السجنون يتمسحون به فنادى فلان فأجابه فقال اخرج فخرج والسجانون باهتون فذهب به وكان لا يتعذر عليه أمر وانفصل عن تلمسان وقد استحوذ على قلوب كبرائها فأتى فاس وأخذ في الأمر بالمعروف قال وكان جل ما يدعو إليه الاعتقاد على رأي الأشعري وكان أهل الغرب ينافرون هذه العلوم فجمع متولي فاس الفقهاء وناظروه فظهر ووجد جوا خاليا وقوما لا يدرون الكلام فأشاروا على الأمير بإخراجه فسار إلى مراكش فبعثوا بخبره إلى ابن تاشفين فجمع له الفقهاء فناظره ابن وهيب الفيلسوف فاستشعر ذكاهه وقوة نفسه فأشار على ابن تاشفين بقتله وقال إن وقع إلى المصامدة قوي شره فخاف الله فيه فقال فاحبسه قال كيف أحبس مسلما لم يتعين لنا عليه حق بل يسافر فذهب ونزل بتينملل ومنه ظهر وبه دفن فبث في المصامدة العلم ودعاهم إلى الأمر بالمعروف واستمالهم وأخذ يشوق إلى المهدي ويروي أحاديث فيه فلما توثق منهم قال

أنا هو وأنا محمد بن عبد الله وساق نسبا له إلى علي فبايعوه وألف لهم كتاب أعز ما يطلب ووافق المعتزلة في شيء والأشعرية في شيء وكان فيه تشيع (١) ورتب أصحابه فمنهم العشرة فهم أول من لباه ثم الخمسين وكان يسميهم المؤمنين ويقول ما في الأرض من يؤمن إيمانكم وانتم العصاة الذين عنى النبي صلى الله عليه وسلم بقوله لا يزال أهل الغرب ظاهرين وأنتم تفتحون الروم وتقتلون الدجال ومنكم الذي يؤم بعيسى وحدثهم بجزئيات اتفق وقوع أكثرها فعظمت فتنة القوم به حتى قتلوا أبناءهم وإخوتهم لقسوتهم وغلظ طباعهم وإقدامهم على الدماء فبعث جيشا وقال اقصدوا هؤلاء المارقين المبدلين الذين فادعوهم إلى إماتة المنكر وإزالة البدع والإقرار بالمهدي المعصوم فإن أجابوا فهم إخوانكم وإلا فالسنة قد أباحت لكم قتالهم فسار بهم عبد المؤمن يقصد مراكش فالتقاه الزبير بن أمير المسلمين فكلموهم بالدعوة فردوا أقبح رد ثم انهزمت المصامدة وقتل منهم ملحمة فلما بلغ الخبر ابن تومرت قال أنجى عبد المؤمن قيل نعم قال لم يفقد أحد وهون عليهم وقال قتلاكم شهداء (٢).

وقال المراكشي: أخبرني من رآه - ممن أثق إليه - يضرب الناس على الخمر بالأكمام والنعال وعسب النخل متشبهها في ذلك بالصحابة.

ولقد أخبرني بعض من شهدده وقد أتى برجل سكران فأمر بحدته فقال: رجل من وجوه أصحابه يسمى يوسف بن سليمان لو شددنا عليه حتى يخبرنا من أين شربها لنحسم هذه العلة من أصلها! فأعرض عنه ثم أعاد عليه الحديث فأعرض عنه فلما كان في الثالثة قال: له رأيت لو قال: لنا شربتها في دار يوسف بن سليمان ما نحن صانعون؟ فاستحيا الرجل وسكت ثم كشف على الأمر فإذا عبيد ذلك الرجل سقوه فكان هذا من جملة ما زادهم به فتنة وتعظيماً إلى أشياء كان يخبر بها فتقع كما يخبر. ولم يزل كذلك وأحواله سالحة وأصحابه ظاهرون وأحوال المرابطين المذكورين تختل وانتقاض دولتهم يتزايد إلى أن توفي ابن تومرت المذكور في شهر سنة ٥٢٤ بعد أن أسس الأمور وأحكم التدبير ورسم لهم ما هم فاعلوه (٣).

(١) ناقشنا ذلك بالتفصيل في كتابنا الظاهرية والمالكية، دار الآفاق العربية، فلترجع هناك .

(٢) أنظر: المعجب، ص ١٥٥-١٦١ .

(٣) نفسه، ص ١٦٦ .

قلت: وكان "محمد بن تومرت" حين يعلم أن أتباعه ينظرون إلى الغنائم التي حصلوها من دولة المرابطين في حربهم معهم كان يأخذها كلها فيحرقها.. وكان يعذر بالضرب من يفوته قيام الليل من جماعته. فنشأت جماعة من الطائعين الزاهدين العابدين، لكن على غير نهج رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي لم يكن يحرق الغنائم أو يضرب المتباطئين أو المتثاقلين عن قيام الليل، أو يتبع مثل هذا المنهج وتلك الرهينة المتشددة، فكره كثير من الناس مثل هذا الأسلوب، لكنهم مع ذلك اتبعوه!!...

وقال الأمير عزيز في أخبار القيروان سمي ابن تومرت أصحابه بالموحدين ومن خالفه بالمجسمين واشتهر سنة خمس عشرة وباعته هرغة على أنه المهدي فقصدته الملثمون فكسروا الملثمين وحازوا الغنائم ووثقت نفوسهم وأتتهم أمداد القبائل ووحدت هنتاته وهي من أقوى القبائل ثم قال عزيز لهم تودد وأدب وبشاشة ويلبسون الثياب القصيرة الرخيصة ولا يخلون يوماً من طراد ومثاقفة ونضال وكان في القبائل مفسدون فطلب ابن تومرت مشايخ القبائل ووعظهم وقال لا يصلح دينكم إلا بالنهي عن المنكر فابحثوا عن كل مفسد فانهوه فإن لم ينته فاكتبوا إلي أسماءهم ففعلوا ثم هدد ثانياً فأخذ ما تكرر من الأسماء فأفردوا ثم جمع القبائل وحضهم على أن لا يغيب منهم أحد ودفع تلك الأسماء إلى البشير فتأملها ثم عرضهم رجلاً رجلاً فمن وجد اسمه رده إلى الشمال ومن لم يجده بعثه على اليمين ثم أمر بتكتيف أهل الشمال وقال لقراباتهم هؤلاء أشقياء من أهل النار فلتقتل كل قبيلة أشقياءها فقتلوهم فكانت واقعة عجيبة وقال بهذا الفعل صح دينكم وقوي أمركم.

وأهل العشرة هم عبد المؤمن والهرجزي وعمر بن يحيى الهنتاتي وعبدالله البشير وعبدالواحد الزواوي طير الجنة وعبدالله بن أبي بكر وعمر بن أرناق وواسنار أبو محمد وإبراهيم بن جامع وآخر وفي أول سنة أربع وعشرين جهز عشرين ألف مقاتل عليهم البشير وعبدالمؤمن بعد أمور يطول شرحها فالتقى الجمعان واستحر القتل بالموحدين وقتل البشير ودام الحرب إلى الليل فصلى بهم عبد المؤمن صلاة الخوف ثم تحيز بمن بقي إلى بستان يعرف بالبحيرة فراح منهم تحت السيف ثلاثة عشر ألفاً وكان ابن تومرت مريضاً فأوصى باتباع عبد المؤمن وعقد له ولقبه أمير المؤمنين وقال هو الذي يفتح البلاد فاعضدوه بأنفسكم وأموالكم ثم مات في آخر سنة أربع وعشرين وخمس مئة.

قال اليسع بن حزم سمي ابن تومرت المرابطين بالمجسمين فكفرهم لجهلهم العرض والجوهر وأن من لم يعرف ذلك لم يعرف المخلوق من الخالق وبأن من لم يهاجر إليه ويقاتل معه فإنه حلال الدم والحريم وذكر أن غضبه لله وقيامه حسبة.

قال ابن خلكان قبره بالجبل معظم مات كهلا وكان أسمر ربعة عظيم الهامة حديد النظر مهيبا وآثاره تغني عن أخباره قدم في الشرى وهامة في الشريا ونفس ترى إراقة ماء الحياة دون إراقة ماء المحيا أغفل المرابطون ربطه وحله حتى دب دبب الفلق في الغسق وكان قوته من غزل أخته رغيفا بزيت أو قليل سمن لم ينتقل عن ذلك حين كثرت عليه الدنيا رأى أصحابه يوما وقد مالت نفوسهم إلى كثرة ما غنموه فأمر بإحراق جميعه وقال من أراد الدنيا فهذا له عندي ومن كان يبغي الآخرة فجزاؤه عند الله وكان يتمثل كثيرا

تجرد من الدنيا فإنك إنما خرجت إلى الدنيا وأنت مجرد

ولم يفتح شيئا من المدائن وإنما قرر القواعد ومهد وبغته الموت وافتتح بعده البلاد عبد المؤمن.

يقال أن ابن تومرت أخفى رجالا في قبور دوارس وجاء في جماعة ليربهم آية يعني فصاح أيها الموتى أجيئوا فأجابوه أنت المهدي المعصوم وأنت وأنت ثم إنه خاف من انتشار الحيلة فحسف فوقهم القبور فماتوا.

قال الذهبي وبكل حال فالرجل من فحول العالم رام أمرا فتم له وربط البربر بادعاء العصمة وأقدم على الدماء إقدام الخوارج ووجد ما قدم.

قال الحافظ منصور بن العمادية في تاريخ الثغر أملى علي نسبة فلان وفي ذلك نظر من حيث إن محمد بن الحسن لم يعقب ولا ابن تومرت شعرا منه:

دعني ففي النفس أشياء مخبأة لألبسن بها درعا وجلبابا

والله لو ظفرت نفسي ببعيبتها ما كنت عن ضرب أعناق الورى آبي

حتى أظهر ثوب الدين عن دنس وأوجب الحق للسادات إيجابا (١).

قلت: وقد طرحت بعضا من أقوال المؤرخين حول ابن تومرت، وجلهم اتفق على أنه

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٩ / ٥٣٩ - ٥٥٢ .

لم يقع منه إلا بدعة القول بالعصمة وادعاء المهدوية. بجانب بعض التأثيرات الاعترافية والأشعرية. كما اتفقوا على أنه كان واحدا من أكابر العلماء. ولكن وقع منه إسراف في القتل للمرابطين ولمن يشك في عصمته ومهدويته، والله نسأله العفو والعافية. وايا ما كن من أمره فهو أول مؤسس للدولة الموحدية، وأول من شرع في الدعوة للعودة إلى النصوص، ونفى القياس والتقليد والظنون في شرع الله.

هذا وقد تعلم ابن تومرت المذهب الظاهري في قرطبة على يد تلاميذ ابن حزم وقرأ كتب ابن حزم على يد الطرطوشي أحد المهتمين بكتب ابن حزم وصاحب أبنائه رغم كونه مالكيًا ومن ثم النزعة الظاهرية عند ابن حزم واضحة جدا لا تخفى على أحد ممن اطلع على فكره.

ومن الأمور التي روجت ضد المهدي وكان من جملة من روجها واحد من أساتذتي المتخصصين في المغربيات إذ قال عنه أن قوام مذهبه العقيدة الشيعية وهذا باطل ومن طالع كتاب ابن تومرت أعز ما يطلب علم أن الرجل ليس له من التأثير الشيعي إلا قول العصمة وقوام نظرية الشيعة في الإمامة هدمها ابن تومرت لما اعترف بخلافة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي والحسن بن علي وقال مدة الخلافة بعد النبي ثلاثين عاما فهذا ضرب لصميم العقيدة الشيعية.

ظاهرة ابن تومرت (١): مزج ابن تومرت دعوته بالمذهب الظاهري في الجانب الفقهي ليحارب به المرابطين كما حارب به ابن حزم المالكية (٢) حيث ذهب ابن تومرت

(١) أكد الشاطبي ظاهريته وصاحب بيوتات فاس ومؤرخو العصر المريني اللاحق لعصر الموحدين، والنشريسي في معياره.

(٢) حسين مؤنس، عقد بيعة بولاية العهد لأبي عبد الله المعروف بالخليفة الناصر الموحدي، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، ديسمبر ١٩٥٠م، مجلد ١٢، ج ٢ ص ١٤٨، المنوني، حضارة الموحدين، ص ٣٧، أحمد مختار العبادي، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، ص ١٠٩، ديلاسي أوليري، الفكر العربي ومكانته في التاريخ، ترجمة تمام حسان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط ٢، ١٩٩٧م، ص ١٧٤، ١٧٢، سعد زغلول عبد الحميد، محمد بن تومرت وحركة التجديد في المغرب والأندلس، جامعة بيروت العربية، ١٩٧٣م، ص ٢١، محمود إسماعيل، سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، ج ٣ طور الاختيار، القسم الأول، ص ١٧٥، =

إلى قرطبة وهناك تشيع بتعاليم ابن حزم (١) ومنها أن الشريعة لا تثبت بالعقل وأن أصولها تنحصر في القرآن والسنة، ولم يعتبر القياس والإجماع الذى لا نص يؤيده من تلك الأصول بل عمد إلى حجج القائلين بالقياس وأبطلها، واهتم بدراسة الأصول دون الفروع وأبطل الاعتماد على الشك والظن والتقليد ودعا إلى التأصيل الشرعى للأحكام من نصوص القرآن والسنة، كما دعا إلى الجهاد ضد القوى التى عملت على نشر المنكر، وقاوم المنكرات بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٢).

بل إن المطلع على كتاب المهدي محمد بن تومرت سرعان ما يتضح له أثر الفكر الظاهري عليه، إذ أنه عبارة عن دعوة للعودة إلى الكتاب والسنة، حيث بوب كتابه وأفتى فى كل مسألة بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية (٣)، بل إن ابن تومرت خطأ خطوة أكدت ظاهريته حينما أمر بقطع كتب الفروع الفقهية وحرقتها على قول شارح كتاب أعز ما يطلب (٤) وهو ما أكده ابن الخطيب حينما قال إن ابن تومرت كان ينكر كتب الرأى والتقليد (٥) وكذا أثبت الونشريسي ظاهريته (٦)، بل إن صاحب بيوتات فاس كان أكثر جرأة وصراحة حينما صرح بظاهرية دولة الموحدين من أول ظهورها حتى انتهائها حينما قال "إن ملوك الموحدين تحلوا بالمذهب المعروف لهم، تابعين للمهدي رئيسهم الأول القائل .. بإنكار الرأى فى الفروع الفقهية والعمل شرعا على محض الظاهرية ... وجروا على ذلك

=عادل يحيى عبدالمنعم، العلم والتعليم فى المغرب العربي من الفتح إلى نهاية دولة الموحدين، رسالة ماجستير، بنات عين شمس، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م، ص ٧٥.

(١) ابن القبطان، نظم الجمان، ص ٤؛ عبد الله العروى، تاريخ المغرب، ترجمة ذوقان فرقوط، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ص ١٧٦؛ الغلبزورى، المدرسة الظاهرية، ص ٦٢٣.

(٢) محمد بن تومرت، أعز ما يطلب، ص ١-٥، ١١-١٨، ١٦٣-١٦٥، ٢٥٨-٢٦٦؛ وانظر: الغلبزورى، المدرسة الظاهرية، ص ٦٣٦-٦٦٠.

(٣) ابن تومرت، مصدر سابق، ص ٣١٣-٣٧٦.

(٤) عبدالمجيد النجار، المهدي بن تومرت، ص ٣٦٢.

(٥) أنظر: شرح رقم الحلال، تحقيق عدنان درويش، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٠م، ص ٥٧.

(٦) أنظر: المعيار المغرب، ٣٦١/٢.

السنن بطول أيامهم إلى أن انقروا، أولهم في ذلك مهديهم أول ملوكهم... (١) وهذا القول أكده صاحب كتاب الإعلام (٢)، وباستقراء تاريخ الدولة الموحدية نجد أن كل من عبد المؤمن بن علي (٣) والمنصور بن يوسف بن عبد المؤمن (٤) والناصر بن المنصور (٥) قد تابعوا ابن تومرت في تقطيع كتب الفروع وإحراقها وتغيير الناس منها وحمل الناس على محض الظاهرية.

مصنفات:

- ١- المرشدة وهي رسالة صغيرة عرض فيها لمسائل العقيدة بإيجاز. مطبوعة.
- ٢- العقيدة وهي رسالة في مسائل العقيدة وأشار إليها المراكشي باسم "عقائد في اصول الدين"، وقد وردت في مجموع أعز ما يطلب.
- ٣- رسالة في توحيد الباري. وردت ضمن كتاب أعز ما يطلب. كتاب في التوحيد باللسان البري في سبعة أحزاب على قول ابن القطان.
- ١ - كتاب القواعد. ورد في مجموع أعز ما يطلب.
- ٢ - رسالة في العبادة وردت ضمن مجموع أعز ما يطلب.

-
- (١) إسماعيل بن الأحمر، بيوتات فاس الكبرى، دار المنصور، الرباط، ١٩٧٢م، ص ١٩؛ وانظر: المنوني، حضارة الموحدين، ص ٣٧، ٣٨.
 - (٢) العباس بن إبراهيم، الإعلام بمن حل مراكش وأغمت من الإعلام، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٧٤م - ١٩٧٧م، ٨/٣٩٦.
 - (٣) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ٢٥٥، الناصري، الاستقصا، ١٢٥/٢، ابن العماد، شذرات الذهب، دار الفكر، ٤/٣٢٢.
 - (٤) المراكشي، المعجب، ٢٣١؛ وانظر: النويري، نهاية الأرب، ٢٤/٣٣٩، ٣٣٨؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ١١/٧، المقرئ، نفع الطيب، ٣/١١٤.
 - (٥) قال صاحب بيوتات فاس عن الناصر بن المنصور "كان كأبيه لا يحكم إلا بمحض الظاهرية، وأن الفقهاء من المالكية أنكروا عليه ذلك وقالوا: الحق هو مذهب المدونة فأمر بجمع ما وجد من النسخ منها بالمغرب وإحراقها فأحرقت عن آخرها" انظر: إسماعيل بن الأحمر، بيوتات فاس الكبرى، ص ١٩؛ الغلبزوري، المدرسة الظاهرية، ص ٤٥٨.

- ٣ - رسالة في الدليل على أن الشريعة لا تثبت بالعقل. وردت ضمن مجموع أعز ما يطلب.
- ٤ - رسالة في العلم. وردت ضمن مجموع أعز ما يطلب.
- ٥ - رسالة في المحدث. وردت ضمن مجموع أعز ما يطلب.
- ٦ - كتاب الإمامة. ورد ضمن مجموع أعز ما يطلب.
- ٧ - رسالة في الصلاة - كتاب الطهارة - كتاب الغلoul - كتاب تحريم الخمر - كتاب الجهاد - رسالة في أصول الفقه. وكل ذلك ورد ضمن مجموع أعز ما يطلب.
- ٨ - محاذى الموطأ وهو كتاب اختصر فيه موطأ مالك، نشر بالجزائر سنة ١٩٠٧م.
- ٩ - مختصر صحيح مسلم، وهو محذوف الأسانيد.
- ١٠ - رسالة في بيان طوائف المبطلين من الماثمين والمجسمين. وردت ضمن مجموع أعز ما يطلب.

وفاتة: قال المراكشي: قبل موته - أى ابن تومرت - بأيام يسيرة استدعى هؤلاء المسمين بالجماعة وأهل خمسين.... فلما حضروا بين يديه قام وكان متكئاً فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله وصلى على محمد نبيه صلى الله عليه وسلم ثم أنشأ يترضى عن الخلفاء الراشدين - رضوان الله عليهم - ويذكر ما كانوا عليه من الثبات في دينهم والعزيمة في أمرهم وأن أحدهم كان لا تأخذه في الله لومة لائم وذكر من حد عمر رضي الله عنه ابنه في الخمر وتصميمه على الحق في أشباه لهذه الفصول ثم قال: فانقرضت هذه العصاة - نضر الله وجوهها وشكر لها سعيها وجزاها خيراً عن أمة نبيها - وخبطت الناس فتنة تركت الحلیم حيران والعالم متجاهلاً مدهناً فلم ينتفع العلماء بعلمهم بل قصدوا به الملوك واجتلبوا به الدنيا وأمالوا وجوه الناس إليهم في أشباه لهذا القول إلى هاجراً: ثم إن الله - سبحانه وله الحمد - من عليكم أيتها الطائفة بتأييده وخصكم من بين أهل هذا العصر بحقيقة توحيده وقيض لكم من ألقاكم ضلالاً لا تهتدون وعمياً لا تبصرون لا تعرفون معروفاً ولا تنكرون منكراً قد فشت فيكم البدع واستهوتكم الأباطيل وزين لكم الشيطان أضراليل وترهات أنزه لساني عن النصق

بها وأربأ بلفظي عن ذكرها فهذاكم الله به بعد الضلالة وبصركم بعد العمى وجمعكم بعد الفرقة وأعزكم بعد الذلة ورفع عنكم سلطان هؤلاء المارقين وسيورثكم أرضهم وديارهم ذلك بما كسبته أيديهم وأضمرته قلوبهم وما ربك بظلام للعبيد فجددوا لله - سبحانه خالص نياتكم وأروه من الشكر قولاً وفعلاً ما يزكي به سعيكم ويتقبل أعمالكم وينشر أمركم واحذروا الفرقة واختلاف الكلمة وشتات الآراء وكونوا يداً واحدة على عدوكم فإنكم إن فعلتم ذلك هابكم الناس وأسرعوا إلى طاعتكم وكثر أتباعكم وأظهر الله الحق على أيديكم وإلا تفعلوا شملكم الذل وعمكم الصغار واحتقرتكم العامة فخطفتكم الخاصة وعليكم في جميع أموركم بمزج الرأفة بالغلظة واللين بالعنف واعلموا مع هذا أنه لا يصلح أمر آخر هذه الأمة إلا على الذي صلح عليه أمر أولها وقد اخترنا لكم رجلاً منكم وجعلناه أميراً عليكم هذا بعد أن بلوناه في جميع أحواله من ليله ونهاره ومدخله ومخرجه واختبرنا سيرته وعلايته فرأيناه في ذلك كله ثباتاً في دينه متبصراً في أمره وإني لأرجو ألا يخلف الظن فيه وهذا المشار إليه هو عبد المؤمن فاسمعوا له وأطيعوا ما دام سامعاً مطيعاً لربه فإن بدل أو نكص على عقبه أو ارتاب في أمره ففي الموحدين أعزهم الله بركة وخير كثير والأمر أمر الله يقلده من شاء من عباده . فبايع القوم عبد المؤمن ودعا لهم ابن تومرت ومسح وجوههم وصدورهم واحداً واحداً فهذا سبب إمرة عبد المؤمن - رحمه الله - ثم توفي ابن تومرت بعد عهده بيسير واجتمع أمر المصامدة على عبد المؤمن. (١) وكانت واته يوم الاربعاء ١٣ رمضان سنة ٥٢٤هـ، وقيل إن المهدي لما مات لم يعلم بخبر وفاته إلا عبد المؤمن وأصحابه العشرة وهم يدبرون أمر الدولة بسياسة ظاهرة من عبد المؤمن ثلاث سنوات (٢)

٢- عبد المؤمن بن علي الكومي الظاهري (٤٨٧ - ٥٥٨ هـ، ١٠٩٤ - ١١٦٣ م)

هو عبد المؤمن بن علي بن مخلوف بن يعلى بن مروان، أبو محمد الكومي نسبه إلى كومية، من قبائل الأمازيغ، ولد بمدينة ندرومة . قرب تلمسان سنة ٤٨٧هـ في أيام يوسف بن تاشفين. وفيها نشأ وتعلم. وكان والده صانع خزف أو فخار.

(١) أنظر: المعجب، ص١٦٧، ١٦٨.

(٢) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص٢٣٦.

نسبه وقبيلته: نسبته إلى كومية من قبائل البربر، ومن أرباب التاريخ من نسبه لقيس

عيلان (١)

وفي وصف "عبد المؤمن بن علي" قال عبد الواحد المراكشي: وكان أبيض ذا جسم عمم تعلوه حمرة شديد سواد الشعر معتدل القامة وضيء الوجه جهوري الصوت فصيح الألفاظ جزل المنطق وكان محبباً إلى النفوس لا يراه أحد إلا أحبه وبلغني أن ابن تومرت كان ينشد كلما رآه:

تكاملت فيك أخلاق خصصت بها فكلنا بك مسرور ومغتبط

فالسن ضاحكة والكف مانحة والصدر منشرح والوجه منبسط (٢)

ورث عبد المؤمن عن ابن تومرت حركة ثائرة فحولها إلى دولة مستقرة، ومد سلطانهما حتى شملت المغرب كله وما بقي من الأندلس ووضع لها القواعد والنظم الإدارية التي تمكن من تسيير أمور الدولة وإدارة شئونها. ويحفظ التاريخ رسالة طويلة بعث بها عبد المؤمن إلى أهل الأندلس، تعد دستوراً لنظم الحكم الموحدية.

ونظم عبد المؤمن أمور دولته وجعل لها مؤسسات، فللعدل والنظر في الشكايات وزير، ولأعمال الحرب والجهاد وزير يسمى "صاحب السيف"، وللشؤون وزير، وللشرطة رئيس يسمى "الحاكم"، وجعل للكتابة والمراسلات وزيراً من أهل الرأي والبلاغة، وكان لعبد المؤمن مجلس خاص للنظر والمشاورة يحضره الفقهاء ونواب القبائل وكبار رجال الدولة.

عني عبد المؤمن بن علي بالجيش حتى صار من أعظم الجيوش في وقته، وكان هو نفسه قائداً عظيماً وجندياً ممتازاً، يشاطر جنوده مشقة الطريق وتكشف الحياة العسكرية، واجتمع له من الجيوش الجرارة ما لم يجتمع لملوك المغرب مثله، حيث حقق به انتصارات رائعة.

يُعدّ عبد المؤمن بن علي الرجل الثاني بعد ابن تومرت المؤسس الحقيقي والفعلي لجماعة الموحدين.

كان ملكاً عادلاً، سائساً، عظيم الهيئة، عالي الهمة، متين الديانة، كثير المحاسن،

(١) ابن الخطيب، الحلل الموشية، ص ١٠٧.

(٢) المراكشي، المعجب، ص ١٦٩.

قليل المثل، وكان يقرأ كل يوم سُبْعًا من القرآن العظيم، ويحْتَنِب لبس الحرير - وهذا يعني أن لبس الحرير كان عادة وإلفًا في زمانه - وكان يصوم الاثنين والخميس، ويهتم بالجهاد والنظر في المُلْك كأنما خُلِق له. ثم بعد هذه الأوصاف نجد هذه العبارة التي تحمل كثيرًا من علامات الاستفهام حيث يقول: وكان سَقَاكَ لدماء من خالفه!!.

قال عنه "الزركلي" في "الأعلام": "وكان عاقلاً حازماً شجاعاً موفقاً، كثير البذل للأموال، شديد العقاب على الجرم الصغير عظيم الاهتمام بشؤون الدين، محباً للغزو والفتوح، خضع له المغربان (الاقصى والاوسط) واستولى على إشبيلية وقرطبة وغرناطة والجزائر المهدية وطرابلس الغرب وسائر بلاد أفريقيا، وأنشأ الاساطيل، وضرب الخراج على قبائل المغرب، وهو أول من فعل ذلك هنالك...

ومثل هذه الأوصاف ذكرها ابن كثير أيضاً في البداية والنهاية، وأضاف أنه كان يعيبه كثرة سفك الدماء لمن عارضه من أتباعه أو من غير أتباعه. وهذه بالطبع - وكما ذكرنا - هي تعاليم محمد بن تومرت.

وعلى ما يبدو فقد كانت فكرتا العصمة والمهدية اللتين ادّعاهما محمد بن تومرت واقتنع بهما أتباعه من بعده لم يكن عبد المؤمن بن عليّ مقتنعا بهما؛ لأنه أبداً ما ادّعى أياً منهما، كما أنه لم يدّع فكر الخوارج الذي كان قد اعتقد به أو ببعضه "محمد بن تومرت"، وعلى الجانب الآخر فإن "عبد المؤمن بن عليّ" لم ينف مثل هذه الأفكار الصالحة صراحة؛ وذلك لأن غالب شيوخ الموحّدين كانوا على هذا الفكر وذلك الاعتقاد، فخاف إن هو أعلن أن أفكار "محمد بن تومرت" هذه مخالفة للشرع أن ينفرد العقيد ويحدث التفكك في هذه الفترة الحرجة من دولة الموحّدين....

مشاهد من حياة عبد المؤمن بن علي: قال المراكشي: حدثني غير واحد أن عبد المؤمن لما نزل "سلا" - مدينة بأقصى المغرب ليس بعدها معمور إلا مدينة صغيرة يقال لها: غرنيطوف - وهي على البحر المحيط ينصب إليها نهر عظيم، ويمر في البحر - عبر النهر، وضربت له خيمة، وجعلت جيوشه تعبر قبيلة قبيلة، فخر ساجداً، ثم رفع وقد بل الدمع لحيته، فقال: أعرف ثلاثة وردوا هذه المدينة، لا شئ لهم إلا رغيف واحد، فراموا عبور هذا

النهر، فبذلوا الرغيف لصاحب القارب على أن يعدي بهم، فقال: لا آخذه إلا عن اثنين، فقال أحدهم وكان شاباً: تأخذ ثيابي وأنا أسبح، ففعل، فكان الشاب كلما أعبأ، دنا من القارب، ووضع يده عليه يستريح، فيضربه بالمجداف، فما عدى إلا بعد جهد. فما شك السامعون أنه هو السابح، والآخرون ابن تومرت، وعبد الواحد الشرقي.

وقال المراكشي: فأخبرني بعض أشياخ الموحدين من ذوي التحصيل منهم والثقة أن عبد المؤمن مر في طريقه راجعاً من إفريقية ببجاية فدخل البلد متنزهاً فيه فمر بسويقة بناحية باب من أبوابها يدعى باب تاطنت فوقف ووقفت معه وجوه دولته فسأل عن بيع بها سماه باسمه فأخبره أهل السويقة بوفاته فقال: هل خلف عقباً؟ قالوا نعم فأمر بشراء جميع الدكاكين التي بتلك السويقة وأوقفها عليهم وأمر لهم بمال كثير ثم التفت إلى بعض خواصه وقال: له أتيت إلى هذا البيع ولي وللإمام - يعني ابن تومرت - ولجماعة من أصحابنا من الطلبة أيام لم نطعم فيها وما معي إلا سكين الدواة فأخذت منه خبزاً وإداماً ثم وضعت عنده السكين رهنأ على ذلك فأبى قبولها وقال: لي إني توسمت فيك الخير فمتى أعوزك شيء فهلم الدكان فهو بين يديك وبحكمك! فحقه علي أكثر من هذا. (١)

أولاده: وكان له من الولد ستة عشر ذكراً وهم محمد وهو أكبر ولده وولي عهده وهو الذي خُلع وعلي وعمر ويوسف وعثمان وسليمان ويحيى وإسماعيل والحسن والحسين وعبد الله وعبد الرحمن وعيسى وموسى وإبراهيم ويعقوب...

مشروع عبد المؤمن النهضوى بالمغرب:

أولاً: أطلق حرية العلوم والمعارف وأنشأ الكثير من المدارس والمساجد، وكان هذا على خلاف نهج "محمد بن تومرت" صاحب الفكر الأوحى، فأصبح الناس يتعلمون أكثر من طريقة ومنهج وأكثر من فكر وفقه، وأصبحوا لا يرتبطون بقطب واحد كما كان العهد أيام "محمد بن تومرت"، لكن هذا لم يكن ليغض الطرف عن كون عبد المؤمن بن عليّ ذو فردية في نظام الحكم والإدارة، أي أنه كان - بلغة العصر - حاكماً ديكتاتورياً، فردي الرأي لا يأخذ بالشورى.

(١) أنظر: المعجب، ص ١٩٤.

ثانياً: عمل "عبد المؤمن بن عليّ" على إقران الخدمة العسكرية بالعلوم الشكيفية، وأنشأ مدارس كثيرة لتعليم وتخريج رجال السياسة والحكم، وكان يمتحن الطلاب بنفسه، فأنشأ جيلاً فريداً من قوّاد الحروب والسياسيين البارعين في دولة الموحدين، وكان يدرّبهم على كل فنون الحرب، حتى إنه أنشأ بحيرة صناعية كبيرة في بلاد المغرب لتعليم الناس كيف يتقاتلون في الماء، وكيف تكون الحروب البحرية، وكان أيضاً يختبر المقاتلين الموحدين بنفسه.

ثالثاً: أقام مصانع ومخازن ضخمة وكثيرة للأسلحة، و أصبحت دولة الموحدين من أقوى الدول الموجودة في المنطقة من الناحية العسكرية.

رابعاً: سعى لإضعاف سيطرة مذهب مالك والمالكية على الحياة بدءاً في تمكين المدرسة الظاهرية وأهل الظاهر من الدولة، وذلك بإنشاء مدرسته في مراكش لتخريج العلماء ورجال الدولة من حفظة الكتاب والسنة، وكان عدد الطلبة والحفاظ بها نحو ثلاثة آلاف، وكان يدخلهم كل يوم جمعة إلى قصره ويجتمع بهم (١)، عقب ذلك أمر بحرق كتب الفروع المالكية وإلزام العلماء بالاجتهاد، ثم بدأ يجتمع بعلماء المالكية الكبار مع الطلبة من أهل الظاهر ويطرح عليهم المسائل الفقهية ليتم حسمها حسب المنهج الظاهري كما سيتضح بعد قليل.

عبد المؤمن بن عليّ في الأندلس: في سنة ٥٤٣ هـ - ١١٤٨ م وبعد التدهور الكبير الذي حدث في بلاد الأندلس، قدم إلى بلاد المغرب العربي القاضي ابن العربي صاحب (العواصم من القواصم) قدم من الأندلس وبيع "عبد المؤمن بن عليّ"، وطلب النجدة لأهل الأندلس. إن مبايعة القاضي ابن العربي لعبد المؤمن بن عليّ لتعطي إشارة واضحة إلى أن عبد المؤمن بن عليّ لم يكن ليعتقد أو يدعو إلى أفكار ضالة كما في الدعوة إلى العصمة أو المهديّة أو غيرها مما كان يدين بها محمد بن تومرت وبعض من أتباعه، وإلا لم يكن للقاضي ابن العربي - وهو الذي اشتهر وعرف عنه الذبّ عن الإسلام من الضلالات والانحرافات - أن يقدم من بلاد الأندلس لمبايعته على الطاعة والنصرة.

(١) ابن الخطيب، الحلل الموشية، ص ١٥٠.

قَبِلَ عبد المؤمن بن عليّ الدعوة من القاضي ابن العربي، وجَهَرَ جيوشه وانطلق إلى بلاد الأندلس، وهناك بدأ يحارب القوات الصليبية حتى ضم معظم بلاد الأندلس الإسلامية التي كانت في أملاك المرابطين إلى دولة الموحدين، وكان ممن قاتله هناك بعض أنصار دولة المرابطين إلا أنه قاتلهم وانتصر عليهم وذلك في سنة 545هـ - 1150 م.

وفي سنة 552 هـ - 1157 م استطاع أن يستعيد ألمرية، وفي سنة 555 هـ - 1160 م استعاد تونس من يد النصارى، وبعدها بقليل -ولأول مرة - استطاع أن يضم ليبيا إلى دولة الموحدين، وهي بعد لم تكن ضمن حدود دولة المرابطين. وبهذا يكون قد وصل بحدود دولة الموحدين إلى ما كانت عليه أثناء دولة المرابطين إضافة إلى ليبيا، وقد اقتربت حدود دولته من مصر كثيرا، وكان يفكر في أن يوحد كل أطراف الدولة الإسلامية تحت راية واحدة تكون لدولة الموحدين.

ظاهرة عبد المؤمن: كان عبد المؤمن بن علي يعقد المناظرات بين المالكية والظاهرية نصره للنهج الظاهري وتمهيدا لفرضه واتخاذها منهجا رسميا للدولة الموحدية. وكان عبد المؤمن نفسه يناظر المالكية ويستخدم حجج ابن حزم في المناظرة.

ولنصغ إلى ابن زرقون الذي شهد واقعة جمع عبد المؤمن بن علي للفقهاء وذلك لحمل الناس على المذهب الظاهري فيحدثنا بقوله "كنت فيمن جمعهم - أي عبد المؤمن - فقام على رأسه كاتبه ووزيره أبو جعفر ابن عطية فخطب خطبة مختصرة، ثم رد رأسه إلى الفقهاء، وقال لهم: بلغ سيدنا أن قوما من أولى العلم، تركوا كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، وصاروا يحكمون بين الناس، ويفتون بهذه الفروع والمسائل التي لا أصل لها في الشرع، وقد أمر أن من فعل ذلك بعد هذا اليوم، ونظر في شيء من الفروع والمسائل، عوقب العقاب الشديد، وفعل به كذا وكذا وسكت، ورفع الأمير عبد المؤمن رأسه إليه وأشار عليه بالحلوس فجلس، وقال: سمعتم ما قال؟ قال له الطلبة نعم. قال: وسمعنا أن عند القوم تأليفا من هذه الفروع يسمونه الكتاب - يعني المدونة - وأنهم إذا قال لهم قائل مسألة من السنة ولم تكن فيه، أو مخالفة له قالوا: ما هذا في الكتاب أو ما هو مذهب الكتاب وليس ثمة كتاب يرجع إليه إلا كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم،

قال: وأرعد وأبرق في التخويف والتحذير من النظر في هذه الكتب، والفقهاء سكوت. ثم قال: ومن العجيب أنهم يقولون أقوالاً برأيهم وليست من الشرع، فيقولون من طرأ عليه خلل في صلاته يعيد في الوقت ويتحكمون في دين الله تعالى، لأنها إما صحيحة فلا إعادة، وإما باطلة فيعيد أبداً، فيا ليت شعري من أين أخذوه فصمت القوم ولم يجبه أحد، لحدة الأمر والإنكار...، ثم قام ابن زرقون وحاول أن يجيب عبد المؤمن ويحل له الإشكال إلى أن قال "يا سيدي جميع ما في الكتاب - يعني المدونة - مبني على الكتاب والسنة، وأقوال السلف والإجماع، وإنما اختصره الفقهاء تقريبا لمن ينظر فيه من المتعلمين والطلابين، فانطلقت ألسنة الفقهاء الحاضرين حينئذ ووافقوني على ما قلت - أي ابن زرقون - قال ابن زرقون ثم دعا - أي عبد المؤمن - فقال: اللهم وفقنا يا رب العالمين، وقام إلى منزله... (١)."

ومما سبق يتضح الآتي: أن عبد المؤمن كان هدفه حمل الناس على المذهب الظاهري، وهو ما أكدّه ابن زرقون الذي شهد الواقعة كما سبق، وقد أكد ذلك أيضا المراكشي على ما سيتضح، كما أكد ذلك أحمد بن محمد البلوي البرزالي (ت ١٤٣٧/هـ ٨٤١ م) الذي قال "ولما أن اطمأنت بالأمر عبد المؤمن الدار، جمع الفقهاء إما لاختيار مذهبهم أو حملهم على مذهب ابن حزم" (٢)، وهذا التردد من البرزالي سرعان ما يزول بشهادة ابن زرقون التي جاء فيها أن عبد المؤمن كان هدفه حمل الناس على مذهب ابن حزم كما سبق. كما أن المسألة التي تدرع بها عبد المؤمن للطعن في مذهب المالكية من المسائل التي بالغ فيها ابن حزم في الرد على مالك وقال: "هذا خطأ؛ لأنه لا يخلو من أن يكون أدى الصلاة التي أمر بها كما أمر، أو لم يؤديها كما أمر، فإن كان أداها كما أمر فلا يحل له أن يصلي في يوم واحد صلاتين، ولا معنى لإعادته صلاة قد صلاها، وإن لم يؤديها كما أمر، فمن قوله أن يصلي من لم يصلي أبداً؛ فظهر بطلان هذا القول" (٣).

(١) نقلا عن عليش، فتح العلي المالك في الفتوى على مذهب مالك، دار الفكر، (د.ت)، ١٠٣/١، ١٠٢.

(٢) نقلا عن الغليزوري، المدرسة الظاهرية، ص ٦٦٤، ٦٦٥. وكلام البرزالي السابق ذكره في كتابه "جامع مسائل الأحكام مما نزل بالمفتين والحكام" وفيه ذكر واقعة جمع عبد المؤمن للفقهاء بتمامها، وعنه نقلها عليش في كتابه فتح العلي المالك، وكتاب البرزالي لا يزال مخطوطا في أجزاء متفرقة بمخازن المغرب وغيرها.

(٣) أنظر: المحلي، ٢/٢٣٨.

والمدقق في كلام ابن حزم وكلام عبد المؤمن السابق يتضح له أن الأخير كان يتكلم بلسان ابن حزم، وما كان هدفه من طرح هذه المسألة بالذات إلا إظهار فساد المذهب الفروعى وحمل الناس على الظاهر خاصة وأن هذه المسألة طرحها سحنون في المدونة بدون حجج ولا براهين وجعل عنوانها "باب ما تعاد منه الصلاة فى الوقت" (١). أضف إلى ذلك أن سكوت عبد المؤمن فى نهاية الجلسة وقيامه إلى منزله ليس معناه أنه أقر فقهاء المالكية على قولهم بخصوص المدونة، بل لأنه ما قبل منهم الكلام، ومن ثم لما وجد اتفاقهم على قول ابن زرقون وإصرارهم على المذهب المالكي تراجع عن حملهم على المذهب الظاهري خشية الثورة عليه، إذ كان يعلم مكانتهم فى نفوس أهل المغرب (٢)، لكن ظل هو ومن حوله متمسكين بالمذهب الظاهري إلى أن تأتي فرصة فرضه والعمل به، وقد أكد المراكشى ذلك بقوله عند حديثه عن المنصور "وكان قصده فى الجملة محو مذهب مالك وإزالته من المغرب مرة واحدة، وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث، وهذا المقصد بعينه كان مقصد أبيه وجده إلا أنهما لم يظهره يعقوب هذا - يعنى المنصور- " (٣).

ومن البراهين على ظاهرية عبد المؤمن تكنيه بكنية ابن حزم، وهى أبو محمد، وتسمية ابنه بأبى سليمان داوود (٤)، وهو اسم وكنية إمام أهل الظاهر داوود بن على الأصفهاني، وهذا أمر واضح لتأثر عبد المؤمن بالمذهب الظاهري، حتى أنه تبنى بكنية مجدد المذهب، وسمى ابنه باسم إمام المذهب. أضف إلى ذلك إصداره الأمر فى العام ٥٥٠هـ بإحراق كتب الفروع ورد الناس لحفظ كتب الحديث واستنباط الأحكام وكتب بذلك إلى جميع طلبة العلم بالمغرب والأندلس (٥)، كما طبق عبد المؤمن طريقة الظاهرية فى حفظ القرآن والحديث والعقيدة والفقهاء وهى التلقين أو الحفظ على أبنائه وعلى الطلبة

(١) أنظر: المدونة الكبرى برواية سحنون بن سعيد، دار صادر، بيروت، ١/٩١.

(٢) الغلبزورى، المدرسة الظاهرية، ص٦٦٩.

(٣) أنظر: المعجب، ص٢٣١، ٢٣٢.

(٤) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص١٥٥، ١٥٦.

(٥) السلاوى، الاستقصا، ٢/١١٢.

الذين استدعاهم من إشبيلية وقرطبة وفاس وتلمسان وغيرها إلى مراكش، وتمثل هذه الطريقة في قيام الأستاذ بقراءة الجزء المطلوب تلقينه للطالب على ان يردده الطالب وراء الاستاذ حتى يحفظه، وقد امتدح القاضي ابن القطان المالكي هذه الطريقة واعتبرها من مآثر عبد المؤمن (١)

وفاة عبد المؤمن: توفى ليلة الجمعة الثامن من جمادى الآخرة من سنة ٥٥٨ هـ . وكان قد عهد في حياته إلى أكبر أولاده محمد وبايعه الناس وكتب ببيعه إلى البلاد فأبى تمام هذا الأمر لمحمد هذا ما كان عليه من أمور لا تصلح معها الخلافة من إدمان شرب الخمر واختلال الرأي وكثرة الطيش وجبن النفس ويقال إنه مع هذا كان به ضرب من الجذام ولما مات عبد المؤمن اضطرب أمر محمد واختلف عليه اختلافاً كثيراً فكانت ولايته إلى أن خلع خمساً وأربعين يوماً واتفقوا على خلعه في شعبان سنة ٥٥٨ هـ وكان الذي سعى في خلعه أخواه يوسف وعمر (٢)، وقيل إن عبد المؤمن هو الذى عزل ابنه محمد عن العهد لما تبين له عجزه عن اقيام بالخلافة وكتب بذلك إلى جميع ولاته قبل موته، وكان سنه يوم توفى ثلاث وستون سنة، وقيل أربع وستون، وحمل إلى تينمل ودفن بها بجوار قبر ابن تومرت (٣)

٣- أبويعقوب يوسف بن عبد المؤمن الظاهري (ت ٥٨٠هـ)

في عام ٥٥٨ هـ - ١١٦٣م توفى عبد المؤمن بن عليّ في "رباط سلا" في طريقه إلى الاندلس مجاهداً، ونقل إلى "تينمل" فدفن فيها إلى جانب قبر ابن تومرت وخلفه على الحكم ابنه محمد ثم خُلع لفسقه وسوء خلقه وولي الأمر يوسف بن عبد المؤمن بن عليّ، وكان يبلغ من العمر اثنين وعشرين عاماً، وقد كان مجاهداً شهماً كريماً إلا أنه لم يكن في كفاءة أبيه القتالية.

صفته وصفاته: كان أبيض تعلوه حمرة شديدة سواد الشعر مستدير الوجه أفوه أعين

(١) صلاح السيد، التربية الإسلامية، ص ٣٧٦-٣٧٩.

(٢) أنظر: المعجب، ص ١٩٧، ١٩٨.

(٣) ابن أبي زرع، الروض القرطاس، ٢٦٥، ٢٦٦.

إلى الطول أقرب جهورى الصوت رقيق حواشى اللسان حلو الألفاظ حسن الحديث طيب المجالسة (١).

وكان عادلاً حازماً شجاعاً ديناً خبيراً بشئون الحكم والملك، معنياً بشئون وأحوال الرعية، شديداً على العصاة والمفسدين، بعيد الهمة، شديد الكرم والبذل والمواساة، وكان من العلماء الأدباء حافظاً للقرآن الكريم، من رواة الحديث المتقنين، حتى أنه كان يحفظ صحيح البخاري بسنده الخاص به، وكان شديد الفصاحة باللغة العربية، يعلم أخبار العرب في الجاهلية والإسلام، لذلك انتظم في بلاطه أعظم علماء وأدباء العصر. وكان له علم بالفقه كثير الميل إلى الحكمة والفلسفة، استقدم إليه بعض علماء الاقطار وفي جملتهم أبو الوليد ابن رشد... (٢) وهو باني مسجد إشبيلية، أتمه سنة ٥٦٧ هـ وإليه تنسب الدنانير "اليوسفية" في المغرب، وكانت علامته في المكاتبات وعلامة من بعده: "الحمد لله وحده..."

أما أفضل خصاله، فهي شغفه الكبير بالجهاد في سبيل الله، فلقد كان دائم الغزو والتجهيز له، واعتنى بالجيوش وقواها واستمال العرب بالمغرب وضمهم لجنوده، حتى أنه قد ألف رسالة مشهورة في فضل الجهاد في سبيل الله ومكانته والحض عليه، وهي مطبوعة ضمن كتاب أعز ما يطلب لابن تومرت ويكفي دليلاً على حبه للجهاد أنه استشهد في معركة شنترين الشهيرة بالأندلس، وقد أصابته إصابات بالغة في هذه المعركة توفي على إثرها في ١٨ ربيع الآخر ٥٨٠ هـ. ٢٩ يوليو ١١٨٤ م.

وقد حرص يوسف على التمكين للمنهج الظاهري إذ إنه منع فقهاء المالكية من تعليم الناس الفقه الفروعى، ودعاهم إلى استخدام القرآن والسنة فى استنباط الأحكام، وخيرهم بين ذلك وبين السيف، وكان عميد فقهاء المالكية آنذاك ابن الجد .

ظل يوسف بن عبد المؤمن بن عليّ يحكم دولة الموحدين اثنين وعشرين عاماً متصلة، منذ سنة ٥٥٨ هـ - ١١٦٣ م وحتى سنة ٥٨٠ هـ - ١١٨٥ م وقد نظم الأمور وأحكمها في كل بلاد الأندلس وبلاد المغرب العربي، وكانت له أعمال جهادية ضخمة ضد

(١) المراكشى، المعجب، ص ١٩٩.

(٢) نفسه ١٩٩، ٢٠٠.

النصارى، لكنه كان يعيبه شيء خطير وهو أنه كان متفرد الرأي لا يأخذ بالشورى، وهذا - بالطبع - كان من تعليم وتربية أبيه عبد المؤمن بن علي .

ظاهرية يوسف بن عبدالمؤمن: ذكر المراكشي كما أسلفنا عند الحديث عن ظاهرية عبد المؤمن أن يوسف كان يهدف إلى حمل الناس على القول بالظاهر، ومحو مذهب مالك، وقد لجأ إلى المناظرات والحوارات لتحقيق ذلك ومنها ما وقع بينه وبين أبي بكر بن الجند المالكي حول كتاب ابن يونس المالكي، وما فيه من أقوال متعددة وآراء مختلفة، وانتهى الأمر إلى قول يوسف لا بن الجند ليس إلا المصحف وسنن أبي داود (إشارة إلى كتب الحديث) (١) وهذا هو عين القول بالظاهر إذ لا مجال لأقوال الرجال بل الحكم للكتاب والسنة، ومن الأدلة على ظاهريته أنه كان يرسل للقضاة الرسائل وفيها أصول الحكم وهي القرآن والسنة والإجماع .

مصنفاتة:

١- كتاب الجهاد. مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم ١٢٦٤ ق.

٢- ثلاثة من الرسائل نشرها الاستشرق ليفي بروفنسال ضمن مجموع رسائل موحدية

وفاتة: استشهد في موقعة "شنترين" مع النصارى حيث كان يقاتل فيها بنفسه، فقتل ستة من النصارى، ثم طعن بعد ذلك واشتد ألمه فمات بالطريق قرب الجزيرة الخضراء يوم السبت ١٨ ربيع الآخر سنة ٥٨٠ هـ = ١١٨٤ م فحمل إلى تينمل فدفن بها بجوار قبر أبيه، وقيل إنه لم يموت حتى وصل مراكش ودفن بتينمل، وكان ولده يعقوب هو الذى يدخل على

أبيه ويخرج وتتصرف الأمور على يديه من يوم طعنه إلى يوم مماته، وكنتم موته حتى وصل مدينة سلا فأشهره (٢).

٣- أمير المؤمنين المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الموحدى الظاهرى (ت

(١) المراكشى، المعجب، ص ٢٣٢.

(٢) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص ٢٨٢، ٢٨٣.

(٥٩٥هـ)

أعلم بنى عبد المؤمن وافقهم واسمه يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي الكومي القيسى وكنيته أبو يوسف، وكنية أبوه أبو يعقوب، وكنية جده أبو سليمان نفس كنية إمام المذهب الظاهري داود بن علي.

والمصور هذا لقب له أطلق عليه بعد انتصاره في معركة الأرك ٥٩١هـ، وكان ابن عربي الصوفي الظاهري قد أخبر عن انتصار المنصور في هذه المعركة قبل بدايتها من خلال رؤيا رآها.

صفته وصفاته: كان صافي السمرة جداً، جميل الوجه أفوه أعين شديد الكحل ضخم الأعضاء جهوري الصوت جزل الألفاظ، من أصدق الناس لهجة وأحسنهم حديثاً وأكثرهم إصابة بالظن، مجرباً للأمر، ولي وزارة أبيه، فبحث عن الأحوال بحثاً شافياً وطالع مقاصد العمال والولاية وغيرهم مطالعة أفادته معرفة جزئيات الأمور (١).

ولما مات أبوه اجتمع رأي أشياخ الموحدين وبنى عبد المؤمن على تقديمه فبايعوه وعقدوا له الولاية ودعوه أمير المؤمنين كآبيه وجده ولقبوه بالمنصور، فقام الأمر أحسن قيام، وهو الذي أظهر أبهة ملكهم ورفع راية الجهاد ونصب ميزان العدل وبسط أحكام الناس على حقيقة الشرع ونظر في أمور الدين والورع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأقام الحدود حتى في أهله وعشيرته الأقربين كما أقامها في سائر الناس أجمعين، فاستقامت الأحوال في أيامه وعظمت الفتوحات.

ولما مات أبوه كان معه في الصحبة، فباشر تدبير المملكة من هناك، وأول ما رتب قواعد بلاد الأندلس، فأصلح شأنها وقرر المقاتلين في مراكزها ومهد مصالحها في مدة شهرين. وأمر بقراءة البسملة في أول الفاتحة في الصلوات وأرسل بذلك إلى سائر بلاد الشام التي في مملكته. فأجاب قوم وامتنع آخرون...

كان المنصور أقوى شخصيه في تاريخ دولة الموحدين، ومن أعظم الشخصيات في تاريخ المسلمين بصفة عامة، وقد عُدَّ عصره في دولة الموحدين بالعصر الذهبي.

(١) المركشي، المعجب، ص ٢١٩.

تولى أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدى وكان عمره خمسا وعشرين سنة فقط، وقد قام بالأمر أحسن ما يكون القيام، وقد رفع راية الجهاد، ونصب ميزان العدل، ونظر في أمور الدين والوعظ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالتي هي أحسن. استطاع أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدى أن يغير كثيرا من أسلوب السابقين له، فكان سمته الهدوء والسكينة والعدل والحلم، حتى إنه كان يقف ليقضي حاجة المرأة وحاجة الضعيف في قارعة الطريق، وكان يؤم الناس في الصلوات الخمس، وكان زاهدا يلبس الصوف الخشن من الثياب، وقد أقام الحدود حتى في أهله وعشيرته، فاستقامت الأحوال في البلاد وعظمت الفتوحات.

بلغت أعمال أبي يوسف يعقوب المنصور الموحدى الجليلة في دولته أوجها، حتى وصلت إلى أن حارب الخمر، وأحرق كتب الفلاسفة، واهتم بالطب والهندسة، وألغى المناظرات العقيمة التي كانت في أواخر عهد المرابطين وأوائل عهد الموحديين، وقد أسقط الديون عن الأفراد وزاد كثيرا في العطاء للعلماء، وأعلن منهجه الظاهري صراحة وأحرق الكثير من كتب الفروع وأمر بالاعتماد على كتاب الله وعلى كتب السنة الصحيحة.

وفي دولته اهتم أيضا أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدى بالعمران، وقد أنشأ مدينة الرباط وسماها رباط الفتح، وأقام المستشفيات وغرس فيها الأشجار، وخصّص الأموال الثابتة لكل مريض، وكان رحمه الله يعود المرضى بنفسه يوم الجمعة، وأيضا كان يجمع الزكاة بنفسه ويفرقها على أهلها، وكان كريما كثير الإنفاق حتى إنه ورّع في يوم عيد أكثر من سبعين ألف شاة على الفقراء.

المنصور الموحدى يتبرأ من أباطيل ابن تومرت: يُعدّ أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدى أول من أعلن صراحة فساد أقوال محمد بن تومرت في فكرة العصمة والمهدية، وقال بأن هذا من الضلالات، وأنه ليس لأحد عصمة بعد الأنبياء، وكان مجلسه رحمه الله عامرا بالعلماء وأهل الخير والصالحين. وقد ذكر الذهبي رحمه الله في العبر أنه كان يجيد حفظ القرآن والحديث، ويتكلم في الفقه ويناظر، وكان فصيحاً مهيباً، يرتدي زي الزهاد

والعلماء ومع ذلك عليه جلاله الملوك. وعدم اعتراف المنصور الموحي بأفكار ابن تومرت المخالفة للكتاب والسنة يجعله من أهل السنة والجماعة ومن الفئة الصالحة المصلحة التي يحقق الله بها النصر والتمكين لدينه والعزة والمنعة لأهله - تعالى - وقد أورد المراكشي ما يفيد براءة المنصور الموحي من أفكار ابن تومرت فقال: أخبرني الشيخ الصالح أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن مطرف المري ونحن بحجر الكعبة قال: قال لي أمير المؤمنين أبو يوسف يا أبا العباس اشهد لي بين يدي الله عز وجل أنني لا أقول بالعصمة - يعني عصمة ابن تومرت - قال: وقال: لي يوماً وقد استأذنته في فعل شيء يفتقر إلى وجود الإمام: يا أبا العباس أين الإمام؟ أين الإمام؟ .

ويقول أيضاً: أخبرني شيخ ممن لقيته من أهل مدينة جيان من جزيرة الأندلس يسمى أبا بكر بن هاني مشهور البيت هناك لقيته وقد علت سنه فرويت عنه قال: لي لما رجع أمير المؤمنين - يعني المنصور الموحي - من غزوة الأرك وهي التي أوقع فيها بالأدنفش وأصحابه خرجنا نلتقاه فقدمني أهل البلد لتكليمه فرفعت إليه فسألني عن أحوال البلد وأحوال قضاته وولاته وعماله على ما جرت عادته فلما فرغت من جوابه سألتني كيف حالي في نفسي فتشكرت له ودعوت بطول بقائه ثم قال: لي ما قرأت من العلم قلت: قرأت تواليف الإمام أعني ابن تومرت فنظر إلي نظرة المغضب وقال: ما هكذا يقول: الطالب إنما حكمك أن تقول قرأت كتاب الله وقرأت شيئاً من السنة ثم بعد هذا قل ما شئت... (١).

قلت: وتأكيد المنصور على الكتاب والسنة دليل ناهض على ظاهريته حتى إنه من عظم معرفته بالكتاب والسنة وصفه بعض المنظرين بالمجتهد المطلق (٢).

المنصور ومشروعه النهضوي: قال المراكشي: وكان في جميع أيامه وسيره مؤثراً للعدل متحريراً له بحسب طاقته وما يقتضيه إقليمه والأمة التي هو فيها كان في أول أمره أراد الجري على سنن الخلفاء الأول.

(١) أنظر: المعجب، ص ٢٤٠.

(٢) الكتاني، مؤلفات ابن حزم بين أنصاره وخصومه، ص ٩١.

فمن ذلك أنه كان يتولى الإمامة بنفسه في الصلوات الخمس لم يزل على ذلك مستمراً أشهراً إلى أن أبطأ يوماً عن صلاة العصر إبطاء كاد وقتها يفوت وقعد الناس ينتظرونه فخرج عليهم فصلى ثم أوسعهم لوماً وتأنياً وقال: ما أرى صلاتكم إلا لنا وإلا فما منعكم عن أن تقدموا رجلاً منكم فيصلي بكم أليس قد قدم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الرحمن بن عوف حين دخل وقت الصلاة وهو غائب أما لكم بهم أسوة وهم الأئمة المتبعون والهداة المهتدون فكان ذلك سبباً لقطعه الإمامة. وكان يقعد للناس عامة لا يحجب عنه أحد من صغير ولا كبير حتى اختصم إليه رجلان في نصف درهم فقضى بينهما وأمر الوزير أبا يحيى صاحب الشرطة أن يضربهما ضرباً خفيفاً تأديباً لهما وقال: لهما أما كان في البلد حكام قد نصبوا لمثل هذا فكان هذا أيضاً مما حمله على القعود في أيام مخصوصة لمسائل مخصوصة لا ينفذها غيره. وكان قد أمر أن يدخل عليه أمناء الأسواق وأشياخ الحضرة في كل شهر مرتين يسألهم عن أسواقهم وأسعارهم وحكامهم. وكان إذا وفد عليه أهل بلد فأول ما يسألهم عن عمالهم وقضاتهم وولاتهم فإذا أثنوا خيراً قال: أعلموا أنكم مسؤولون عن هذه الشهادة يوم القيامة فلا يقولن امرؤ منكم إلا حقاً وربما تلا في بعض المجالس: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ {النساء ١٣٥}. (١)

قلت: ما كان يفعله المنصور هو عين ما دونه ابن حزم في كتابه السياسة، وقد فصلنا القول عن هذا الموضوع في كتابنا ابن حزم الظاهري وأثره في المجتمع الأندلسي . هذا وقد صنف ابن القطان الفاسي لشيخه المنصور الموحدى كما اعتاد أن يلقيه رسالة بخصوص الجلوس للرعية وسماع مظالمهم أسماها (رسالة في حث الإمام على القعود لسماع مظالم الرعية) (٢) الأمر الذى يؤكد ما ذهبنا إليه من وصول المذهب الظاهري والظاهرية إلى مرحلة الازدهار والتمكين فى عهد الموحدين . واستكمالاً لمشروعه النهضوى نراه يبنى بيمارستانا لعلاج المرضى جهزه بكل ما

(١) أنظر: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص ٢٣٥، ٢٣٦.

(٢) محمود مكى، تقديم كتاب نظم الجمان لابن القطان، ص ١٧.

يدخل السرور على المرضى وقد وصفه من رآه من مؤرخي المغرب فقال: وبني بمدينة مراكش بيمارستانا ما أظن أن في الدنيا مثله وذلك أنه تخير ساحة فسيحة بأعدل موضع في البلد، وأمر البنائين بإتقانه على أحسن الوجوه وأتقنوا فيه من النقوش البديعة والزخارف المحكمة ما زاد على الاقتراح؛ وأمر أن يغرس فيه مع ذلك من جميع الأشجار والشمومات والمأكولات وأجرى فيه مياه كثيرة تدور على جميع البيوت، زيادة على أربع برك في وسط إحداها رخام أبيض، ثم أمر له من الفرش النفيسة من أنواع الصوف والكتان والحريير والأديم وغيره بما يزيد عن الوصف ويأتي فوق النعت، وأجرى له ثلاثين دينارا في كل يوم برسم الطعام وما ينفق عليه خاصة خارجا عما جلب إليه من الأدوية، وأقام فيه من الصيدالة لعمل الأشربة والأدهان والأكحال وأعدّ فيه للمرضى ثياب ليل ونهار للنوم من جهاز الصيف والشتاء فإذا نقه المريض فإن كان فقيرا أمر له عند خروجه بمال يعيش به ريثما يستقل، وإن كان غنيا دفع إليه ماله وتركته وسببه، ولم يقصره على الفقراء دون الأغنياء، بل كل من مرض بمراكش من غريب حمل إليه وعولج إلا أن يستريح أو يموت. وكان في كل جمعة بعد صلاته يركب ويدخله يعود المرضى ويسأل عن أهل بيت أهل بيت ويقول: كيف حالكم؟ وكيف القومة عليكم؟ إلى غير ذلك من السؤال ثم يخرج، لم يزل مستمرا على هذا إلى أن مات رحمه الله... (١)

إضافة إلى أعماله السابقة في دولة الموحدين بصفة عامة، فقد وطد أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدي الأوضاع في بلاد الأندلس، وقوى الثغور هناك، وكان يقاتل فيها بنفسه، وقد كانت أشد الممالك ضراوة عليه مملكة البرتغال ثم من بعدها مملكة قشتالة. وقد كان له في الأندلس ما يلي:

أولا: القضاء على ثورات بني غانية: في سنة ٥٨٥ هـ - ١١٨٩ م وفي جزر البليار من بلاد الأندلس قامت قبيلة بني غانية من أتباع المرابطين بثورة عارمة على الموحدين، وقد كان لهذه القبيلة ثورات من قبل على عبد المؤمن بن عليّ وابنه يوسف، فقاموا بثورة في جزر البليار وأخرى في تونس. ما كان من أبي يوسف يعقوب المنصور إلا أن عاد

(١) المراكشي، المعجب، ص ٢٣٧، ٢٣٨.

من داخل بلاد الأندلس إلى جزر البليار فقمع ثورة بني غانية هناك، ثم رجع إلى تونس فقمع أيضا ثورتهم. استغلّ ملك البرتغال انشغال أبي يوسف يعقوب المنصور بالقضاء على هذه الثورات واستغل الضعف الذي كان نتيجة طبيعية لذلك، واستعان بجيوش ألمانيا وإنجلترا البرية والبحرية، ثم حاصر أحد مدن المسلمين هناك واستطاع أن يحتلها ويخرج المسلمين منها، وقد فعل فيها من الموبقات ما فعل، ثم استطاع أن يواصل تقدمه إلى غرب مدينة أشبيلية في جنوب الأندلس.

ثانياً: المواجهات مع النصارى واستعادة السيطرة: بعد القضاء على ثورات بني غانية أخذ أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدى يفكر في كيفية إعادة الوضع إلى ما كان عليه، ووقف أطماع النصارى في بلاد الأندلس.

علم أولاً أن أشد قوتين عليه هما قوة قشتالة وقوة البرتغال، لكنه رأى أن قوة البرتغال أشد وأعنف من سابقتها، فقام بعقد اتفقيه مع قشتالة عاهدهم فيها على الهدنة وعدم القتال مدة عشر سنوات.

اتجه أبو يوسف يعقوب المنصور بعد ذلك إلى منطقة البرتغال، وهناك حاربهم حروباً شديدة وانتصر عليهم في أكثر من مرة، واستطاع أن يحرر المنطقة بكاملها ويسترد إلى أملاك المسلمين من جديد ما كان قد فقد هناك.

وقبل أن يكتمل له تحرير تلك المنطقة نقض ملك قشتاله العهد الذي كان قد أبرمه معه، وعليه فقد بدأ يعيث تهجماً وفساداً على أراضي المسلمين، ثم بعث ألفونسو الثامن - ملك قشتالة في ذلك الوقت، وهو من أحفاد ألفونسو السادس الذي هُزم في موقعة الزلاقة الشهيرة - بعث برسالة إلى أبي يوسف يعقوب المنصور الموحدى يهين فيها المسلمين ويهدده ويتوعده.

رسالة ألفونسو التي أثارت حمية المسلمين: كتب ألفونسو الثامن ملك قشتالة إلى سلطان الموحدين "المنصور الموحدى" كتاباً يشابه الكتاب الذي أرسله ألفونسو السادس إلى يوسف بن تاشفين، يدعوه إلى القتال وهذا نص خطابه: باسمك اللهم فاطر السموات والأرض، وصلى الله على السيد المسيح روح الله وكلمته الرسول الفصيح، أما بعد فإنه لا

يخفى على ذي ذهن ثاقب ولا ذي عقل لازب، أنك أمير الملة الحنيفية كما أني أمير الملة النصرانية، وقد علمت الآن ما عليه رؤساء أهل الأندلس من التخاذل والتواكل وإهمال الرعية، وإخلاصهم إلى الراحة، وأنا أسومهم بحكم القهر وجلاء الديار وأسبي الذراري وأمثلة بالرجال، ولا عذر لك في التخلف عن نصرهم إذا أمكنتك يد القدرة، وأنتم تزعمون أن الله تعالى فرض عليكم قتال عشرة منا بواحد منكم، فالآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً، ونحن الآن نقاتل عشرة منكم بواحد منا لا تستطيعون دفاعاً ولا تملكون امتناعاً، وقد حكي لي عنك أنك أخذت في الاحتفال وأشرفت على ربوة القتال، وتماطل نفسك عاماً بعد عام، تقدم رجلاً وتؤخر أخرى، فلا أدري أكان الجبن أبطأ بك أم التكذيب بما وعد ربك، ثم قيل لي إنك لا تجد إلى جواز البحر سبيلاً لعلّ لا يسوغ لك التقحم معها، وها أنا أقول لك ما فيه الراحة لك وأعتذر لك وعنك، على أن تفي بالعهود والمواثيق والاستكثار من الرهان، وترسل إليّ جملة من عبيدك بالمراكب والشواني والطرائد والمسطحات، وأجوز بجملتي إليك، وأقاتلك في أعز الأماكن لديك، فإن كانت لك فغنيمة كبيرة جلبت إليك وهديّة عظيمة مثلت بين يديك، وإن كانت لي كانت يدي العليا عليك، واستحقيت إمارة الملتين والحكم على البرين، والله تعالى يوفق للسعادة ويسهل الإرادة، لارب غيره ولا خير إلا خيره، إن شاء الله تعالى.

فلما وصل كتابه إلى الأمير يعقوب مزّقه وكتب على ظهر قطعة منه: اَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ النمل: ٣٧. الجواب ما ترى لا ما تسمع^(١).

وعلى الفور أعلن الجهاد والاستنفار العام في كل ربوع المغرب والصحراء، وأمر بنشر ما جاء في كتاب ألفونسو الثامن ليحمس الناس ويزيد من تشويقهم للجهاد. قبل هذا الوقت بسنوات قلائل كان المسلمون في كل مكان يعيشون نشوة النصر الكبير الذي حققه صلاح الدين الأيوبي على الصليبيين في موقعة حطين الخالدة في سنة ٥٨٣ هـ = ١١٨٧ م أي قبل هذه الأحداث بسبع سنوات فقط، وما زال المسلمون في المغرب يعيشون هذا الحدث

(١) ابن عذارى، روض القرطاس، ص ٢٩١.

الإسلامي الكبير ويتمنون ويريدون أن يكرروا ما حدث في المشرق، خاصة بعد أن قام أبو يوسف يعقوب المنصور الموحد بتحفيزهم في الخروج إلى الجهاد، فتنافسوا في ذلك (وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ) المطففين: ٢٦.

دوّت صيحة الجهاد في جميع أنحاء المغرب، من مدينة "سلا" على المحيط الأطلسي، حتى "برقة" شرقاً على حدود مصر، ضد الذين غدوا خطراً على الإسلام... لقد هرع الرجال والشباب والشيوخ وسكان الهضاب والصحارى والشواطئ في جميع أنحاء المغرب إلى الانضمام إلى ألوية الجهاد في الأندلس، وأخذ الخطر الداهم ينذر الغرب في الوقت الذي حاول فيه النصارى أن يرفعوا الصليب في الشرق.

بدأ هذا الاستنفار في سنة ٥٩٠ هـ = ١١٩٤ م وبعدها بعام واحد وفي سنة ٥٩١ هـ = ١١٩٥ م انطلقت الجيوش الإسلامية من المغرب العربي والصحراء وعبرت مضيق جبل طارق إلى بلاد الأندلس لتلتقي مع قوات الصليبيين الرابضة هناك في موقعة ما برح التاريخ يذكرها ويجلّها.

موقعة الأرك الخالدة (١) "الأرك": "حصن على بعد عشرين كم إلى الشمال الغربي من قلعة رباح، على أحد فروع نهر وادي آنة، غرب المدينة الإسبانية الحديثة *giudad real* "المدينة الملكية". "والأرك هي نقطة الحدود بين قشتالة والأندلس في حينه .

في التاسع من شهر شعبان لسنة ٥٩١ هـ = ١١٩٥ م وعند هذا الحصن الكبير الذي يقع في جنوب "طليطلة" على الحدود بين قشتالة ودولة الأندلس في ذلك الوقت التقت الجيوش الإسلامية مع جيوش النصارى هناك.

أعد "ألفونسو الثامن" جيشه بعد أن استعان بمملكتي "ليون ونافار"، وجيوش ألمانيا وإنجلترا وهولندا.. في قوة يبلغ قوامها خمسة وعشرين ألفاً ومائتي ألف نصراني، وقد أحضروا معهم بعض جماعات اليهود لشراء أسرى المسلمين بعد انتهاء المعركة لصالحهم، ليتم بيعهم بعد ذلك في أوروبا.

وعلى الجانب الآخر فقد أعدّ أبو يوسف يعقوب المنصور الموحد جيشاً كبيراً، بلغ

(١) عنها بالتفصيل أنظر: روض القرطاس، ص ٢٩٣ وما بعدها .

قوامه مائتي ألف مسلم من جراء تلك الحمية التي كانت في قلوب أهل المغرب العربي وأهل الأندلس على السواء، خاصة بعد انتصارات المسلمين في حطين (٥٨٣ هـ = ١١٨٧ م) في الشرق...

في منطقة "الأرك" وفي أول عمل له عقد أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدى مجلساً استشارياً يستوضح فيه الآراء والخطط المقترحة في هذا الشأن، وقد كان هذا على غير نسق كل القادة الموحدين السابقين له والذين غلب عليهم التفرد في الرأي، فنهج منهج رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك الأمر. وفي هذا المجلس الاستشاري استرشد أبو يوسف يعقوب المنصور بكل الآراء، حتى إنه استعان برأي أبي عبد الله بن صناديد في وضع خطة الحرب، وهو زعيم الأندلسيين وليس من قبائل المغرب البربرية، وكان هذا أيضاً أمراً جديداً على دولة الموحدين التي كانت تعتمد فقط على جيوش المغرب العربي، فضم أبو يوسف يعقوب المنصور قوة الأندلسيين إلى قوة المغاربة وقوة البربر القادمين من الصحراء.

في خطة شبيهة جداً بخطة موقعة الزلاقة قسم أبو يوسف يعقوب المنصور الجيش إلى نصفين، فجعل جزءاً في المقدمة وأخفى الآخر خلف التلال وكان هو على رأسه، ثم اختار أميراً عاماً للجيش هو كبير وزرائه أبو يحيى بن أبي حفص، وقد ولى قيادة الأندلسيين لأبي عبد الله بن صناديد؛ وذلك حتى لا يوغر صدور الأندلسيين وتضعف حماستهم حين يتولى عليهم مغربي أو بربري. وإتماماً لهذه الخطة فقد جعل الجزء الأول من الجيش النظامي الموحدى ومن الأندلسيين، وقد قسمه إلى يمينه من الأندلسيين وقلب من الموحدين وميسرة من العرب، ثم جعل من خلفهم مجموعة المتطوعين غير النظاميين، الذين ليست لهم كفاءة عالية في القتال. ومكث هو في المجموعة الأخيرة خلف التلال.

راح بعد ذلك أبو يوسف يعقوب المنصور يوزع الخطباء على أطراف الجيش يحمسونه على الجهاد، وعند اكتمال الحشد وانتهاء الاستعداد للقتال أرسل الأمير الموحدى رسالة إلى كل المسلمين يقول فيها: إن الأمير يقول لكم اغفروا له فإن هذا موضع غفران، وتغافروا فيما بينكم، وطيبوا نفوسكم، وأخلصوا لله نياتكم. فبكى الناس جميعهم، وأعظموا ما سمعوه من أميرهم المؤمن المخلص، وعلموا أنه موقف وداع، وفي موقف مهيب التقى

المسلمون مع بعضهم البعض وعانقوا بعضهم بعضاً، وقد ودّعوا الدنيا وأقبلوا على الآخرة. في تلك الموقعة كان موقع النصارى في أعلى تل كبير، وكان على المسلمين أن يقاتلوا من أسفل ذلك التل، لكن ذلك لم يرد المسلمين عن القتال. بدأ اللقاء ونزل القشتاليون كالسيل الجارف المندفِع من أقصى ارتفاع، فهبطوا من مراكزهم كالليل الدامس وكالبحر الزاخر، أسراباً تتلوها أسراب، وأفواجا تعقبها أفواج، وكانت الصدمة كبيرة جدا على المسلمين، فقد وقع منهم الكثير في تعداد الشهداء، ثم ثبتوا بعض الشيء ثم تراجعوا، وحين رأى المنصور ذلك نزل بنفسه ودون جيشه، وفي شجاعة نادرة قام يمر على كل الفرق مناديا بأعلى صوته في كل الصفوف: جددوا نياتكم وأحضروا قلوبكم. ثم عاد رحمه الله إلى مكانه من جديد.

استطاع المسلمون بعدها أن يردّوا النصارى في هذا الهجوم، ثم ما لبث النصارى أن قاموا بهجوم آخر، وكان كسابقه، انكسار للمسلمين ثم ثبات من جديد وردّ للهجوم للمرة الثانية، ثم كان الهجوم الثالث للنصارى وكان شرسا ومركزا على القلب من الموحدين، فسقط آلاف من المسلمين شهداء، واستشهد القائد العام للجيش أبو يحيى بن أبي حفص. وهنا ظن النصارى أن الدائرة قد دارت على المسلمين وأن المعركة قد باتت لصالحهم، فنزل ملك قشتالة إلى الموقعة يحوطه عشرة آلاف فارس، عندئذ كانت قد تحركت ميمنة المسلمين من الأندلسيين وهجمت على قلب الجيش القشتالي مستغلة ضعفه في تقدم الفرسان القشتاليين نحو الموحدين في القلب، وهجمت بشدة على النصارى، واستطاعت حصار العشرة آلاف الذين يحوطون ألفونسو الثامن.

حدث لذلك اضطراب كبير داخل صفوف الجيش القشتالي، واستمرت الموقعة طويلا، وقد ارتفعت أسنة الغبار الكثيف، وأصبح لا يسمع إلا صوت الحديد وقرع الطبول وصيحات التكبير من جيش المؤمنين، وبدأت الدائرة تدريجيا تدور على النصارى، فالتفوا حول ملكهم وقد تزعزت قلوبهم.

وهنا وحين رأى ذلك أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدي أمر جيشه الكامن خلف التلال بالتحرك، وقد انطلق معهم وفي مقدمة جيشه علم دولة الموحدين الأبيض، وقد نقش

عليه: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، لا غالب إلا الله.

ارتفعت بذلك معنويات الجيش الإسلامي كثيرًا، وقد أسلم النصارى رقابهم لسيوف المسلمين فأعملوها فيهم قتلاً وتشريدًا، وانتصر المسلمون انتصارًا باهرًا في ذلك اليوم الموافق التاسع من شهر شعبان لسنة ٥٩١ هـ من الهجرة، وأصبح "يوم الأرك" من أيام الإسلام المشهودة، قالوا عنه: مثل الزلافة، وقالوا عنه: بل فاق الزلافة.

وقد هرب "ألفونسو الثامن" في فرقة من جنوده إلى "طليطلة"، وطارت أخبار النصر في كل مكان، ودوت أخبار ذلك الانتصار العظيم على منابر المسلمين في أطراف دولة الموحدين الشاسعة، بل وصلت هذه الأخبار إلى المشرق الإسلامي، وكانت سعادة لا توصف، خاصة وأنها بعد ثمانية أعوام فقط من انتصار حطين العظيم.

قال المقرئ: وكان عدّة من قتل من الفرنج - فيما قيل - مائة ألف وستة وأربعين ألفًا، وعدّة الأسارى ثلاثين ألفًا، وعدّة الخيام مائة ألف وستة وخمسين ألف خيمة، والخيول ثمانين ألفًا، والبغال مائة ألف، والحمير أربع مائة ألف، جاء بها الكفر لحمل أثقالهم لأنهم لا إبل لهم، وأما الجواهر والأموال فلا تحصى، ويبيع الأسير بدرهم، والسيوف بنصف درهم، والفرس بخمسة دراهم، والحصار بدرهم، وقسم يعقوب الغنائم بين المسلمين بمقتضى الشرع، ونجا الفتنش ملك النصارى إلى طليطلة في أسوأ حال، فحلق رأسه ولحيته، ونكس صليبه، وآلى أن لا ينام على فراش، ولا يقرب النساء، ولا يركب فرسًا ولا دابة، حتى يأخذ بالثأر، وصار يجمع من الجزائر والبلاد البعيدة ويستعدّ، ثم لقيه يعقوب وهزمه وساق خلفه إلى طليطلة وحاصره ورمى عليها بالمجانيق وضيق عليها، ولم يبق مدينة إلا فتحها، فخرجت إليه والدة الأذفونش وبناته ونساؤه ويكين بين يديه، وسألته إبقاء البلد عليهن، فرقّ لهنّ ومنّ عليهن بها، ووهب لهنّ من الأموال والجواهر ما جلّ، وردّهنّ مكرماتٍ، وعفا بعد القدرة، وعاد إلى قرطبة، فأقام شهرًا يقسم الغنائم... (١).

نتائج انتصار الأرك: الهزيمة الساحقة لقوات النصارى، في حين حصد المسلمون من الغنائم ما لا يحصى، وقد بلغت - كما جاء في نوح الطيب - ثمانين ألفًا من الخيول، ومائة

(١) أنظر: نوح الطيب، ٣/

ألف من البغال، وما لا يحصى من الخيام. وقد وزع المنصور رحمه الله هذه الأموال الضخمة وهذه الغنائم كما كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فوزع على الجيش أربعة أخماسها، واستغل الخمس الباقي في بناء مسجد جامع كبير في أشبيلية؛ تخليداً لذكرى الأرك، وقد أنشأ له مئذنة سامقة يبلغ طولها مائتي متر، وكانت من أعظم المآذن في الأندلس في ذلك الوقت، إلا أنها - وسبحان الله - حين سقطت أشبيلية بعد ذلك في أيدي النصارى تحولت هذه المئذنة والتي كانت رمزا للسيادة الإسلامية إلى برج نواقيس للكنيسة التي حلت مكان المسجد الجامع، وهي موجودة إلى الآن.

كان من نتائج موقعة الأرك أن استمرت حركة الفتوح الإسلامية، واستطاع المسلمون فتح بعض الحصون الأخرى، وضموا الشمال الشرقي من جديد إلى أملاك المسلمين كما كان في عهد المرابطين، وحاصروا طليطلة سنوات عديدة إلا أنها كانت من أحسن المدن الأندلسية فلم يستطيعوا فتحها.

ونتيجة لموقعة الأرك أيضا حدثت صراعات شتى بين ليون ونافار من ناحية وبين قشتالة من ناحية أخرى.. فقد ألقى عليهم ألفونسو الثامن (ملك قشتالة) مسؤولية الهزيمة، وكان من نتائج ذلك أيضا أن وقعت لهم الهزيمة النفسية. وترتب على هذا أيضا أن أتت السفارات من بلاد أوروبا تطلب العهد والمصالحة مع المنصور الموحدى رحمه الله والتي كان من أشهرها سفارة إنجلترا، تلك التي جاءت المنصور الموحدى في أواخر أيامه.

أيضا كان من نتائج موقعة الأرك أن تمت معاهدة جديدة بين قشتالة و المسلمين على الهدنة ووقف القتال مدة عشر سنوات، بداية من سنة ٥٩٥ هـ = ١١٩٩ م وحتى سنة 605 هـ = ١٢٠٨ م أراد المنصور أن يرتب فيها الأمور من جديد في بلاد الموحدين.

ثالثا: ترويضه لليهود وإخضاعه لهم بحكم الإسلام فى ظل الدولة الإسلامية وفى ذلك يقول المراكشى "وفى آخر أيام أبي يوسف أمر أن يميز اليهود الذين بالمغرب بلباس يختصون به دون غيرهم، وذلك ثياب وأكمام مفرطة السعة تصل إلى قريب من أقدامهم، وبدلا من العمامات كلوتات (ما يُعطى به الرأس) على أشنع صورة كأنها البراديع تبلغ إلى تحت آذانهم فشاع هذا الزي في جميع يهود المغرب، ولم يزالوا كذلك بقية

أيامه وصدرنا من أيام ابنه أبي عبد الله، إلى أن غيره أبو عبد الله المذكور، بعد أن توسلوا إليه بكل وسيلة(..) فأمرهم أبو عبد الله بلبسان ثياب صفر وعمائم صفر، فهم على هذا الزي إلى وقتنا هذا وهو سنة ٦٢١ وإنما حمل أبا يوسف على ما صنعه(..) شكه في إسلامهم وكان يقول: لو صح عندي إسلامهم لتركتمهم يختلطون بالمسلمين في أنكحتهم وسائر أمورهم، ولو صح عندي كفرهم لقتلت رجالهم وسيت ذراريهم وجعلت أموالهم فينا للمسلمين ولكني متردد في أمرهم" (١).

ظاهرية المنصور: كان المنصور قد أعلن ظاهريته ولم يخفها كما كان حال أبوه يوسف وجده عبد المؤمن، ومن ثم فقد أمر جماعة من العلماء المحدثين بجمع مجموعة من الأحاديث من كتب السنة، وأخذ الناس على حفظها حتى حفظها العوام، وكان يجعل لمن يحفظ ذلك جعلا من الكساء والأموال، ونال عنده طلبه الحديث حظوة كبيرة، وكان لهم ملجا وملاذا (٢)، ونهى عن استخدام كتب الرأى والفروع وأمر بحرقها، وصنف فى الحديث وفى الفقه، وكما مفتيا يلجا إليه القضاة والفقهاء يسألونه عن ما أشكل عليهم، ومن عجائب أقواله أنه طلب من أحد قضاة أن يرسل إليه اثنين من العلماء لتعليم أولاده فأرسل القاضى إليه اثنين وقال له يا أمير المؤمنين أرسلت إليك اثنين اما أحدهما فبر فى دينه وأما الآخر فبحر فى علمه فاخترهما المنصور ثم أرسل إلى القاضى فقال له قد اخترتهما فوجدتهما كما قال الله تعالى "ظهر الفساد فى البر والبحر" وهذا تأصيل لمنهجية الظاهرية فى كل قولة له. وبلغ من حرصه على نشر المذهب الظاهرى أن اتخذ لبنيه مؤدبا ظاهريا وهو أبا سليمان بن حوط الله الغرناطى الذى كان قد تولى قضاء قرطبة وإشبيلية ومرسية وسبته وسلا وميورقة، وذلك لينشئهم على أصول المذهب (٣).

وقد أثمرت سياسته هذه إذ إن ابنه الناصر لما فتح ميورقة واستردها من بنى غانية

(١) أنظر: المعجب، ٢٥٢، ٢٥١.

(٢) المراكشى، المعجب، ص ٢٧٨-٢٨٠.

(٣) ابن الأبار، التكملة، ٨٨٥/٢؛ وانظر: النباهى، تاريخ قضاة الأندلس، ص ١١٧؛ أحمد بكير، المدرسة الظاهرية، ص ٦٤.

المالكية حرص على أن يولى عليها قاضيا ظاهريا وهو ابن حوط الله ليحافظ على المذهب الظاهري بالجزيرة ويعيده إلى سابق عهده كما كان أيام ابن حزم (١)، ويجب ألا ننسى في هذا المقام قول أمير المؤمنين يعقوب المنصور الموحي المجتهد المطلق وقد وقف على صريح ابن حزم: كل العلماء عالة على ابن حزم! (٢).

أم المنصور وأولاده: أم المنصور كانت أم ولد رومية اسمها ساحر... وكان للمنصور من الولد محمد ولي عهده وابراهيم وعبدالله وعبدالعزیز وابوبكر وزكريا وادريس وعيسى وموسى وصالح وعثمان ويونس وسعد ومساعد والحسن والحسين فهؤلاء عاشوا بعد ابيهم وقد مات للمنصور عدة من البنين والبنات في حياته (٣).

مصنفات:

- ١- الترغيب في الصلاة. جمع فيه المنصور متون الأحاديث الصحاح. وهذا الكتاب منخطوط بالخزانة الحسينية بالرباط تحت رقم ٤٤٧٨ يضم أربعين ورقة.
- ٢- فتاوى المنصور. ذكرها ابن حموية بقوله "كان فقهاء الوقت يرجعون إليه في الفتوى، وله فتاوى مجموعة حسبما أدى إليه اجتهاده" (٤).

وفاة المنصور: كان المنصور الموحي قد استخلف ابنه الناصر لدين الله قبل وفاته على أمل أن يمد الله في عمره فيستطيع الناصر لدين الله أن يكتسب من الخبرات ما يؤهله لأن يصبح بعد ذلك قائدا فذا على شاكلته أبيه، لكن الموت فاجأ للمنصور الموحي بعد كان أن وضع الناصر لدين الله على رئاسة البلاد، وهو لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره. وقد كان من الواجب على الموحيين أن ينتخبوا من بينهم ومن حين الوفاة من يصلح للقيادة بدلا منه. ولما حضرته الوفاة قال ما ندمت على شيء فعلته في خلافتي إلا على ثلاث وددت أني لم أفعلها الأولى إدخال العرب من أفريقية إلى المغرب مع أني أعلم أنهم أهل فساد، والثانية بناء رباط الفتح أنفقت فيه بيت المال وهو بعد لا يعمر والثالثة: إطلاق أسارى الأرك ولا بد

(١) الناصري، الاستقصا، ٢/٢١٧.

(٢) نقلا عن: المقرئ، نفع الطيب، ٤ / ٢٢٢.

(٣) المراكشي، المعجب، ص٢١٨، ٢١٩.

(٤) نقلا عن المقرئ، نفع الطيب، ٣/١٠١، ١٠٢.

لهم أن يطلبوا بثأرهم (١)

وفي ليلة الجمعة وبعد العشاء الأخيرة الثاني والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ٥٩٥ هـ = 1199 م يلتقى المنصور الموحدى ربه وهو فى الثامنة والاربعين من عمره ودفن بمجلس سكناه بمراكش، وكانت مدة حكمه خمسة عشر سنة، وقد كذب العامة بموته ولوعا به، وادعوا أنه ساح فى الارض (٢).

٥- محمد الناصر بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الظاهرى (ت ٦١١ هـ)

كان الناصر لدين الله شابا طموحا قويا مجاهدا لكنه لم يكن فى كفاءة أبيه، وفضلا عن هذا فقد كانت البلاد محاطة بالأعداء من كل جانب، و النصارى بعد لم ينسوا هزيمتهم فى موقعة الأرك التي كانت قبل سنوات قلائل، ويريدون أن يعيدوا الكرة من جديد على بلاد المسلمين، وفوق ذلك فبعد وفاة المنصور الموحدى قامت من جديد ثورات بني غانية المؤيدة لدولة المرابطين السابقة.

وفى سبيل استعادة الوضع إلى ما كان عليه وجه الناصر لدين الله جلّ طاقته للقضاء على ثورات بني غانية داخل دولة الموحدين، فخاض معهم معارك وحروب كثيرة، حتى استطاع نهاية الأمر إخمادها تماما، وذلك فى ٦٠٤ هـ = ١٢٠٧ م أي أنها استمرت تسع سنوات كاملة منذ بداية حكمه وحتى ذلك التاريخ.

فى هذه الأثناء التي كان يسعى فيها الناصر لدين الله للقضاء على ثورات بني غانية، كان قد تجدد الأمل عند ألفونسو الثامن، فعمل على تجهيز العدة لرد الاعتبار، وأقسم على ألا يقرب النساء ولا يركب فرسا ولا بغلا، وأن ينكس الصليب حتى يأخذ بثأره من المسلمين، فأخذ يعد العدة ويجهز الجيوش ويعقد الأحلاف وبعد الحصون تمهيدا لحرب جديدة معهم.

وقبل انتهاء الهدنة ومخالفة للمعاهدة التي كان قد عقدها مع المنصور الموحدى قبل موته هجم ألفونسو الثامن على بلاد المسلمين، فنهب القرى وأحرق الزروع، وقتل العزّل من

(١) ابن زرع، روض القرطاس، ص ٣٠٢، ٣٠٣

(٢) السلاوى، الاستقصا، ١٨٣/٢.

المسلمين، وكانت هذه بداية حرب جديدة ضد المسلمين. وكان ثمة عيب خطير آخر في القيادة كان متأسلا في أجداده من قبله، وهو اعتداد الناصر لدين الله برأيه ومخالفته أمر الشورى، ذلك العيب الذي تفاداه أبوه من قبله. وزاد من ذلك أمر آخر كان في غاية الخطورة، وهو أن الناصر لدين الله كان قد استعان ببطانة سوء ووزير ذميم الخلق يدعى أبا سعيد بن جامع، والذي شك كثير من المؤرخين في نيته، وشك كثير من الأندلسيين والمغاربية المعاصرين له في اقتراحاته. فإن كثيرا منهم قالوا بأنه كان على اتصالات مع النصارى، والتي أدت إلى النكبة الحتمية في معركة العقاب (١)، ومع كل هذا فقد كان هو الرجل الوحيد الذي يأمن له الناصر لدين الله ويستعين بآرائه، ضاربا عرض الحائط كل آراء أشياخ الموحدين وقادة الأندلسيين في ذلك الوقت.

على الجانب الآخر من أحداث دولة الموحدين فقد كانت هناك تعبئة روحية عالية في جيش النصارى يقودها البابا في روما بنفسه، وقد أعلنوا حربا صليبية وراحوا يصفون عليها ألوانا من القداسة، وقد رفعوا صور المسيح، وصرح البابا بأن من يشارك في هذه الحرب سيتمنح صكوك الغفران، تماما كما حدث في موقعة الزلاقة.

أتبع ذلك استفار عام في كل أنحاء أوروبا، اشتركت فيه معظم الدول الأوروبية حتى وصل إلى القسطنطينية في شرق أوروبا وبعيدا جدا عن بلاد الأندلس، وقد تولت فرنسا مهمة الإنفاق على الجيوش بالإضافة إلى إمداد الجيش القشتالي بالرجال، وكانت فرنسا يههما كثيرا هزيمة المسلمين لكونها البلاد التالية لبلاد الأندلس، فإن قامت لدولة الموحدين دولة قوية فحتما ستكون الدائرة عليها في المرحلة التالية.

وقد زاد الأمر تعقيدا إرسال البابا رسالة إلى مملكة نافار - وكانت قد وقعت معاهدة مع المنصور الموحد قبل وفاته - يحضها فيها على نبذ المعاهدة التي مع الموحدين، وعلى استعادة العلاقة مع القشتاليين، وكان القشتاليون - كما ذكرنا - قد اختلفوا مع مملكة ليون ونافار بعد هزيمة الأرك، لكن البابا الآن يريد منهم التوحد في مواجهة الصف المسلم، فخاطبه بنقض عهده مع المسلمين ومحالفة ملك قشتالة، فما كان من ملك نافار إلا أن

(١) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص ٣١٢.

أبدى السمع والطاعة. توحدت دول وبلغ عدد جيوشها مائتي ألف نصراني يتقدمهم الملوك والرهبان نحو موقعة فصل بينهم وبين المسلمين.

التقى الطرفان على جبال الشارات أو السييرا مورينا وعسكروا في أطراف تلك الجبال. نظمت الصفوف وحمس الجنود وكان الجميع بانتظار شرارة البداية حتى كان السادس عشر من يونيو الموافق الخامس عشر من صفر ٦٠٩ هـ. في ذلك اليوم التحم الجيشان وفي بادئ الأمر قاومت مقدمة الجيش الإسلامي المؤلفة من المتطوعين المغاربة وصدر الجيش المكون من الجيش النظامي الموحدى قاوموا فرسان التحالف المسيحي مقاومة شرسة حتى بدأت قوات المسيحيين بالتراجع وظهرت عليهم أمارات الخوف. استشار ألفونسو قادة جيشه وكبار دولته فأشاروا عليه بمحاولة حصار الجيش الإسلامي وكان صوابا أن فعل فانطلق جناح الجيش المسيحي المكون من قوات نافارة وأراجون وطوقوا جيش محمد الناصر الأمر الذي أدى إلى اضطراب الجيش وانسحاب جناحاه من أرض المعركة.

بعد ذلك اقتحم المسيحيون الجيش الإسلامي وقتلوا أغلب من فيه وانسحب من استطاع أن ينسحب إلى بلاد المغرب وكان منهم محمد الناصر ومجموع الجنود. انسحب محمد الناصر مكرها، فبعد أن رأى هزيمة جيشه ومقتل ابنه على أرض المعركة جلس في خيمته منتظرا الموت أو الأسر إلا أن جموع المسلمين المنسحبة أجبرته على الانسحاب معها فانطلق حتى وصل إلى إشبيلية ومنها إلى مراكش.

صفته: أبيض أشقر شعر اللحية، أشهل العينين أسيل الخدين حسن القامة كثير الإطراق شديد الصمت بعيد الغور، حليما شجاعا عفيفا عن الدماء قليل الخوض فيما لا يعنيه وكان أكبر أسباب صمته لثغا بلسانه (١).

ظاهرة محمد الناصر: حرص على تولية القضاة من أهل الظاهر لا سيما على مناطق التجمع لأهل الظاهر كجزيرة ميورقة كما أسلفنا، كما اتخذ وزيرا ظاهريا وهو أخاه إبراهيم بن يعقوب المنصور (٢).

(١) المراكشى، المعجب، ص ٢٥٤.

(٢) المراكشى، المعجب، ص ٢٥٤.

وفاته: لما وصل الناصر مراکش بعد العقاب أخذ البيعة لابنه يوسف الملقب

بالمستنصر، فبايعه كافة الموحدين وخطب له على جميع منابرهم، وذلك في العشرة الأخيرة من ذى الحجة سنة ٦٠٩هـ، فلما تمت البيعة دخل الناصر قصره فاحتجب عن الناس إلى شهر شعبان من سنة ٦١٠هـ فمت مسموما بأمر وزرائه دسوا له من سمه من جواربه، لأنه كان قد عزم على قتلهم، فكانت وفاته يوم الأربعاء ١١ شعبان سنة ٦١٠هـ (١) وقيل توفي عندما احتل رباط الفتح من سلا ليلة الثلاثاء عاشر شعبان ٦١٠هـ، وقيل غير ذلك (٢)، وأصح ما قيل في سبب وفاته أنه أصابته سكتة من ورم في دماغه يوم الجمعة فاقام ساكتا لا يتكلم أيام السبت والأحد والاثنين والثلاثاء وأشار عليه الأطباء بالفصد فرفض، فكانت وفاته يوم الأربعاء (٣).

٦- أبو يعقوب يوسف الثاني المستنصر بالله بن الناصر بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي ٦١١-٦٢٠هـ لقبه المنتصر او المستنصر، كنيته أبو يعقوب. صفته: شاب السن، حسن القد، أزهر اللون، جميل الصورة، أقنى الأنف، سبط الشعر صافى السمرة مستدير الوجه شديد الكحل يشبهونه بجده المنصور في أكثر خلقه وخلقته (٤).

بيعته: وفي يوم السبت أذن للناس عامة وأبو عبد الله بن عياش الكاتب قائم على رأسه يقول للناس: تبايعون أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين، على ما بايع عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من السمع والطاعة في المنشط والمكروه واليسر والعسر، والنصح له ولولائه ولعامة المسلمين، هذا ماله عليكم. ولكم عليه أن يحمي ثغوركم، وأن لا يدخر عنكم شيئاً مما نعمكم مصلحته، وأن يعجل لكم عطاءكم. وأن لا يحتجب دونكم. أعانكم الله

(١) ابن عذارى، روض القرطاس، ص ٣١٦، ٣١٧.

(٢) السلاوى، الاستقصا، ٢٠١/٢.

(٣) المراكشى، المعجب، ص ٢٦٦.

(٤) نفسه، ص ٢٦٦.

على الوفاء، وأعانته على ما قلده من أموركم. (١)

قلت: بويغ له وهو بلا حكمة ولا تجربة ولا معرفة بالأمر فأقام أشياخ الموحدين مع أشياخ من أعمامه الدولة، ومن ثم استقرت خلافته لذلك ولم ينازع عليها، ولم يغز في أيامه، إلا أن أوامره لم تمتثل وكل من ولى بلداً عمل فيه برأيه واستبد بأمره، ولما كبر واستقبل أمره ونهيه فرق أعمامه من حواليه وكانوا يسوسون الدولة وقرب أناسا لم يكن لهم أصل في الدولة.

وبعد أربعة أشهر من حكم المستنصر، قبض على رجل كان قد ثار عليهم اسمه عبد الرحمن، ادعى أنه من أولاد العاضد من خلفاء المصريين. وكان خروجه في زمن أبيه محمد بن يعقوب، والنفت عليه ببلاد صنهاجة جماعة كبيرة. وكان كثير الإطراق والصمت، حسن الهيئة. وقصد سحلماسة في حياة محمد بن يعقوب في جيش عظيم. فخرج إليه متوليها سليمان بن عمر بن عبد المؤمن. فهزمه عبد الرحمن هذا، وأعادته إلى سحلماسة أسوأ عود. ولم يزل يتنقل في قبائل البربر ولا تثبت عليه جماعة لأنه غريب البلد، حتى قبض عليه بظاهر فاس. فضربت عنقه وصلب، ووجهه برأسه إلى مراكش. وثار في أيام يوسف رجل ببلده جزولة يدعى أنه فاطمي، فقتل وجيء برأسه. وثار آخر من صنهاجة، فقتل في سنة ثمانى عشرة وستمائة، بعد أن أثر آثاراً قبيحة، وهزم ببعوثاً كثيرة، وافسد خلقاً من الناس. (٢).

قال ابن خلكان: لم يكن في بني عبد المؤمن أحسن وجهاً من المستنصر، ولا أبلغ في المخاطبة، إلا أنه كان مشغولاً براحته فلم يبرح عن حضرته فضعفت الدولة في أيامه (٣). قلت: وفي عهده ظهر بنى مرين بفاس سنة ٦١٣ هـ، وكذا هزم المسلمين بقصر أبي دانس بالاندلس سنة ٦١٤ هـ وهي من الهزائم الكبار التي تشبه العقاب (٤).

وقد أمر المستنصر بقتل جماعة من النصارى، وقامت العامة بشورة عارمة وأحرقت جثثهم، وذلك لقيام النصارى بالتبشير بالمسيحية بمراكش، ودعوتهم العامة لنبد الإسلام،

(١) نفسه، ص ٢٦٨.

(٢) النويرى، نهاية الأرب، ٣٤٤/٢٤.

(٣) نقلاً عن: السلاوى، الاستقصا، ٢٠٤/٢.

(٤) السلاوى، الاستقفا، ٢٠٢/٢، ٢٠٣.

واعتراف المسيحية (١).

وفي عهده ظهر طالب من نسب عثمان بن عفان كان يقول ليس محمد خاتم النبيين هذه كلمة قالها موسى وعيسى، وقيل إنه رأى الملائكة جبريل وميكائيل وإسرافيل وملكا يلازمه هو شلاتون ورأى الملائكة كلهم شيوخ إلا محمد كهلا، ورأى الجنة والنار، وفي الجنة رأى ابن حزم على الدرجة ١٠٧، والقاضي أبا عمران بن عمران على إحدى عشرة درجة، وكان يخبر بأشياء وينذر بوقوع أشياء فتحدث كما قال، وتحدث الناس عنه كثيرا حتى حمل للقاضي ابن القطان مقيدا فأمر بقتله ليكون أمره عبرة للسائلين على حد تعبير المراكشي (٢).

وفاته: توفى عشي يوم السبت ١٢ من ذى الحجة سنة ٦٢٠ هـ وكان مغرما بالبقر والخيل، فيؤتى بالبقر من الأندلس فيستنتجها في رياضه الكبير من حضرة مراكش، فركب فحلا من الثيران ومشى به بين البقر فقصدت إليه واحدة منهن كانت شرودة فضرته بقرنها على قلبه فمات من حينه (٣) وقيل سمه الوزير ابن جامع والفتى مسرور (٤).

٧- أبومالك عبد الواحد المخلوع بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي ٦٢٠ هـ - ٦٢١ هـ بايعه أشياخ الموحدين على كره منه بقبة النصر من قسبة مراكش، وذلك في ضحى يوم الأحد ١٣ من ذى الحجة ٦٢٠ هـ وهو فى سن الشيخوخة، وكان رجلا صالحا فاضلا متورعا فاستقام له الأمر شهرين، وخطب له فى جميع البلاد ما عدا مرسية بالأندلس وكان واليها ابن أخيه عبد الله الملقب بالعادل، ووزيره عبد الرحمن بن يوجان المعروف بالاصفر الذى كان يستعيز منه المنصور إذا رآه ويقول "ما يجرى على يدك من الفتن يا أصفر" هذا الوزير منع العادل من المبايعه وقال له "إنك أحق بالخلافة واقرب إليها منه، أنت ولد المنصور وأخو الناصر وعم المنتصر ولك الحزم والعقل الراجح والكرم وحسن السياسة وإصابة الرأى ولو دعوت الموحدين إلى بيعتك لم يختلف عليك اثنان

(١) مجدى ياسين عبدالعال، مراكش منذ تأسيسها فى عصر المرابطين إلى نهاية دولة بنى مرين، ص ٢٨٢.

(٢) المراكشي، الذيل والتكملة، السفر الثامن القسم الأول، ص ١٧٩-١٩١.

(٣) ابن أبى زرع، روض القرطاس، ص ٣١٩.

(٤) الزركشى، تاريخ الدولتين الموحديّة والحفصية، ص ٢٠.

فدع التواني وبادر إلى فسخ أمره قبل التمكين "فأسرع العادل إلى مجلس حكمه وأرسل إلى كبار مرسية وفقهائها يدعوهم لبيعته فبايعوا، وأرسل لوالى إشبيلية فبايعه وولاية قرطبة ومالقة وغرناطة ثم أرسل إلى مشايخ الموحدين بمراكش ودعاهم إلى بيعته وخلع عبد الواحد فتم ذلك وبعد خلع عبد الواحد تحت التهديد والتخويف شهد القاضى والفقهاء والأشياخ على خلعه ومبايعته للعادل، وذلك فى اليوم التالى من خلعه وهو الأحد ٢٢ شعبان ٦٢١هـ (١).

قال الملاحى: يذكر عنه أنه كان مجاب الدعوة (٢).

وفاته: بعد ثلاثة عشر يوماً من خلع عبد الواحد دخل عليه مشايخ الموحدين فخنقوه حتى مات فى الخامس من رمضان ٦٢١هـ وانتهبوا قصره وأخذوا أمواله وسبوا حريمه وهتكوا ستره، فكان رحمه الله أول من خلع وقتل من بنى عبد المؤمن (٣).

٨- أبو محمد عبد الله العادل بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن ٦٢١هـ - ٦٢٤هـ لقبه العادل فى أحكام الله تعالى. كنيته أبو محمد .

أمه: أم ولد رومية من سبى شنترين، اسمها سر الحسن .

صفته: أبيض اللون تام القد نحيل الجسم أشهل العينين، أقتى الأنف، خفيف

العارضين، حازم فى أموره قبل خلوص الأمر له (٤).

بويع له البيعة الأولى بمرسية، واجتمع على بيعته كافة الموحدين ما عدا أهل أفريقية الحفصيون الذين استبدوا لأنفسهم بالأمر، وخطب له بحضرة مراكش وسائر بلاد العدو والأندلس، وتوقف عن بيعته صاحب بلنسية وشاطبة ودانية عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن يوسف بن عبد المؤمن بن على، ثم إن صاحب بياسة وقرطبة وجيان وقيجاطة وحصون الثغر الأسوط عبد الله بن محمد بن إدريس لما رأى أخاه عبد الرحمن صاحب بلنسية

(١) ابن أبى زرع، روض القرطاس، ص ٣٢٠، ٣٢١؛ وانظر: السلاوى، الاستقصا، ٢/٢٠٥.

(٢) ابن الخطيب، الحلل الموشية، ص ١٢٣.

(٣) ابن أبى زرع، روض القرطاس، ص ٣٢٠، ٣٢١.

(٤) ابن أبى زرع، روض القرطاس، ص ٣٢٣.

ضابطا لبلاده نقض بيعته هو الآخر واستقل بما تحت ملكه مما أدى إلى وقوع القتال بينه وبين العادل.

استنصر صاحب بياسة وقرطبة والذي عرف بالبياسي بألفونسو ملك النصارى على العادل مقابل أن يعطيه بياسة وقيحاطة، فكان أول من سن إعطاء البلاد والحصون للنصارى، وانتصر البياسي هو ومن معه من النصارى على جيش العادل والذي كان بقيادة أخيه إدريس، ومن ثم لما رأى العادل ذلك انفلت من الأندلس إلى المغرب واستقر بقصر الخلافة بمراكش، وفوض أمر الأندلس لأخيه إدريس .

خلع العادل وقتله: لم يستمر إدريس في ولايته لأخيه العادل طويلا إذ سرعان ما نكث بيعته ودعا لنفسه بالخلافة وتلقب بالمأمون فبايعه أهل إشبيلية وجميع مدن الأندلس، وكتب إلى الموحدين بمراكش يعلمهم بما وقع ويدعوهم لبيعته وخلع العادل فدخل أشيخ الموحدين على العادل القصر وسألوه أن يخلع نفسه فامتنع فجعلوا رأسه في خصة تفور بالماء، وقالوا: لا نفارقك أو تشهد على نفسك بالخلع وتبايع لأخيك المأمون. فقال لهم اصنعوا ما بدا لكم أنا لا أموت إلا أمير المؤمنين فجعلوا عمامته في عنقه وخنفوه بها ورأسه في ماء الخصة حتى مات يوم الثلاثاء ٢١ شوال سنة ٦٢٤هـ، وكتبوا البيعة للمأمون، ثم نكثوا بيعتهم وبايعوا ليحيى بن محمد الناصر (١)، وسبحان من بيده الأمر وكما تدين تدان خلع فانخلع، وقتل فقتل .

٩- يحيى المعتصم بالله بن محمد الناصر بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن
٦٢٤هـ - ٦٢٦هـ

كنيته: أبو زكريا، وقيل أبو سليمان. لقبه: المعتصم بالله .

صفته: شاب السن حسن القد والوجه، أدم اللون، خفيف العارضين، أشقر الشعر (٢).
بايع له الموحدون في جامع المنصور بمراكش، بعد أن خنقوا عمه العادل (عبد الله بن يعقوب) ونكثوا بيعة عمه الثاني المأمون إدريس ابن يعقوب سنة ٦٢٤هـ.

(١) نفسه، ص ٣٢٣-٣٢٥؛ وانظر السلاوي، الاستقصا، ٢/٢٠٧، ٢٠٨.

(٢) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص ٣٢٥.

قلت: نكث أشياخ الموحدين بيعة المأمون لمعرفتهم بشهامته وشدة سطوته في حين أن يحيى سيكون أطوع لهم في تحقيق رغباتهم، فضلا عن قتلهم عبد الواحد عم المأمون وأخاه العادل،.

وقد امتنع عرب الخلط وقبائل هسكورة عن مبايعة يحيى وقالوا قد بايعنا للمأمون فلا ننكث بيعته .

فلما رأى يحيى اختلال أمره ومبايعة أكثر أهل المغرب لعمه المأمون فر إلى تينملل في جمادى الآخرة سنة ٦٢٦هـ، وكتب أشياخ الموحدين للمأمون بخبر يحيى وضبطوا له مراكش ريثما يقدم عليهم .

مكث يحيى بالجبل أربعة أشهر ثم عاد إلى مراكش وطرد عامل المأمون وظل بها سبعة أيام ثم خرج إلى جبل جيلز وعسكر به، وكان المأمون قد استنصر بملك قشتالة فرناندو الثالث^(١) لقتال يحيى مقابل شروط منها أن يعطيه عشرة حصون مما يلي إشبيلية وأن يبني لجنده الأسبان كنيسة في مراكش إذا دخلها وأن من أسلم من جنده لا يقبل إسلامه^(٢).

تقدم المأمون بمن معه من الموحدين والفرنجة وعند اقترابه من مراكش وقع الاشتباك بينه وبين يحيى يوم السبت ٢٥ ربيع الأول ٦٢٦هـ وهزم يحيى وفر إلى الجبل بعد مقتل الآلاف من أتباعه، ودخل المأمون مراكش^(٣).

١٠- أمير المؤمنين أبو العلاء إدريس المأمون بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي الظاهري (٦٢٦هـ - ٦٣٠هـ)

ولد بمالقة سنة ٥٨١هـ. رفض زعم ابن تومرت للمهدوية وللعصمة^(٤) مثل أبيه

(١) كانت أم المأمون أسبانية .

(٢) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص ٣٢٩.

(٣) السلاوى، الاستقصا، ٢/٢١١، ٢١٢.

(٤) وهذا نص رسالته إلى الكافة في ظل دولته بمنع المهدوية والعصمة لابن تومرت ... من عبد الله بن إدريس أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين إلى الطلبة و الأشراف والاعيان والكافة ومن معهم من المؤمنين و المسلمين، أوزعهم الله شكر أنعمه الجسام ولا أعدمهم طلاقة أوجه الايام الوسام وانا كتبنا اليكم - كتب الله لكم = عملا منقادا ، وسعدا وقادا وخاطرا سليما لايزال على الطاعة مقيما - من حضرة مراكش - كلاها الله

المنصور تماما لكن المأمون حسم الأمر بالقوة وكتب الكتب التي تنهى عن تلقيب ابن تومرت بالمهدي والمأمون، وكان ذلك أول أعماله التي أعلنها من على منبر مراكش بعد مبايعة الموحدين له، و نوه بأن أبا يوسف يعقوب المنصور كان قد عزم على ذلك الأمر لولا أجله، فقام بمحو اسم المهدي من السكة والخطبة وإلغاء النعي عليه في النداء للصلاة باللغة الآمازيغية وإلغاء زيادة النداء لطلوع الفجر وهو: "أصبح ولله الحمد" وغير ذلك من السنن التي اختص بها المهدي واعتبرها من البدع.

عقب ذلك دخل المأمون قصره ولبث به ثلاثا وطلع في اليوم الرابع فدعا اشياخ الموحدين وأظهر لهم كتابهم إليه بالبيعة ثم نكثهم لها والتفت إلى قاضيه يسأله عن حكم الشرع فيهم: فقال القاضى "يا أمير المؤمنين إن الله يقول ومن نكث فإنما ينكث على نفسه" فقال المأمون صدق الله العظيم فإننا نحكم بهم بحكم الله "ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون" فأمر بهم فقتلوا (١)، وبإيع المأمون حاكم فاس وحاكم تلمسان وحاكم سبتة وحاكم بجاية .

وقد نفذ المأمون شروط ملك قشتالة فرناندو الثالث فسلمه الحصون العشرة وبنى في

تعالى - وللحق لسان ساطع وخسام قاطع ، وقضاء لا يرد وباب لا يسد وظلال على الافاق تمحو النفاق
وبعد:

فالدي نوصيكم به تقوى الله العظيم و الاستعانة به والتوكل عليه ولتعلموا أننا نبذنا الباطل و أظهرنا الحق وأن لامهدي الا عيسى بن مريم روح الله وما سمي مهديا الا لانه تكلم في المهدي فتلك بدعة قد أزلناها = والله يعيننا على هذه القلادة التي تقلدناها وقد أزلنا لفظ العصمة عمن لم تثبت له عصمة فلذلك أزلنا عنه رسمه (يقصد ابن تومرت) فيمخى ويسقط ولا يثبت وقد كان سيدنا المنصور (بطل موقعة الارك الخالدة) رضي الله عنه هم بأن يصدع بما به الان صدعنا وأن يرقع للامة الخرق الذي رقعنا قلم يساعده لذلك أمله ولا أجله اليه أجله فقدم على ربه بصدق نية وخالص طوية وادا كانت العصمة لم تثبت عند العلماء للصحابة فما الظن بمن لم يدر بأي يد يأخذ كتابه أف لهم قد ضلوا وأضلوا ولذلك ولوا ودلوما تكون لهم الحجة على تلك الحجة ، اللهم اشهد اللهم أشهد أنا قد تبرأنا منهم تبرؤ أهل الجنة من أهل النار ونعود بك يا جبار من فعلهم الرثيث و أمرهم الخبيث انهم في المعتقد من الكفار وانا نقول فيهم كما قال نبيك عليه السلام "رب لا تدر على الارض من الكافرين ديارا" والسلام على من اتبع الهدى واستقام. أنظر: رسائل موحدية، تحقيق أحمد العزاوي، منشورات جامعة ابن طفيل بالقنيطرة، ١/٤٨٥، ٣٨٤.

(١) السلاوى، الاستقصا، ٢/٢١٣.

مراكش كنيسة لجنده الأسبان .وأخذت النواقيس تدق بالعاصمة الموحدية منذ إنشاء الكنيسة^(١).

قلت: لقي هذا الأمر اعتراضا من الفقهاء وعلى رأسهم قاضي الجماعة بمراكش أبو محمد عبدالحق بن عبدالحق الذي سجنه المأمون حتى افتدى بستة آلاف دينار، كما اعترض على هذا البناء يحيى بن الناصر ووجد تأييدا من فقهاء المالكية والظاهرية، واستغل يحيى انشغال المأمون بالقضاء على حركة أخيه أبي موسى عمران بن المنصور بالخروج عليه في سبته وتسميه بالمؤيد في عام ٦٢٩هـ/١٢٣١م وقام يحيى يؤيده عرب سفيان وشيخهم جرمون بن عيسى، ومعهم أبوسعيد بن وانودين شيخ هنتانة بدخول مراكش وهدم كنيسة النصرى وقتل كثيرا ممن بها، والسيطرة على أموالهم، وقتل كثيرا من اليهود وأبناء الزنا وسبى أموالهم ودخل القصر وحمل ما فيه إلى الجبل، ولما وصل الخبر للمأمون وكان بسبته عاد مسرعا إلى مراكش وبلغه وهو في الطريق سيطرة ابن هود على سبته فأصيب بفرجة ومرض مرضا شديدا ومات بوادي العبيد يوم السبت منسلخ ذى الحجة سنة ٦٢٩ هـ^(٢)، ولا شك أن هذه المعارضة فضلا عن هدم الكنيسة له ما يبرره إذ إن العهدة العمرية اشترطت عدم إحداث كنائس جديدة في ديار الإسلام^(٣)، وهو ما دفع الظاهرية إلى تأييد المعارضة، فضلا عن أن ابن حزم الذي يعمل الظاهرية بفتاويه أفتى بأنه ليس لأهل الذمة أن يظهروا من أمر دينهم شيئا لم يكن في صلحهم، وما دام إحداث الكنائس ليس في الصلح فمن الواجب معارضة تشييد أهل الذمة لها وهدمها، وقد اتفق الشافعية والأحناف والحنابلة مع الظاهرية بخصوص فتوى ابن حزم لأن أئمتهم أفتوا بما أفتى به ابن حزم^(٤).

(١) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص ٣٢٩؛ وانظر: ابن خلدون، العبر، ١٢/٥٣٠، ٥٣١؛ الناصري، الاستقصا، ٢٣٧/٢-٢٣٩؛ عنان، عصر الموحدين، ص ٣٧٢.

(٢) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص ٣٣٢، ٣٣٣؛ وانظر ك الناصري، الاستقصا، ٢٣٧/٢-٢٤٠؛ وانظر: عزاوي، رسائل موحدية، ٤٠١/١.

(٣) أنظر: نص العهدة العمرية في ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، تحقيق محب الدين أبي سعيد عمر غرامة، دار الفكر، بيروت، ١٤٥١هـ/١٩٩٥م، ١٧٤/٢ وما بعدها.

(٤) الونشريسي، المعيار، ٢٥١/٢.

وفى سنة ٦٢٨هـ أنفذ المأمون الكتب إلى جميع البلاد بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفيها أيضا خرجت بلاد الأندلس عن ملك الموحدين إلى ابن هود .
صفته وصفاته: قال ابن الخطيب: كانت له نفس كبيرة وكان عالما كاتباً أديباً فصيحاً

بليغاً ذا نجدة ورأى وحزم إلا أن دولته كانت مزاحمة بأبي زكريا يحيى بن الناصر فلم يتأت له معه تمهيد (١).

وقال ابن أبي زرع: كان أبيض اللون أكحل العينين معتدل القدم مليح الوجه فصحيح اللسان فقيها حافظاً لحديث النبي ضابطاً للرواية عارفاً بالقرءات حسن الصوت والتلاوة، إماماً في اللغة العربية والمعرفة بالآداب وإيام الناس، كاتباً بليغاً له التوقيعات العجيبة إماماً في الحديث لم يزل أيام خلافته يقرأ كتاب الموطأ وكتاب البخارى وسنن أبي داود عالماً بأمر الدين والدنيا، وكان مع ذلك شهماً حازماً مهاباً شجاعاً مقداماً على عظام الأمور إلا أنه كان سفاكاً للدماء لا يتوقف فيها طرفة عين (٢).

وقال أيضاً: ولولا أن الحال في دولته تغيرت والفتن في نواحي الأندلس والمغرب قد اشتعلت لكان المأمون موافقاً لوالده المنصور في الخلال، متابعا له في جميع الأعمال والأحوال (٣).

ظاهرية المأمون: كان المأمون معروفاً بأنه يقضى بأحكام الفقه الظاهري ويولى قضاة من الظاهرية شأنه شأن حكام الدولة قبله وكان يحصر الأحكام في الكتاب والسنة والإجماع ويكتب الرسائل للقضاة بذلك، وينكب بمن ينتقدون ابن حزم الظاهري كما فعل بالقاضي عبدالحق بن بدالله بن عبدالحق الأنصارى الذى أمر بالقبض عليه وتقييده لأنه صنف كتاباً في الرد على ابن حزم (٤).

(١) أنظر: الحلال الموشية، ص ١٢٣، ١٢٤.

(٢) أنظر: روض القرطاس، ص ٣٢٨.

(٣) أنظر: روض القرطاس، ص ٣٣٣.

(٤) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص ٣٣٢.

١١- أبو محمد عبد الواحد الرشيد بن المأمون بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي الظاهري ٦٣٠هـ - ٦٤٠هـ (١)
كنيته: أبو محمد. لقبه: الرشيد .

أمه: أم ولد اسبانية اسمها حباب كانت من دهاة النساء وعقلائهن .
بُويع عبد الواحد بوادي العبيد بعد وفاة والده بيوم وهو يوم الأحد غرة محرم سنة ٦٣٠هـ ولُقِّبَ بالرشيد مع خلاف ابن عمّه يحيى بن الناصر له، وعقب البيعة توجه الرشيد إلى مراكش وحمل اباه أمامه في تابوت .
وفي عهده تولى يغمراسن بن زيان حكم إقليم تلمسان الذي كتب له الخليفة بالعهد على ولاية المغرب الأوسط.

وثار ابن وقاريط بقومه وأخذ بدعوة يحيى بن الناصر فاستنفرت له قبائل الموحدين ونهض إليهم الرشيد سنة ٦٣١هـ واستخلف علي مراكش صهره أبا العلي إدريس وصعد إليهم الجبل فأوقع بيحيى وجموعه بمكانهم من هزرجة واستولى على معسكرهم ولحق يحيى ببلاد سجلماسة وعاد الرشيد إلى عاصمته واستأمن له كثير من الموحدين الذين كانوا مع يحيى بن الناصر فأمّنهم ولحقوا بحضرته، وكان كبيرهم أبو عثمان سعيد بن زكريا الكدميوي وجاء الباقون على أثره بسعيه بعد أن اشترطوا على الرشيد إعادة الطقوس التي أزالها والده المأمون من رسوم المهدي فأعيدت وقدم فيهم أبو بكر بن يعزى التينمللي رسولا عن يوسف بن علي بن يوسف شيخ تينملل ومحمد بن يوزيكن الهنتاني رسولا عن أبي علي بن عزوز ورجعا إلى مرسلهما بالقبول فقدا على السلطان في مراكش وقدم معهم موسى بن الناصر أخو يحيى وكبيره وجاء على أثرهم أبو محمد ابن أبي زكريا وقاموا باسترجاع رسوم الدعوة المهدية، فبدأ الرشيد يقيم الخطبة بذكر المهدي بن تومرت، ليستميل بذلك قلوب الموحدين.

وفي عهده قام عمر بن وقاريطر بإغراء مسعود بن حمدان الخلطي على التمرد، وهو كبير قبيلة الخلط العربية الذين كانت قواتهم يومئذ تناهز إثني عشر ألفا، فأغراه ذلك، وتثاقل

(١) عنه أنظر: الذهبي، تاريخ الإسلام، ابن خلدون، الخبر عن دولة الرشيد بن المأمون، الناصري، الاستقصا .

في الذهاب إلى أداء الطاعة، وتمرد على الخليفة. فأعمل الرشيد حيلة لاستدعائه، فأبعد جيشه إلى باجة كي يطمئن الآخر، فاستقدمه بحضرة مراكش وقدم معه معاوية وهو عم عمر بن وقاريط فقبض عليه وقتله واستدعى مسعود بن حمدان إلى المجلس الخلافي للحديث فقبض عليه هو كذلك ومعه أصحابه فقتلوا ساعتئذ، وبعد أن قضى الرشيد حاجته فيهم استقدم وزيره وعساكره من باجة فقدموا. ولما بلغ خبر مقتلهم إلى قومهم عينوا عليهم يحيى بن هلال بن حمدان واستقدموه من مكانه بقاصية الصحراء. وساندهم في ذلك عمرو بن وقاريط، فقاموا بالزحف لحصار مراكش وخرجت عساكرها لقتالهم ومعهم عبد الصمد بن يولوان واشتبكوا مع ابن وقاريط، فتفاقم أمر ساكنة مراكش بسبب انعدام المؤن.

فعزم الرشيد الخروج إلى جبال الموحدين وسار منها إلى سجلماسة فملكها واشتد الحصار على مراكش وافتتحها يحيى بن الناصر وقومه من هسكورة وعرب الخلط فسيطروا على عاصمة الخلافة. وتغلب على السلطان أبو إبراهيم بن أبي حفص الملقب بأبي حاققة. وفي سنة ٦٣٣ هـ تجهز وخرج السلطان الرشيد من سجلماسة يقصد مراكش وخاطب جرمون بن عيسى وقومه من بني سفيان فأجازوا واد أم الربيع وبرز إليه يحيى في جموعه والتقى الفريقان فانهزمت جموع يحيى واستحر القتل فيهم ودخل الرشيد إلى حضرة مراكش منتصرا، وبقي بها إلى وفاته سنة ٦٤٠ هـ، وأما يحيى بن الناصر ففر بعد الهزيمة قاصدا رباط تازة فغدر به عرب المعقل فقتلوه غيلة وحملوا راسه للرشيد (١).

وقد منح عبد الواحد الرشيد الإشبيليين عام ٦٣٧ هـ حق اللجوء إلى المغرب حسب ظهير حرره قاضي الرباط آنذاك أبو المَطْرَف بن عميرة المخزومي، ولعل ذلك كان بسبب انضمام الإشبيليين إلى الرشيد عام ٦٣٥ هـ عندما حاول الأمير ابن هود اقتحام مصب أبي رقرق.

وقد كتب ابن سبعين المسائل الصقلية بأمر من الخليفة الرشيد.

ظاهرية عبد الواحد الرشيد: ظل محافظا على شعار الحكم في الدولة والقائم على منهج أهل الظاهر إذ كان يكتب للقضاة الرسائل يوقفهم فيها على أن القضاء قائم على الكتاب

(١) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص ٣٣٥.

والسنة والإجماع كما هو واضح من الرسائل الموحدية، فضلا عن قول ابن الأحمر الذى حكم على ظاهرية الدولة من بدايتها حتى انقراضها .

وفاته: وجد غريفا يوم الخميس تاسع جمادى سنة ٦٤٠ هـ / ٤ نوفمبر ١٢٤٢م في أحد بساتينه بحضرة مراكش، وأخرج من الماء حيا فحم لوقته ومات (١)، وذكر المؤرخ أكنسوس أن غرق الرشيد كان في البركة الكبرى التى بدار الهناء من أجدال اليوم التى كانت تسمى بالبحر الأصغر لأن ملوك بني عبد المؤمن الذين أنشئوها كانوا يرسلون فيها الزوارق والفلك الصغار بقصد النزهة والفرجة (٢).

١٢- أبو الحسن على السعيد بن إدريس المأمون بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن بن على ٦٤٠ هـ - ٦٤٦ هـ.

كنيته: أبو الحسن. لقبه: السعيد وسمى بالمعتصم بالله. أمه: أم ولد نوبية . صفته: أسمر اللون شديد السمرة تام القد معتدل الجسم سبط الشعر، مليح العينين، معتدل اللحية عالى الهمة بطل شجاع مهاب. له إقدام فى الحروب ونجدة فاق بها من تقدمه من آبائه .

بويح له بالخلافة فى مراكش يوم الجمعة ١٠ جمادى الآخرة سنة ٦٤٠ هـ . فى عهده ظهر أمر بنى مرين بالمغرب وملكوا جميع بواديه، فأرسل إليهم بالجيوش فهزمت جيوش أمير المؤمنين .

وفى عام ٦٤٣ هـ دخل الأمير ابو بكر بن عبدالحق مدينة مكناسة، وتملك يغمراسن بن زيان تلمسان وأحوازها، وتسمى محمد المستنصر والى أفريقية بأمير المؤمنين احتقارا لدولة على السعيد بن المأمون إزاء هذا التفكك لم يجد السعيد مفرا إلا الخروج للدفاع عن وحدة دولته فتجهز وخرج من مراكش فى جيوش لا تحصى فكان أول ما وقع أن خرج أبو بكر بن عبدالحق عن مكناسة وسلمها للسعيد، وخرج أهلها يطلبون منه العفو وقدموا بين ايديهم

(١) الزركشى، تاريخ الدلتين، ص ٣٠.

(٢) السلاوى / الاستقصا، ٢/٢٢١.

الشيخ الصالح منصور بن حرزوز وصبيان المكاتب بالألواح على رؤسهم والمصاحف بأيديهم فعفا عنهم، وارتحل إلى مدينة فاس وأقام بها أياما فجاءته بيعة أبي بكر بن عبدالحق فسر بها وخلع على القوم، ثم ارتحل إلى تلمسان فخرج عنها ابن زيان فارا بماله وأهله وتحصن بقلعة تامجزرت فخرج السعيد لينظر إلى مناعة القلعة ففطن له فارس من بني عبدالواد فقتله وهبط ابن زيان من القلعة إلى تلمسان وأمر بالسعيد فغسل وكفن ودفن بالعباد خارج تلمسان (١)

١٣- أبو حفص عمر المرتضى ابن إسحاق بن يوسف بن عبد المؤمن ٦٤٦ هـ - ٦٦٥ هـ -
كنيته: أبو حفص. لقبه المرتضى. أمه: حرة بنت عم أبيه .

ولى بإجماع من أشيخ الموحدين بمراكش وتمت بيعته بجامع المنصور بمراكش في ربيع الأول سنة ٦٤٦ هـ، وكان المرتضى واليا للسعيد بقصبة رباط الفتح، جاءته البيعة وهو هناك بعد مقتل السعيد فقرئت على الناس وبايعه الفقهاء والأشياخ ثم قدم مراكش فجددت له البيعة .

كان فاضلا خيرا عفيفا معمد السيف مائلا إلى الهدنة رحمه الله. قال ابن الخطيب: كان له حظ وافر من العلم والأدب وبراعة الخط (٢)، وقال ابن أبي زرع: كان المرتضى يدعى الزهد والتصوف والورع، وتسمى بثالث العمرين، وكان مولعا بالسماع لا يكاد يستغنى عنه ليلا ولا نهارا، وكانت أيامه أيام أمن ودعة ورخاء مفرط لم ير أهل مراكش مثلها والبقاء لله وحده (٣).

قلت: وكان الخليفة المرتضى يحتفل بليلة النصف من شعبان ويطلب من الشعراء والعلماء أن ينظموا له القصائد والكلمات التي تقال في تلك الليلة (٤). وكان ابن القطان قد صنف له كتاب (المجموعات) جمع فيه العديد من القصائد التي تقال في الاحتفاليات وفيها

(١) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص ٣٣٧، ٣٨٣.

(٢) أنظر: الحلل الموشية، ١٢٦.

(٣) أنظر ك روض القرطاس، ص ٣٤٠.

(٤) ابن القطان، نظم الجمال، ص ٣٨، ٣٩.

ما يخص شهر شعبان وكتاب (المسموعات في المدائح النبوية) (١).

ظاهريته: أعلن المرتضى في رسالة لأهل سبتة جاء فيها (وما تعبدنا ربنا - جلا وعلا- إلا بالظاهر) (٢) وهو القول الذى طالما كرهه ابن حزم والظاهرية مرارا فى كتبهم، وهذا القول يوضح أن الدولة ظلت حتى النهاية متبينة للمذهب الظاهرى، إذ إن المرتضى كان الحاكم قبل الأخير فى تاريخ الدولة، وهو ما يتوافق مع قول ابن الأحمر بأن الدولة ظلت تحكم بمحض الظاهرية من أول حكامهم إلى أن انقرضت دولتهم.

وفى العام ٦٥٣هـ خرج إلى فاس لقتال من بها من بنى مرين فهزم وعاد إلى مراكش وظل بها حتى دخلها عليه أبو دبوس آخر خلفاء الموحدين يوم السبت ٢٣ محرم سنة ٦٦٥هـ فخرج المرتضى فارا بنفسه، فظفر به وقتل فى ٢٢ صفر (٣).

١٤- أبو العلا الواثق بالله إدريس بن محمد بن عمر بن عبد المؤمن بن على لقب بأبى دبوس ٦٦٥هـ ٦٦٨هـ.

أمه: أم ولد رومية اسمها شمس .

صفته: أبيض اللون أشقر أزرق العينين طويل القامة، طويل اللحية، بطل شجاع، داهية مقدام فى الأمور .

يقال إنه سمي بأبى دبوس، لأنه كان يستخدم الدبوس (آلة حرب شبيهة بالسهم)، وكان يصوبه ببراعة، وهو ملك المغرب العربى (تونس والجزائر والمغرب) وقتها، وآخر ملوك دولة الموحدين بالمغرب العربى والأندلس، قتل على يد أعدائه من بنى «مرين»، وهرب أبناؤه وأحفاده، وتفرقوا فى شمال إفريقيا وخاصة فى تونس وليبيا، وهاجر آخر جزء منهم إلى مصر، واستقر بها بقيادة الأمير «منصور أبو دبوس» حفيد الملك الواثق بالله أبى دبوس بيعته: بعد ان قتل المرتضى غدرا بايعه اشياخ الموحدين والوزراء والقضاة والفقهاء

(١) ابن أبى دينار، المؤنس، ص١٢٨؛ وانظر: محمد زكريا عنانى وأنور السنوسى، تقديم ديوان ابن الصباغ

الجذامى، دار الأمين، القاهرة، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، ص٠ ج

(٢) انظر: عزوى، رسائل موحدية، ٤٩٥/١.

(٣) ابن أبى زرع، روض القرطاس، ص٣٣٩، ٣٤٠.

في جامع المنصور بمراكش يوم الأحد ٢٣ محرم سنة ٦٦٥هـ، وكان سبب دخوله مراكش أن المرتضى اراد قتله فتحالف أبو دبوس مع أمير المسلمين يعقوب بن عبدالحق المريني على حرب المرتضى نظير تخليه له عن مدينة مراكش واتصل أبو دبوس بخاصته من وزراء المرتضى الذين اخبروه بحال البلد فانتهاز أبو دبوس فرصة خلو الأسوار من حراسها وحاميتها وتسور مراكش من باب أغمات ودخلها على حين فجأة وقصد القصبة فدخلها من باب

الطبول، ففر المرتضى من مراكش إلى آزمور فدخل أبو دبوس مراكش وقتل المرتضى غيلة وارسل بخبره إلى أبي دبوس .

ظاهريته: سبق وقد ذكرنا ما كانت عليه الدولة الموحدية من أولها إلى انقراضها حيث تبنت المذهب الظاهري وجعلته مذهبا رسمى كما ذكر ابن الأحمر .

مقتله وسقوط الدولة: بعد انتصار أبي دبوس دخله العجب وأدركه الكبر ونقض ما كان بينه وبين يعقوب بن عبدالحق المريني وقال لرسوله "قل ليعقوب يغتم سلامته ويقنع بما بيده من البلاد وإلا أتته بجنود لا قبل له بها" فضعب يعقوب وخرج يشن عليه الغارات ووقعت الحروب بينهما قاتل فيها أبو دبوس بنفسه حتى قتل يوم الجمعة فى شهر ذى الحجة سنة ٦٦٧هـ وأتى براسه إلى يعقوب المريني فى فاس وطيف بها فى المدينة (١)

(١) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص ٣٤١-٣٤٣.

الولاية من أهل الظاهر

- ١- أحمد بن رشيق (ت ٤٤٠هـ/١٠٤٨م) صاحب ميورقة فى عصر ملوك الطوائف وصاحب ابن حزم، وهو الذى آوى ابن حزم بجزيرته بعد أن طرده فقهاء المالكية من قرطبة وجعله أحد الوزراء المقربين له.
- ٢- أبو خالد الراضى يزيد بن المعتمد على الله بن المعتضد (ت ٤٨٤هـ)، ولاءه أبوه الجزيرة الخضراء، وكان معظما للمذهب الظاهرى وكتبه، ولعله هو الذى طلب من الفضل أن يصنف له كتابا عن تاريخ الأسرة العبادية ونسبها، خاصة بعد أن صار الراضى ظاهريا، وأعاد لابن حزم اعتباره، بعد أن كان جده المعتضد (٤٣٤-٤٦٢هـ/١٠٤٢-١٠٦٩م) قد أمر بإحراق كتبه، وربما يقوى هذا الفرض إذا علمنا أن الراضى كان شغوفاً بأنساب العرب (١)، وكان الراضى من أهل العلم والأدب قرأ مصنفات القاضى أبى بكر بن الطيب، وأقبل على المذهب الظاهرى ومهر فى الأصول، وكان على معرفة بالشرعيات والطبيعات ذاكرة للعرب وأنسابها حافظا للغاتها وآدابها، وهو شاعر بنى عباد بعد أبيه، وكان له سبعة من البنين، قتل صبوا فى رمضان سنة ٤٨٤هـ بعد أن نزل من زنده عقب خلع والده المعتمد (٢).
- ٣- يوسف بن عبد المؤمن بت على كان واليا على إشبيلية سبق ذكره فى الخلفاء .
- ٤- يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن سبق ذكره فى الخلفاء .
- ٥- إبراهيم بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن بن على الكومى (ت ٦١٧هـ) نشأ ظاهريا وتعلم المذهب وولى الوزارة لأخيه الناصر وظل فى الوزارة حتى عام ٦٠٥هـ/١٢٠٨م ثم ولاءه الناصر على إشبيلية وكان المراكشى صاحب المعجب صاحباً له وصديقا. قال عنه المراكشى "لم أر فى العلماء بعلم الأثر المتفرغين المتفرغين لذلك أنقل منه للأثر (٣).

(١) ابن الأبار، الحلة السيرة، ٣٤/٢، ٧٠، ٧١.

(٢) أبو معاوية البيروتى، طبقات أهل الظاهر، ص ٩٥.

(٣) أنظر: المراكشى، المعجب، ص ٢٥٥، ٢٥٦.

٦- أبو محمد عبد العزيز بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي. من أصغر أبناء يوسف بن عبد المؤمن أمه حرة اسمها مريم صنهاجية من قلعة بني حماد، وكانت سببت هي وأمها ملكة فيمن سبوا من أهل القلعة فأعتقهما عبدالمؤمن، وزوج مريم لابنه يوسف فولدت له ثمانية من الولد أربعة ذكور وهم إبراهيم وموسى وإدريس وعبدالعزيز، وأربع بنات هن زينب ورقية وعائشة وعليه .

ولى عبدالعزيز على مالقة وأعمالها فى عهد محمد الناصر سنة ٥٩٨هـ، ثم ولى فى عام ٦٠٣هـ أمر قبيلة هسكورة وهى ولاية كبيرة، ثم ولى على سجلماسة حتى مات الناصر وصدرنا من خلافة ابنه المستنصر.

وقد ولاه يوسف المستنصر بن محمد الناصر مدينة إشبيلية حين عزل عنها أخاه أبا العلاء إدريس وولاه إفريقية.

وكان عبد العزيز هذا فى أيام إمارته صواما قواما مجتهداً فى دينه، شديد البصيرة فى أمره، قوى العزيمة، شديد الشكيمة، لا تأخذه فى الله لومة لائم، أرطب الناس لساناً بذكر الله وأتلاهم لكتابه، مع دماثة خلق ولين جانب وخفض جناح لأصحابه، مع سخاء نفس وطلاقة وجه^(١).

ذكر المراكشى أنه شهدته بنفسه فى ولايته ورغم أعباء الرعية فإنه لم يخل بشيء من أوراده ولا ترك وظيفة من الوظائف التى رتبها لنفسه من أخذ العلم وقراءة القرآن والأذكار التى رتبها فى الليل والنهار^(٢).

صفته: أبيض تعلوه صفرة جميل الوجه جدا على قول المراكشى معتدل القامة متناسب الأعضاء.

أولاده: محمد وهو أكبرهم، عبدالرحمن، وأحمد، وبنات^(٣).

٧- أبو حفص عمر المرتضى ابن إسحاق بن يوسف بن عبد المؤمن ٦٤٦هـ ٦٦٥هـ. سبق ذكره فى الخلفاء.

٨- العلامة صديق حسن خان القنوجي الظاهري (ت ١٣٥٧هـ) الفقيه والمفسر حاكم بهوبال بالهند سيذكر فى الفقهاء .

(١) المراكشى، المعجب، ص ٢٧٢؛ النويرى، نهاية الأرب، ٣٤٥/٢٤.

(٢) أنظر: المعجب، ص ٢٧٢.

(٣) نفس المصدر والصفحة .

الأمراء من أهل الظاهر

١- أبو العباس أحمد بن يوسف بن أيوب بن شاذي (ت ٦٣٤هـ) ولد بحلب سنة ٥٧٧هـ كان يلقب بالملك المحسن ابن السلطان صلاح الدين الأيوبي نشأ نشوءاً صالحاً وحفظ القرآن وقرأ الأدب وطلب الحديث وأحضر الشيوخ من البلدان وسمع الكثير بعد الستمئة وكتب بخطه واستنسخ وحصل الكتب الكثيرة والأصول وجاور بمكة سنة كاملة أكثر فيها العبادة وقراءة الحديث على مشايخ الحرم ثم عاد إلى الشام وسكن بحلب عند أخيه الظاهر منقطعاً في بيته مشتغلاً بنفسه يحافظ على صلاة الجماعة في الجامع وحج بعد العشرين والستمئة ودخل بغداد وسمع جماعة وحدث بها.

قال محب الدين ابن النجار كتبت عنه بحلب وكان صدوقاً فاضلاً متديناً كثير العبادة مليح الأخلاق ووقف كتبه كلها وجعلها بمدرسة أخيه (١).

ظاهريته: قال ابن العديم "كان يميل إلى مذهب أهل الظاهر أولاً..." (٢).

وفاته: توفي بحلب سنة أربع وثلاثين وستمئة وحمل إلى صفيين ودفن بتربة عمار بن ياسر.

٢- الأمير ناصر الدين بن جنكلي (٣) بن البابا (ت ٧٤١هـ) أحد أمراء الدولة الناصرية بالقاهرة كان جمال مواكب الديار المصرية وجهاً وصباحةً وقدراً وشكلاً محبباً تام الخلق حسن الخلق لم يكن في زمانه أحسن وجهاً منه اشتغل في غالب العلوم ولم يزل مواظباً على سماع الحديث واختلط بالشيخ فتح الدين ابن سيد الناس كثيراً حفيد أبي بكر بن سيد الناس اليعمري الإشبيلي الحافظ المحدث أحد أعلام الظاهرية وعنه أخذ معرفة الناس وأيامهم وطبقاتهم وأسماء الرجال. وكان الأمير ناصر الدين آية في معرفة فقه

(١) الصفدي، الوافي بالوفيات، ١٨٤/٨.

(٢) أنظر: بغية الطلب، ٢٢٥٩/٣.

(٣) جنكلي: نوع من الخشب اسود اللون أو رصاصي غامق، يستخدم في بناء السفن. قال الحنفي: (والنسبة فيه إلى (Jungle) بالانكليزية أي غابة. وربما كانت من (جنكل) الفارسية أي غابة، وترد اللفظة عند أهل البصرة والعراق والكويت في قولهم: (فلان جنكلي) أي لا يفهم شيئاً. فكان من عاش في الغابة كان ساذجاً بعيداً عن فهم أوضاع الناس في المدن.

السلف ونقل مذهبهم وأقوال الصحابة والتابعين مع مشاركة جيدة في العربية والطب والموسيقى. وكان في أوله يتمذهب بمذهب الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه.

قلت: وهذا الأمير شخصية محيرة في التاريخ. بل عائلته كلها وهي عائلة آل جنكلي. فهم كانوا أمراء في عصر المماليك، وكان لهم دور كبير في تولية سلطان، وعزله، فضلاً عن جهودهم الكبيرة في الحروب، وفي قيام الثورات وخلافه.

وبشان الجنكلي الأمير فقد ذكر المقرئزي عن شيخه شمس الدين النحوي محمد بن محمد الغماري عن أبي حيان - الغرناطي الظاهري - قال ألزمني الأمير ناصر الدين محمد بن جنكلي بن الباب المسير معه لزيارة أحمد البدوي بناحية طنطندا - طنطا الحالية وهي عاصمة محافظة الغربية بمصر - فوافيناه يوم الجمعة وإذا هو رجل طوال عليه ثوب جوخ عال وعمامة صوف رفيع والناس يأتونه أفواجاً فمنهم من يقول يا سيدي خاطرك مع غنمي وآخر يقول مع بقري وآخر مع زرعي إلى أن حان وقت الصلاة فنزلنا معه إلى الجامع وجلسنا لانتظار إقامة الجمعة فلما فرغ الخطيب وأقيمت الصلاة وضع الشيخ رأسه في طوقه بعد ما قام قائماً وكشف عن عورته بحضرة الناس وبال على ثيابه وحصر المسجد واستمر ورأسه في طوق ثوبه وهو جالس إلى أن انقضت الصلاة ولم يصل ((١)).

وقد ذكر هذه القصة نقلاً عن المقرئزي العلامة شمس الدين السخاوي تلميذ ابن حجر العسقلاني في ترجمة محمد بن محمد بن علي بن عبد الرزاق الشمس أبي عبد الله الغماري شيخ العلامة المقرئزي (٢).

قلت: وهذه القصة لا تصح تاريخياً من وجوه:

الأول: أن الأمير ناصر الدين ابن جنكلي ولد سنة ٦٧٥ أي في السنة التي مات فيها البدوي.

(١) أنظر: درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة، ٣ / ٧٧.

(٢) أنظر: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ٩ / ١٥٠.

ثانياً: أن الأمير الجنكلى لم يولد في مصر بل دخل مصر سنة ٧٠٢ أو ٧٠٣ أي بعد وفاة البدوي بخمس وعشرين سنة تقريباً.

ثالثاً: أننا لو فرضنا جدلاً أن الأمير الجنكلى هو الجد وليس الحفيد لتستقيم القصة مع الواقع التاريخي فسيبقى الإشكال قائماً في أن أبا حيان الغرناطى لم يدخل مصر إلا سنة ٦٧٨ هـ أو سنة ٦٧٩ هـ أي بعد وفاة أحمد البدوي ببضع سنين. ومن ثم لا أدري هل هذا السياق هو من تدوين المقرئى نفسه؟! أم أن تحريفاً وقع في الرواية؟ أم ان يد النساخ تطرقت لاصل الكتاب وأدرجت هذه القصة. فالله أعلم بالصواب.

وقد ذكر العلامة المقرئى "الجنكلى أيضاً" في كتابه العظيم السلوك لمعرفة دول الملوك في أحداث سنة ٧٣٢ هـ بقوله "وفيه - أى يوم الاثنين ٥ صفر - أنعم - أى السلطان - على الأمير ناصر الدين محمد بن الأمير جنكلى بن البابا يامرة طبلخاناه^(١) وأنعم بعشرة على أخيه.

كما ذكره المؤرخ الشهير ابن تغرى بردى في كتابه النجوم الزاهرة في أحداث سنة ٧٤١ هـ وقال عنه "توفي الأمير ناصر الدين محمد بن الأمير بدر الدين جنكلى بن البابا في يوم الرابع والعشرين من رجب، وكان من أعيان الأمراء وكان فقيهاً أدبياً شاعراً"
وقال الصفدي: وأنشدني من لفظه لنفسه غير مرة:

بك استجار الحنبلي محمد بن جنكلى

فاغفر له ذنوبه فأنت ذو الفضل

(١) الطبلخانة هي موسيقى الجيش، أو الفرقة الموسيقية السلطانية، وهي لفظ فارسي، وأمير الطبلخانة هو الأمير الذى تدق الطبول والأبواق على أبوابه. وهو أمير تحت أمرته غالباً أربعين فارس. أمير من الطبقة الثانية. منهم يكون أرباب الوظائف وكبار الولاة. أنظر: محمد أحمد دهمان، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكى، دار الفكر، بيروت - دمشق، ص ١٠٦.

ظاهريته: قال الصفدي وفي آخر الأمر مال إلى الظاهر ورأى رأي ابن حزم وكان كثير المطالعة لكلامه^(١).

٣- الأمير شرف الدين موسى بن الفافا (ت ٧٨٨هـ). استدار^(٢) الأمير أيتمش البجاسي، كانت لديه فضيلة وتروة وحشم .

ظاهريته: قال ابن حجر: كان يتعصب للظاهرية ويميل إلى مذهبهم^(٣)، وقال المقريزي: كان من رعوس الظاهرية^(٤)، وقال ابن تغري بردي: كان من رعوس الظاهرية مذهباً^(٥).

وفاته: مات في ٩ شوال سنة ٧٨٨هـ.

(١) أنظر: الوابي بالوفيات، ترجمة ٧٥٥، ٢ / ٣١٠، ٣١١.

(٢) الأستدار بضم الهمزة لقب مملكي يطلق على القائم على الشؤون الخاصة للسلطان، وبكسر الهمزة لقب يطلق على من يتولى قبض المال السلطاني وصرفه، وتمثيل أوامر السلطان فيه. أنظر: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ص ١٤، ١٥.

(٣) ابن حجر، إنباء الغمر، ١ / ٣٣٠.

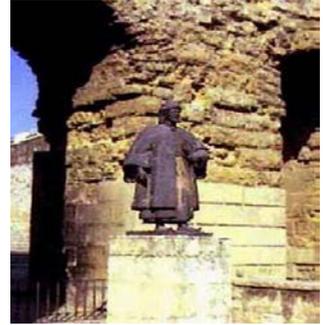
(٤) أنظر: السلوك، وفيات سنة ٧٨٨هـ.

(٥) أنظر: النجوم الزاهرة، ١١ / ٢٥٤.

الوزراء من أهل الظاهر

١- أبو جعفر أحمد بن عباس (ت ٤٢٧هـ/١٠٣٥م) الوزير، كان قد بلغ الغاية القصوى في الدفاع عن صاحبه ابن حزم .

الوزير ابن حزم الظاهري (ت ٤٥٦هـ)



على بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب أبو محمد الشهير بابن حزم الظاهري

الأندلسي (١) :

مولده ونشأته :

ولد بربض الزاوية من قرية لبلة niebla الواقعة في بلدة منت ليشم بغرب الأندلس

صباح يوم الخميس نهاية شهر رمضان سنة ٣٨٤هـ / ٧ نوفمبر ٩٩٤م (٢)، وقد عاش حياته

(١) عنه بالتفصيل أنظر الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٨ / ٢١٣-١٨٤، وانظر كتابنا ابن حزم الظاهري وأثره في المجتمع الأندلسي، وهو أطروحتنا للماجستير .

(٢) صاعد بن أحمد الأندلسي، طبقات الأمم، تحقيق حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٣م، ص ٩٨، ٩٩، وقد ذهب أنخل جونثال بالثيا وغيره إلى أن مولد ابن حزم سنة ٣٨٣هـ / ٩٩٣م أنظر: تاريخ الفكر الأندلسي، ص ٢١٣، وهذا خطأ من وجهين :- الأول أن ابن حزم الإمام النسابة والمؤرخ النقادة كتب تاريخ مخلوده لتلميذه صاعد بخطه، وهو ما عرضناه بأعلاه، ولا يمكن أن نترك قوله إلى سواه وهو الأعلام بتاريخ مولده، الثاني :- أن كل من ترجموا له أجمعوا أن مولده سنة ٣٨٤هـ / ٩٩٤م. أنظر مثلا محمد بن أبي نصر الحميدي، جذوة المقتبس، تحقيق إبراهيم الإيباري، دار الكتاب المصري واللبناني، القاهرة - بيروت، ط ٢، ١٤١٠هـ / ١٩٨٩م، ٢ / ٤٨٩؛ ابن بشكوال، الصلة، ٢ / ٦٠٥؛ محمد بن عثمان الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط ومحمد نعيم العرقسوسى، مؤسسة الرسالة، ط ١١، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م، ١٨ / ١٩٠؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ١٢ / ٥٦٩؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، دار إحياء التراث العربي، (د.ت)، ٣ / ٢٩٩؛ T.1, Asin placios, Aben hazam

الأولى فى صحبة أخيه أبى بكر الذى كان يكبره بخمس سنوات فى قصر أبيه أحد وزراء المنصور بن أبى عامر، وابنه المظفر من بعده، وكانت تربيته فى تلك الفترة على أيدي جوارى القصر الذى كان مقاما فى الشارع الآخذ من النهر الصغير على الدرب المتصل بقصر الزاهرة، والملاصق لدار المنصور بن أبى عامر (١)، ومن ذلك نعرف مدى المكانة التى كان يحظى بها والد ابن حزم لدى المنصور بن أبى عامر حتى جاوره فى السكن.

أسرته :- كان ابن حزم قد خرج من وسط أسرة عرفت الإسلام منذ جده الأعلى يزيد بن أبى سفيان، وكان خلف أول من دخل الأندلس من أسرته فى صحبة الأمير عبد الرحمن الداخل، وكان مقامه فى لبلة (٢)، ومن ذلك نعرف أن مقر هذه الاسرة كانت الشام بعد مشاركة يزيد أصل هذه الاسرة فى الفتوحات الإسلامية بها، ولما خرج عبد الرحمن إلى الأندلس خرج معه خلف بن معدان .

وقد بدأت هذه الأسرة تحتل مكانها الرفيع كواحدة من كرائم العائلات بالاندلس فى عهد الحكم المستنصر، ونجحت فى امتلاك قرية بأسرها هى منت ليشم (٣)، ولا يعلم هل خلف بن معدان هو الذى تملكها أم أبناؤه من بعده، ولعل ذلك يحيلنا إلى مدى ذكاء هذه الاسرة الذى انعكس بدوره على أحمد بن سعيد وولده ابن حزم من بعده .

=P.38 . ، ولبلبة قرية فى غرب الأندلس قرب المحيط الأطلنطى، ومنت ليشم تعرف الآن باسم مونتيجار Montejar، وتقع على بعد سبعة كيلومترات شمال مدينة ولبة الحالية. أنظر محمد بن على بن الشباط، وصف الأندلس، تحقيق أحمد مختار العبادى، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، ١٩٦٧م، ١٩٦٨م، مجلد ١٤ ص ١١٧ .

(١) ابن حزم، طوق الحمامة، ص ١٢٢، ١١٢٣، ١٦٦. وقد توفى أخيه أبو بكر فى الطاعون الذى اجتاح قرطبة فى عام ٤٠١هـ / ١٠١٠م أنظر، نفس المصدر، ص ٢٥٧. وقد أقيم مكان قصر ابن حزم الآن كنيسة سان لورينزو بحى سان لورينزو. والزهاء مدينة أقامها المنصور سنة ٣٦٨هـ / ٩٧٨م بالقرب من قرطبة، وجعلها مقرا للحكم والإدارة لمزيد من التفاصيل أنظر محمد بن عبد الله الحميرى، صفة جزيرة الأندلس، تحقيق ليفى بروفنسال، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٣٧م، ص ٨٠ - ٨٢.

(٢) الذهبى، مصدر سابق، ١٨/١٨٥؛ محمد أبوزهرة، ابن حزم حياته وعصره، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م، ص ٢٧؛ سهير فضل الله، سيرة ابن حزم، ص ١٧.

(٣) ياقوت الحموى، معجم الأدباء، تحقيق أحمد فريد الرفاعى، دار المأمون ومكتبة القراء والثقافة الأدبية، (د.ت)، ٢٤٠/١٢؛ وانظر عبدالحليم عويس، ابن حزم، ص ٥٨ .

ويعتبر أحمد بن سعيد أحد مشاهير هذه الأسرة ومؤسس ملكها حتى قال عنه ابن حيان "الوزير المعقل في زمانه الراجح في ميزانه ... هو الذى بنى بيت نفسه في آخر الدهر برأس رابية وعمده بالخلال الفاضلة من الرجاحة والمعرفة والدهاء والرجولة" (١)، وقد كان لهذه الصفات إلى جانب اتجاهه للحزب الاموى وعمق ولائه لأمرائه وخلفائه دور هام فى استوزار المنصور له سنة ٣٨١هـ/٩٩١م، وبلغ من شدة ثقته به انه كان يستخلفه على المملكة أوقات مغيبه عنها، وصير خاتمه فى يده (٢)، وكان لأحمد بن سعيد مجلس يحضره العلماء والشعراء أمثال أبى عمر بن حبرون وخلف بن رضا (٣)، وكان له باع طويل فى الشعر ومشاركة قوية فى البلاغة والادب حتى إنه ليتعجب ممن يلحن فى مخاطبة أو يجيء بلفظة قلقة فى مكاتبة (٤)، وقد كان لهذا أثره على ولده ابن حزم فى تمكنه من اللغة والشعر واهتمامه بهما، حتى أن بلاغته كان لها من التأثير أنها تأخذ بمجامع القلوب وتنفذ إلى أعماق النفوس فى أسلوب سهل ممتنع رقيق يخلو من الاستطرادات ويتسم بطول النفس وجمال النكته وخفة الروح، كما كان أحمد بن سعيد من المشاركين فى حركة الإفتاء بالأندلس من خلال مجالسه العلمية والمنظرات التى كانت تدور فى قصره حتى قال عنه ابن العماد "كان مفتيا لغويا متبحرا فى علم اللسان" (٥)، وهذه العبارة توضح الاثر الذى تركه أحمد بن سعيد على ولده ابن حزم الذى اعتمد فى فتواه وتفسيره لنصوص القرآن والسنة على ظاهر اللغة (٦)، ومن ثم يكون والده أحد الأسباب التى دفعته إلى المنهج الظاهرى فى الفتيا والتفسير بالرغم من أنه كان مالكي المذهب .

(١) نقلا عن ابن بسام، الذخيرة، قسم ١ مجلد ١ ص ١٧٠ .

(٢) Asin Placios , Aben hazam de cordoba , T.1 , P.35-36 ، وانظر إحسان عباس، تاريخ

الأدب الأندلسى، عصر سيادة قرطبة، دار الثقافة، بيروت، ط ١، ١٩٦٠م ن ص ٢٤٧، ٢٤٨ .

(٣) الضبي، بغية المتمس، ص ٢٦٣؛ إحسان عباس، المرجع السابق، ص ٢٤٨ .

(٤) الحميدى، جذوة المقتبس، ١/١٩٩؛ المقرئ، نفع الطيب، ٦/٧٢ .

(٥) أنظر: شذرات الذهب، ٣/١٦٣ .

(٦) عن استخدام ابن حزم للغة كأساس فى الفتوى والتفسير أنظر، الفصل، ٢/٥٠٧، ٤؛ رسائل ابن حزم،

٣/١٦٣ .

ظل أحمد بن سعيد وزيرا بعد المنصور لابنه المظفر، وأخيه عبد الرحمن شنجول إلى أن أعفى من منصبه في عهد محمد المهدي، وترك منية المغيرة حتى كبار موظفي البلاط وعاد لسكنه القديم في بلاط مغيث بعيدا عن صخب السياسة، وبعد اغتيال المهدي في ذي الحجة ٤٠٠هـ/١٠١٠م ومبايعة هشام المؤيد ثانية بعد الزعم بموته. اصطدم أحمد بن سعيد بالقائد الصقلي واضح محسوب الخلافة الذي لاحقه وسجنه وصادر أمواله، وطلت الفتن والنكبات تتوالى على بني حزم حتى وفاة أحمد بن سعيد في ذي القعدة ٤٠٢هـ/١٠١٢م (١)، وقد كان لهذه النكبات أثرها السيء على ابن حزم إذ أنها زادت من حزنه، وكانت أحد أسباب حدته التي تظهر جلية في مصنفاته .

أما عن أم ابن حزم فقد صممت عنها المصادر بأسرها. بل إن ابن حزم نفسه لم يطالعنا على أدنى إشارة تجاهها في أي من كتبه التي بين أيدينا، ومن ثم فالخلاف بين الباحثين حول أصلها لم يحسم بعد (٢).

ولعل الحديث عن العلاقة بين بعض اقاربه ابن حزم وأثرها على نفسيته وفكره ترتبط بهذا المقام، ونخص بالذكر أبي المغيرة عبدالوهاب ابن عمه الذي كان يتبادل مع ابن حزم رسائل المودة في حداثة سنهما، ثم جرت بينهما جفوة سببها كتاب وصل أبوالمغيرة عن ابن حزم وصفه الأول بأنه مبني على الظلم والبهتان والمكابرة (٣) مما كان لهذا أثره على ابن حزم في اعتزازه بنفسه وشدة حدته إذ وجد أن أحد أقربائه الذي كان يتودد إليه في الصغر، انقلب عليه هو الآخر، وانضم إلى خصومه ومعارضييه، ومن ثم فقد كل نصير يمكن أن يعتمد عليه سوى ذاته الانفرادية التي اعتز بها .

ومن المصنف الذي صنعه ابن حزم عن أسرته والذي يدعى "تواريخ أعمامه وأبيه وأخواته وبنيه وبناته مواليدهم وتاريخ من مات منهم في حياته" يتضح أن أبناءه كانوا جمعا من

(١) ابن حزم، طوق الحمامة، ص ٢٤٦؛ وأنظر الطاهر مكي، دراسات عن ابن حزم، ص ٦٩، ٧٠.

(٢) أنظر: عبدالكريم خليفة، ابن حزم الأندلسي، دار العربية ومكتبة الأقصى، بيروت - عمان، ص ١٥، ١٤؛ عبداللطيف شرارة، ابن حزم رائد الفكر العلمي، منشورات المكتب التجاري، بيروت، (د.ت)، ص ٣٦، ٣٧؛ سهير فضل الله، سيرة ابن حزم، ص ٢١.

(٣) ابن بسام، الذخيرة، قسم ١ مجلد ١ ص ١٣٧.

البنين والبنات، ولكن لا نعرف عن بناته شيئا. لفقدان هذا المصنف، فضلا عن عدم إشارة المصادر إليهن، ولو قدر لنا العثور علي هذا المصنف. لكان مجالا خصبا في التعرف على أزواجهن وأسرتهن، وأثر هذه المصاهرة على فكر أبيهم وتراثه، هل دافعوا عنه وأذاعوا مصنفاته؟ أم هاجموه وانتقدوا فكره؟ مثلهم في ذلك مثل خصومه .

أما عن أبنائه الذكور فنعرف منهم أربعة وهم أبورافع الفضل، وأبواسامة يعقوب، وأبوسليمان المصعب، وسعيد وسنفصل القول عن كل واحد منهم في كتابنا هذا فقد كانوا كلهم ظاهري المذهب .

كان ابن حزم ذو مكانة اجتماعية مرموقة منذ صغره بحكم موقع أبيه كوزير للمنصور ابن أبي عامر، وقد أفاد ابن حزم من ذلك حيث يقص علينا أنه دخل على الحاجب المظفر بن المنصور بن أبي عامر وهو في الثانية عشر من عمره أي سنة ٣٩٦هـ/١٠٠٥م (١)، ثم يحدثنا بعد ذلك عن دخوله على عدد من خلفاء وأمراء بني أمية وجلوسه معهم مرارا منهم هشام المؤيد، ومحمد المهدي، وعبدالرحمن المرتضى (٢)، وقد ساعده وضعه الاجتماعي على الدخول لمكتبة قصر الخلافة والإفادة منها مما كان له أثره في تكوينه العلمي والفكري، خاصة وأنها كانت تحتوي على العديد من الكتب الفريدة التي لم يكن لها وجود في الأندلس إلا فيها (٣)، وبلغت الوجاهة الاجتماعية بابن حزم إلى الحد الذي أصبح فيه مستشارا لعبدالرحمن المرتضى، ثم وزيرا لعبدالرحمن المستظهر (٤١٤/١٠٢٣) (٤). كما وزر لهشام المعتد بالله (٥) ويحدثنا ابن حزم في عام (٤٢٢هـ/١٠٣٠م) - وهو العام الذي سقطت فيه

(١) نقلا عن الحميدى، جذوة المقتبس، ١/٣٧٥ .

(٢) ابن حزم، طوق الحمامة، تحقيق الظاهر مكّي، دار الهلال، القاهرة، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ص ٢٥١.

(٣) ابن الآبار، الحلة، ١/٢٠٣.

(٤) ياقوت، معجم الأدباء، تحقيق أحمد فريد رفاعي، دار المأمون ومكتبة القراء والثقافة الأدبية، ٢٣٧/١٢، دوزي، المسلمون في الأندلس، ٢/٢١٣-٢١٥، وانظر الظاهر مكّي، دراسات عن ابن حزم، دار المعارف، القاهرة، ط ٤، ١٩٩٣م، ص ١٠٩.

(٥) ياقوت، معجم الأدباء، ١٢/٢٣٧، محمد أبوزهرة، ابن حزم حياته وعصره، ص ٤٧.

الخلافة الأموية بالأندلس - بأنه كان متوليا منصب القضاء (١)، وفي عهد ملوك الطوائف كان ابن حزم على صلة بأبي الأحوص معن بن محمد التجيبى (٤٣٣ هـ - ٤٤٣ م / ١٠٤١م - ١٠٥١م) صاحب المريبة والذي طلب من ابن حزم أن يصنف له رسالة في (الوعد والوعيد وبيان الحق في ذلك من السنه والقرآن) فصنفها له (٢)، وهو ما يشير إلى وضع ابن حزم الاجتماعي المرموق في تلك الفترة من حياته إذ كان على اتصال بأحد حكام الأندلس في تلك الفترة. كما أنه كان أحد المستشارين والوزراء الذين اعتمد عليهم أحمد بن رشيق صاحب جزيرة ميورقة في الحكم (٣)، وهكذا يتضح أن الوضع الطبقي لابن حزم كان وضعاً أرستقراطياً شأنه شأن الطبقة الحاكمة .

وبخصوص وضعه الاقتصادي فليس أدل على الرخاء والنعيم الذي كان يتقلب فيهما ما أورده في كتابه الطوق من أنه أيام والده الوزير كان يمتلك مع أسرته دور في الجانب الشرقى من قرطبة في ربض الزاهرة، ودور في الجانب الغربى من قرطبة ببلاط مغيث، وكان يتنقل بين هذه وتلك حسب تنقلات والده الوزير، وكانت هذه الدور تحتوى على المحاريب المنمقة والمقاصير المزينة، والجوارى والخدم، والحدائق الغناء (٤) الأمر الذى يوضح بجلاء عظم الوضع الاقتصادي الذى كان يحيا فيه ان حزم. كما يتضح الرخاء الاقتصادي لابن حزم أيضا من خلال امتلاكه لقرية بأكملها بما عليها من أراض ودور هى قرية منت ليشم والتي كانت ملكا لأسرته من قبله (٥)، وهى التى رحل إليها في آخر أيامه وبها توفى سنة ١٠٦٣/٤٥٦م.

(١) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ٦٥، ٦٥.

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٨/١٩٦.

(٣) ابن الأبار، الحلة السيرة، ٢/١٢٨، عبد الباقي السيد، ابن حزم، ص ٧٦، ٧٨.

(٤) ابن حزم، طوق الحمامة، ص ١١١، ١٢٨.

(٥) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٣/٣٣٠، ياقوت، معجم الأدباء، ١٢/٢٤٠. خرج ابن حزم من وسط أسرة عرفت الإسلام منذ جده الأعلى يزيد بن أبي سفيان، وكان خلف أول من دخل الأندلس من أسرته فى صحبة الأمير عبد الرحمن الداخل، وكان مقامه فى لبلة، وقد بدأت هذه الأسرة تحتل مكانها الرفيع كواحدة من كرائم العائلات بالاندلس فى عهد الحكم المستنصر، ونجحت فى امتلاك قرية بأسرها هى منت ليشم. أنظر: عبد الباقي السيد، ابن حزم، ص ٤٦.

مشايخ ابن حزم

مشايخه في الفقه والحديث والتاريخ :

- أحمد بن محمد بن سعيد بن الجسور القرطبي (٣٢٠هـ-٤٠١هـ/٩٣٢م-١٠١٠م) أول شيخ سمعه ابن حزم قبل الأربعمائة، كان شيخا له في الفقه والحديث والتاريخ روى عنه موطأ مالك والمدونه له أيضا برواية سحنون، ومسند بن أبي شيبه، وفقه أبي عبيد القاسم بن سلام، ومسند عبد بن حميد، وقرأ عليه تاريخ الرسل والملوك لمحمد بن جرير الطبري.
- مسعود بن سليمان بن مفلت الشنتري القرطبي المعروف بأبي الخيار (ت٤٢٦هـ /١٠٣٤م) كان شيخا له في الفقه والحديث وعلومه وعنه أخذ القول بالظاهر والدعوة إلى الاجتهاد ونبذ التقليد .
- أبو عبد الله بن عبد الرحمن بن جحاف المعافري قاضي بلنسية (ت٤١٧هـ /١٠٢٦م) كان شيخا له في الفقه .
- البزار محمد بن عبد الله بن هانيء اللخمي (ت٤١٠هـ /١٠١٩م) كان شيخا له في الفقه والحديث والتاريخ .
- أبو سعيد مولى الحاجب جعفر (ت٤٢٥هـ /١٠٣٣م) كان شيخا له في اللغة والحديث روى عنه سنن النسائي .
- القاضي أبو بكر حمام بن أحمد الأطروش القرطبي (٣٥٧هـ-٤٢١هـ /٩٦٧م-١٠٣٠م) كان شيخا له في اللغة وآدابها والحديث وعلومه روى عنه صحيح البخاري ومصنف ابن أيمن وابن أبي شيبه ومصنف بقي بن مخلد ومسند عبدالرازق .
- أحمد بن قاسم بن محمد بن أصبغ القرطبي (ت٤٢٩هـ /١٠٣٧م) كان شيخا له في الحديث روى عنه مصنف جده قاسم بن أصبغ .
- أبو محمد عبد الله بن يوسف بن نامي الرهواني القرطبي (٣٤٨هـ-٤٣٥هـ /٩٥٩م-١٠٤٣م) كان شيخا له في الحديث روى عنه صحيح مسلم .

- أبو القاسم سلمة بن سعيد الأنصاري الإستجعي (ت ٤٠٦هـ/١٠١٥م) كان شيخا له في الفقه والحديث ويبدو أنه هو الذي أخذ عنه الفقه الشافعي.
- أبوالمطرف عبد الرحمن بن محمد بن عيسى بن فطيس (٣٤٨هـ-٤٠٢هـ / ١٠٥٠م- ١٠١١م) القاضي الوزير .
- عبد الله بن يحيى بن أحمد بن دحون (ت ٤٣١هـ/١٠٤٠م) كان شيخا له في الفقه وعنه روى موطأ مالك .
- أبو علي الحسين بن سلمون (ت ٤٣١هـ/١٠٣٩م) كان شيخا له في الفقه عن طريق والده أحمد بن سعيد بن حزم، وقد ذكره مستحسنا قولاً قاله له وهو (من كثرت ذنوبه فعليه بكسب الضياع)، وقد عقب ابن حزم على ذلك بقوله (ولعمري لقد قال الحق).
- أبو عبد الله محمد بن سعيد بن جرج القرطبي، أبو الحسين علي الفاسي، محمد بن عبد الأعلى بن هشام القرطبي قاضي مالقة، أبو عمر أحمد بن جبرون، أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن إدريس بن خالد سمعهما في مجلس والده، وهؤلاء لم نعرف لهم تاريخاً لمولدهم ولا لوفاتهم .
- عبد الرحمن بن محمد بن أبي زيد خالد الأزدي العتكي (ت ٤١٠هـ/١٠١٩م) كان شيخا له في التاريخ والحديث وعلم الكلام والجدل، وتأثر به ابن حزم في ذلك وروى عنه صحيح البخاري .
- محمد بن الحسن الرازي الصوفي (توفي بعد عام ٤٥٠هـ/١٠٥٨م) كان شيخا له في الحديث وعلومه روى عنه الحديث مكاتبة بأسانيده .
- عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدي المعروف بابن الفرضي (ت ٤٠٣هـ / ١٠١٢م) كان شيخا له في الفقه والتاريخ والحديث وعلومه روى عنه صحيح مسلم
- أبو بكر يحيى بن عبد الرحمن بن مسعود بن موسى بن وجه الجنة القرطبي (٣٠٤هـ- ٤٠٢هـ/٩١٦م-١٠١١م) كان شيخا له في الحديث روى عنه مسند أحمد بن حنبل وقطعة وكيع بن الجراح .
- أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن خالد بن مسافر بن الحزاز الهمداني الوهراني

- البجاني (ت ٤١١هـ/١٠٢٠م) كان شيخا له في الحديث روى عنه صحيح البخارى عام ٤٠١هـ/١٠١٠م
- أبو محمد عبد الله بن ربيع التيمي القرطبي المعروف بابن بنوش (٣٣٠هـ- ٤١٤هـ/٩٤١م-١٠٢٣م) كان شيخا له في الحديث واللغة روى عنه صحيح مسلم والبخارى وقطعة أفلح بن حميد ورقعة يزيد بن حميد وقطعة وكيع بن الجراح وابن راهوية والحجاج بن المنهال وسنن أبوداود ومصنف حماد بن محمد بن عبد الله بن هانىء اللخمي (ت ٤١٠هـ/١٠١٩م) كان شيخا له في الفقه والحديث والتاريخ .
- محمد بن سعيد بن نبات (ت ٤٢٩هـ/١٠٣٧م) كان شيخا له في الفقه والحديث روى عنه مصنفات احمد بن حنبل والمجتبى لقاسم بن أصبغ ومصنف قاسم بن أصبغ ومسنند عبدالرازق ومسنند حماد بن سلمة وفقه الزهرى .
- عبد الله بن إبراهيم بن محمد المعروف بالأصيلي (توفى قريبا من ٤٠٠هـ/١٠٠٩م) كان شيخا له في الفقه والحديث .
- أبو الوليد يونس بن عبد الله بن الصفار القرطبي قاضى القضاة (٣٣٨هـ-٤٢٩هـ /٩٤٩م-١٠٢٨م) كان شيخا له في الحديث والفقه روى عنه سنن النسائي ومسنند بن أبى شيبه ومعانى الآثار للطحاوى وغريب الحديث لقاسم بن ثابت السرقسطى وفقه أبعبيد القاسم بن سلام .
- محمد بن إسماعيل بن قورنش العذرى قاضى سرقسطة (ت ٤٥٣هـ /١٠٦١م) كان شيخا له في الحديث روى عنه مستدرك الحاكم .
- أبو عمر يوسف بن عبدالبر النمري (ت ٤٦٣هـ/١٠٧٠م) الصحاب الشيخ روى عنه مصنف أبى جعفر الصيقل ومسنند البزار ومسنند بن أبى شيبه.
- أبو الوليد هشام بن سعيد الخير بن فتحون القيسى الوشقى (ت ٤٣٠هـ /١٠٣٨م) كان شيخا له في الحديث روى عنه سنن أبى داود الطيالسى .
- وكان أحمد بن سعيد والده أستاذا له في الادب والفقه والتاريخ بخاصة إذ كانت له اليد الطولى والتأثير القوى فى تشكيل ثقافة ابنه التاريخية حيث كان يحدثه بالأحداث

- التاريخية المهمة بحكم شخصه ومكانته في الدولة، كما لعب دورا هاما في غرس معالم الزهد والصبر في قلبه من خلال موعظته إياه
- أحمد بن عمر العذري كان شيخا له في التاريخ والحديث وعلومه روى عنه مصنف عبدالرازق والكمال لابن عدى ومسند عبد بن حميد والتاريخ الأوسط للبخارى وموطأ ابن وهب وسنن الدارقطني ومستدرک الحاكم، لم يعرف تاريخ لمولده ولا لوفاته .
- أبوسليمان داود بن يحيى المصرى كان شيخا له في الحديث روى عنه معانى الآثار للطحاوى مكتابة - أبومحمد بن مسرور كان شيخا له في الحديث .
- عبد الله بن محمد بن على الباجى القيروانى كان شيخا له في الحديث روى عنه مصنف عبدالرازق، - البراء بن عبدالمملك الباجى الأندلسى، أبوالمرجى الحسين بن عبد الله بن ذروان المصرى كان شيخا له في الحديث روى عنه مسند أحمد بن حنبل مكتابة.
- أبوسليمان داود بن بابشاد داود بن سليمان كان شيخا له في الحديث روى عنه قطعة الطحاوى مكتابة، وهؤلاء مجهولى المولد والوفاة .
- جعفر مولى أحمد بن حدير المعروف بالبليشى، أبوالعافية مولى محمد بن عباس بن أبى عبدة، إبراهيم بن قاسم الأذربلسى، عبد الله بن محمد بن عبدالمملك بن جهور، وهؤلاء روى من طريقهم روايات حديثية وفقهية ولم يعرف لهم تاريخ مولد ولا وفاة .
- أبوبكر بن أبى الفياض كان شيخا له في التاريخ، عبدالعزيز بن بقى الله كان شيخا له في التاريخ، أبوعبدالله محمد بن عمرو بن مضاء كان شيخا له في الحديث والتاريخ، أبوالمحيا بن مواز بن وافر الأعرابى العقيلى كان شيخا له في التاريخ خاصة الأنساب، وكلهم مجهولو المولد والوفاة .

مشايخه فى الطب والفلسفة :

- أبوالفتوح ثابت بن محمد الجرجانى العدوى (٣٥٠هـ-٤٣١هـ/٩٦١م-١٠٣٩م) كان شيخا له فى الفلسفة والمنطق وعلوم الأوائل من النجوم والحكمة وغيرها .
- أبوعبدالله محمد بن الحسن الكنانى القرطبى (توفى قريبا من ٤٢٦هـ/١٠٣٤م) كان أستاذا له فى الطب والفلسفة والمنطق وعن طريقه برع ابن حزم فى الطب والفلسفة .

مشايخ لم يعرف تخصصهم :

- أبو البركات محمد بن عبد الواحد ولد (سنة ٣٥٧هـ/٩٦٧م) لم يعرف تاريخ وفاته، أبو عمر أحمد بن إسماعيل بن دليم الحضرمي الميورقي (ت ٤٤٠هـ/١٠٤٨م) .
- أحمد بن محمد بن عبد الوارث كان مؤدبا لابن حزم في صغره لم يعرف تاريخ لمولده ولا لوفاته، محمد بن عبد الواحد الزبيري ولد سنة (٣٥٧هـ/٩٦٧م) مجهول الوفاة .
- أبو مروان عبد الملك بن أحمد بن محمد بن محمد بن عبد الملك بن الأصبغ بن الحكم الربضي (ت ٤٣٦هـ/١٠٤٤م) .
- خلف بن عثمان، أبو الزناد سرج بن سراج، أبو عثمان سعيد بن محمد الضراب، أبو مروان عبد الملك بن أحمد المرواني، أحمد بن الليث الأنسري، يحيى بن خلف بن نصر الرعيني، جعفر بن يوسف الكاتب، الفرات بن هبة الله، وكلهم مجهولو المولد والوفاة .

مشايخه في القرآن وعلومه :

- أبو عمر أحمد بن محمد المعافى الطلمنكي (٣٤٠هـ-٤٢٩هـ/٩٥١م-١٠٣٧) كان شيخا له في القرآن وعلومه والحديث وعلومه وأصول الديانات، وتأثر ابن حزم به في الحديث حيث روى عنه مسند البزار ومصنف سعيد بن منصور

مشايخه في الفرق والديانات :

- محمد بن عبيد (مجهول المولد والوفاة)، أبو العاص الحكم بن المنذر بن سعيد البلوطي (ت ٤٢٠هـ/١٠٢٩م) كان شيخا له في الادب والديانات .

مشايخه في اللغة وآدابها :

- عبد العزيز بن محمد بن عبد العزيز، عبد الرحمن بن سلمة الكنانى، أبو عبدة حسان بن مالك، أبو الحسن علي بن محمد بن أبي الحسين صاحب كتاب (التشبيبات من أشعار أهل الأندلس)، وكل هؤلاء مجهولو المولد والوفاة (١)

(١) عن هذا الإحصاء انظر ابن حزم، المحلى، ٥/٨١، ٧٩، ٥٤، ٤٢، ٤١، ٣٢، ٢٥، ٢٣، ١٤، ٨/٤٣٦، ٩/٣١؛ رسائل ابن حزم، ٢/٢٢٣، ١٨٥، ١٠٥، ٩٤، ٣/١٥٥، ٤/٣٩؛ الإحكام في أصول الأحكام، ٢/٤٢٢، ٣٠٦، ١٠٢، ٩٥؛ الأخلاق والسير، ص ٥٤؛ طوق الحمامة، دار الهلال، =

أصحاب ابن حزم

- ١- أبو عمر يوسف بن عبد البر النمري الصديق الشيخ (٣٦٨هـ-٤٦٣هـ / ٩٧٨م-١٠٧٠م)، ذكي ابن حزم بعض مصنفاته مثل الاستذكار، والاستيعاب، وكان أحد فقهاء المالكية المجتهدين في عصره .
- ٢- أحمد بن عبد الملك بن شهيد (٣٨٢هـ-٤٢٦هـ / ٩٩٢م-١٠٣٤م) صاحب رسالة التوابع والزوابع.
- ٣- أحمد بن محمد الخولاني الشاعر كان حيا في حدود سنة (٤٣٠هـ / ١٠٣٨م) .
- ٤- أبو أحمد عبد الرحمن بن خلف المعافري الطليطلي المعروف بابن الحوات (توفي قريبا من ٤٥٠هـ / ١٠٥٨م) كان فقيها محدثا شاعرا أديبا مناظرا بالحجة، وكان من اشد المعجبين بابن حزم.
- ٥- أبو شاكر عبد الواحد بن محمد بن موهب القبري (ت ٤٥٦هـ / ١٠٦٤م) كان متوليا للأحكام، وكان فقيها محدثا أديبا شاعرا خطيبا .
- ٦- مصعب بن عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الازدي توفي بعد (سنة ٤٤٠هـ / ١٠٤٨م). ٧- أبو بكر هشام بن محمد أخو عبد الرحمن المرتضى وهو الذي تولى

=ص٣٣٢، ٣١٣، ٣١٢، ٢٧١، ٢٦٦، ٢٣٣، ٢٣١، ٢٣٨، ١٥٨؛ طوق الحمامة، دار ابن خلدون، ص١٦٥، ١٦٤، ١٥٥؛ حجة الوداع، ص٦١؛ الفصل، ١/٢، ٣٥٩/٣٨٩؛ الأصول والفرع، ص٤٠٤، ٤٠١، ١٩٤؛ جهرة أنساب العرب، ص٢٨٧، ١٩١؛ وانظر الحميدى، جذوة المقتبس، ١/١٢١، ١٢٠، ١٧٣، ١٧٢، ١٧٢، ٤٠١، ٤٠٠، ٣٢٤، ٢٩٩، ٢٤٣، ١٨١، ٥٩٩/١٥٥، ٥٥٨، ٤٥٥؛ الضبي، بغية الملتبس، ص٢٦٦، ٢٦٢، ١٥٥، ١٥٤، ٨٠، ٦٠، ٢٧٠، ٢٦٧، ٢٥٠، ٣٤١، ٣٤٠، ٣٣٤؛ ابن بشير كوال، الصلوة، ١/١٩٩٢١٠، ١١٥، ١٦٧، ٧٣٦/٢، ٦٨٢، ٥٣٩، ٤٧٧، ٤٠١، ٩٣٦/٣، ٨٦٩، ٨٦٣، ٧٩٠؛ ابن سعيد، المغرب، ١/١٥٩؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ١١/٤٩، ٤٢٨، ٣٧٠، ٣٦٦، ٣٦٦، ٣٥٩، ٣٣٤، ٢٩٠، ٢٦٢، ٢٦١، ٢٥٧، ٢٣٥، ٢٠٣، ١٥٩، ٦٠، ٥٩، ٥٥، ٤٢٩؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ١/٤٦٣-٤٦٦؛ المقرئ، نفع الطيب، ٦/٧٢؛ بالنشأ، تاريخ الفكر الأندلسي، ص٢١٥؛ إحسان عباس، عصر سيادة قرطبة، ص٢٤٨؛ عبدالكريم خليفة، ابن حزم، ص٩٦، ٩٧؛ ليث سعود، ابن عبد البر، ص١٨٨؛ سالم يفوت، ابن حزم والفكر الفلسفي، ص٤٥-

- الخلافة (سنة ٤١٨هـ/١٠٢٧م) وتلقب بالمعتمد وخلع منها سنة ٤٢٢هـ/١٠٣٠م .
- ٨- عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر (ت ٤١٤هـ/١٠٢٣م) وهو الذى تولى الخلافة وتلقب بالمستظهر واتخذ ابن حزم وزيرا له .
- ٩- أبوالمطرف عبد الرحمن بن أحمد بن بشير (ت ٤٢٢هـ/١٠٣٠م) قاضى الجامعة بقرطبة، تداولت الرسائل بينه وبين ابن حزم وهو الذى خاطبه الأخير بقصيدته البائية .
- ١٠- أبو عبد الله محمد بن على بن عبد الرؤوف (ت ٤٢٤هـ/١٠٣٢م) صاحب أحكام المظالم كان من أشد الأصحاب مدافعة عن ابن حزم وفكره ضد المعارضين .
- ١١- أحمد بن رشيق (ت ٤٤٠هـ/١٠٤٨م) صاحب ميورقة، وهو الذى آوى ابن حزم بجزيرته بعد أن طرده فقهاء المالكية من قرطبة وجعله أحد الوزراء المقربين له.
- ١٢- أبو جعفر أحمد بن عباس (ت ٤٢٧هـ/١٠٣٥م) الوزير، كان قد بلغ الغاية القصوى فى الدفاع عن صاحبه ابن حزم .
- ١٣- إبراهيم بن يحيى بن محمد بن الحسين التميمى الطنبى الوزير (ت ٤٠٧هـ/١٠١٦م).
- ١٤- أحمد بن عمر بن أنس الصديق الشيخ .
- ١٥- أحمد بن محمد بن حمد بن بر كان شاعرا أدبيا .
- ١٦- أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن عقبة .
- ١٧- أبوبكر إبراهيم بن يحيى بم محمد .
- ١٨- عبد الملك بن زيادة الله بن على بن الحسين .
- ١٩- الحسن بن بقى كان من مناظرى النصارى .
- ٢٠- أبو عبد الله محمد بن الحسن .
- ٢١- أبوبكر محمد بن إسحاق وهو الذى اعتقل مع ابن حزم على يد خيران صاحب المرية، وهو الذى خاطبه ابن حزم فى صدر رسالته فى فضل الأندلس .
- ٢٢- محمد بن وليد بن مكيسر الكاتب .
- ٢٣- أبوبكر محمد بن بقى الحجرى .
- ٢٤- أبو السرى عمار بن زياد .

- ٢٥- أبوبكر محمد بن قاسم بن محمد القرشي المعروف بالشمبانسي كان شاعرا أديبا من نسل عبد الرحمن الداخل .
- ٢٦- أبوالمظفر عبد الرحمن بن أحمد بن محمود .
- ٢٧- أبوإسحاق إبراهيم بن عيسى الثقفي الشاعر .
- ٢٨- عبيدالله بن عبد الرحمن بن المغيرة بن الناصر أمير المؤمنين .
- ٢٩- أبوبكر عبد الرحمن بن سليمان البلوي السبتي الشاعر، أبوعمار محمد بن عامر، وكل هؤلاء مجهولو المولد والوفاة (١) .

تلاميذ ابن حزم

- ١- محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله بن حميد الأزدي المعروف بالحميدى (ت ٤٩١هـ / ١٠٩٧م)، صاحب كتاب جذوة المقتبس، ظل ظاهري المذهب وعمل على نشره بكل جهده في الأندلس، وفي المشرق بعد أن رحل إليه .
- ٢- أبوبكر محمد بن الوليد الفهري الطرطوشي (ت ٥٢٠هـ / ١٢٦م) صاحب كتاب سراج الملوك
- ٣- محمد بن شريح الرعيني (٣٩٢هـ - ٤٧٦هـ / ١٠٠١م - ١٠٩٣) .
- ٤- شريح بن محمد بن شريح (ت ٥٣٩هـ / ١١٤٤م) له إجازة من ابن حزم .
- ٥- الحسين بن محمد الكاتب .
- ٦- الحسين بن عبدالرحيم له إجازة من ابن حزم وهما مجهولا المولد والوفاة .

(١) عن هذا الإحصاء انظر ابن حزم، طوق الحمامة، ص ٢٣، ٢٢، ٢٦٣، ديوان ابن حزم الشعري، ص ٧٣-٧٨؛ جمهرة أنساب العرب، ص ٢٢٠، ٩٧، ٩٦؛ رسائل ابن حزم، ١٧١/٢، ١٨٨، ٣٠، ١٩٠، ١٨٩، ١٨٧، ١٧٨، ١٧٤، ١٧٣، ١٦٢، ١٦١، ١٦٠، ١٣٥، ١١٤، ١٠٥، ١٠٤، ٢٢٩، ١٧٨، ٢٢٩، ١٥٤، ١٥٨، ١٥٩، ٢٦١، ٢٦٢، ٣١٨؛ وانظر الحميدى، جذوة المقتبس، ١/٢٤٦، ١٨٤؛ ابن بشكوال، الصلة، ١/١١٥؛ الضبي، بغية الملتبس، ص ١٦٤، ١٦٥؛ ابن الآبار، الحلة السيرة، ٢/١٢-١٧، ١٢٨؛ ابن سعيد، المغرب، ١/٧٨-٢٣٤، ١٥٨، ٩٢، ٨٥، السيوطي، طبقات الحفاظ، ص ٤٣٣؛ المقرئ، نفع الطيب، ٢/٢٨٨؛ ليث سعود، ابن عبدالبر، ١٤٦.

- ٧- أبوبكر عبد الباقي بن محمد بن بريال الحجارى (٤١٦هـ-٥٠٢هـ/١٠٢٥-١١٠٨م) ظل ظاهرى المذهب وعمل على إذاعة كتب شيخه والاهتمام بها .
- ٨- عمر بن حيان بن خلف بن حيان (ت ٤٧٤هـ/١٠٨١م) ولد المؤرخ الشهير ابن حيان .
- ٩- على بن سعيد العبدري الميورقى توفى بعد (سنة ٤٩١هـ/١٠٩٧م) ترك المذهب الظاهرى بعد وفاة ابن حزم وتفقه على أبى بكر الشاشى، وله تعليق فى مذهب الشافعى .
- ١٠- عبدالملك بن زيادة الله بن على بن حسين الحماني القرطبي (٣٩٦هـ-٤٥٦هـ / ١٠٠٥م-١٠٦٣م) التلميذ الصديق .
- ١١- محمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن مسلمة القرطبي (٤٣٤هـ-٥١١هـ / ١٠٤٢م-١١١٧م) .
- ١٢- عبد الله بن محمد بن أحمد بن العربى المعافرى الإشبيلي (٤٣٥هـ-٤٩٣هـ / ١٠٤٣م-١٠٩٩م) صحب ابن حزم سبعة أعوام سمع خلالها مصنفاته كلها سوى المجلد الأخير من كتاب (الفصل)، وله منه إجازة أكثر من مرة .
- ١٣- صاعد بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن صاعد النعلبي (٤٢٠هـ- ٤٦٢هـ/١٠٢٩م-١٠٦٩م) قاضى طليطلة وهو صاحب كتاب طبقات الأمم .
- ١٤- أبوبكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٤٥٠هـ/١٠٥٨م) .
- وإلى جانب هؤلاء فقد كان أبناؤه الأربعة من التلاميذ النشطين فى نشر علم أبيهم وكتبه، وهم أبورافع الفضل (ت ٤٧٩هـ/١٠٨٦م)، أبواسامة يعقوب (ت ٥٠٣هـ/١١٠٩م)، سعيد بن على بن حزم، أبوسليمان المصعب مجهولا المولد والوفاة (١)

(١) عن ذلك انظر رسائل ابن حزم، ١/١٥، ٢/١٥، ٢٥٠/١؛ الحميدى، جذوة المقتبس، ١/٢٩٨؛ ابن بشير كوال: الصلوة، ١/٣٦٦، ٣٧٠/٢، ٦٦٨، ٦١٤، ٥٨٧، ٥٦٢، ٥٦١، ٤٣٩، ٤٢٩، ٩٨٨/٣، ٨٣٣؛ الضبي، بغية الملتبس، ص ٣١٨، ٨١؛ ابن الآبار: التكملة، ٢/٧٠٠؛ الذهبي، سير أعلام

أقوال العلماء فيه وموقفهم منه :

قال الحميدى (كان حافظا عالما بعلوم الحديث وفقهه مستنبطا للأحكام من الكتاب والسنة متفننا في علوم جملة، عاملا بعلمه زاهدا في الدنيا بعد الرئاسة التي كانت له ولأبيه من قبله في الوزارة وتدير الممالك، متواضعا ذا فضائل جملة وتوايف كثيرة في كل ما تحقق به من العلوم، وجمع من الكتب في علم الحديث والمصنفات والمسندات شيئا كثيرا وسمع سماعا جما، وأول سماعه من أبي عمر أحمد بن محمد بن الجسور، قبل الأربعمئة، وألف في فقه الحديث كتابا كبيرا سماه كتاب [الإيصال إلى فهم الخصال الجامعة لجمل شرائع الإسلام في الواجب والحلال والحرام وسائر الأحكام على ما أوجه القرآن والسنة والإجماع] أورد فيه أقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أئمة المسلمين في مسائل الفقه والحجة لكل طائفة عليها والأحاديث الواردة في ذلك من الصحيح والسقم بالأسانيد وبيان ذلك كله وتحقيق القول فيه، وله كتاب [الإحكام لأصول الأحكام] في غاية التقصي وإيراد الحجج، وكتاب [الفصل في الملل والأهواء والنحل]، وكتاب في الإجماع ومسائل على أبواب الفقه، وكتاب في مراتب العلوم وكيفية طلبها وتعلق بعضها ببعض، وكتاب [إظهار تبديل اليهود والنصارى للتوراة والإنجيل، وبيان تناقض ما بأيديهم من ذلك مما لا يحتمل التأويل] وهذا مما سبق إليه، وكذلك كتاب [التقريب لحد المنطق والمدخل إليه بالألفاظ العامية والأمثلة الفقهية] فإنه سلك في بيانه وإزالة سوء الظن عنه وتكذيب المخرقين به طريقة لم يسلكها أحد قبله في ما علمنا. وما رأينا مثله رحمه الله في ما اجتمع له من الذكاء وسرعة الحفظ وكرم النفس والتدين. مولده في ليلة الفطر سنة أربع وثمانين وثلاثمئة بقرطبة، ومات بعد الخمسين وأربعمئة، وكان له في الآداب والشعر نفس واسع وباع طويل قال: وما رأيت من يقول الشعر على البديهة أسرع منه وشعره كثير قال: وقد جمعناه على حروف المعجم ومنه:

النبلاء، ١٨٠/١٩٩، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٥؛ المقرئ، نفع الطيب، ٢٩٠/٢٩٢، ٣١٥؛ Asin placios, Aben hazam de cordoba, T.1 P.243,280-296؛ دائرة المعارف الإسلامية، ١/٢٥٧؛ إحسان عباس؛ أخبار وتراجم أندلسية، ص ٥٢ .

هل الدهر إلا ما عرفنا وأدركنا إذا أمكنت فيه مسرة ساعة إلى تبعات في المعاد وموقف حصلنا على هم وإثم وحسرة حنين لما ولى وشغل بما أتى كأن الذى كنا نسر بكونه؛ فجائعه تبقى ولذاته تبنى تولت كمر الطرف واستخلفت حزنا نود لديه أننا لم نكن كنا وفات الذى كنا نلذ به عنا وغم لما يرجى فعيشك لا يهنأ إذا حققتة النفس لفظ بلا معنى وله من قصيدة طويلة خاطب بها قاضى الجماعة بقرطبة عبد الرحمن بن أحمد بن بشر يفخر فيها بالعلم ويذكر أصناف ما علم وفيها:

أنا الشمس فى جو العلوم منيرة ولو أننى من جانب الشرق طالع ولى نحو أكناف العراق صباية فإن ينزل الرحمن رحلى بينهم فكم قائل أغفلته وهو حاضر هنالك يدرى أن للبعد قصة؛ ولكن عيبى أن مطلعى الغرب لجد على ما ضاع من ذكرى النهب ولا غرو أن يستوحش الكلف الصب فحينئذ يبدو التأسف والكرب وأطلب ما عنه تجيء به الكتب وأن كساد العلم آفته القرب.

ومنها فى الاعتذار عن المدح لنفسه:

ولكن لى فى يوسف خير أسوة يقول وقال الحق والصدق إننى؛ وليس على من بالنبى أتسى ذنب حفيظ عليم ما على صادق عتب وله من أخرى: منأى من الدنيا علوم أبثها دعاء إلى القرآن والسنن التى؛ وأنشرها فى كل باد وحاضر تنسى رجال ذكرها فى المحاضر وأنشد لنفسه: أبن وجه قول الحق فى نفس سامع سيؤنسه رفقا فينسى بفاره؛ ودعه فنور الحق يسرى ويشرق كما نسى القيد الموثق مطلق وأنشد لنفسه:

لئن أصبحت مرتحلا بشخصى ولكن للعيان لطيف معنى؛ فروحى عندكم أبدا مقيم له سأل المعاينة الكليم وله فى هذا المعنى:

يقول أخى شجاك رحيل جسم فقلت له المعانين مطمئن؛ وروحك ما له عنا رحيل لذا طلب المعاينة الخليل) ١.هـ

وقال أيضا ما رأينا مثله مما اجتمع له مع الذكاء وسرعة الحفظ وكرم النفس والتدين
وما رأيت من يقول الشعر على البديهة أسرع منه قال أنشدني لنفسه:
لئن أصبحت متحلا بجسمي * فروحي عندكم أبدا مقيم
ولكن للعيان لطيف معنى * له سأل العاينة الكليم
وروى له الحافظ الحميدي:

أقمنا ساعة ثم ارتحلنا * وما يغني المشوق وقوف ساعه
كأن الشمل لم يك ذا اجتماع * اذا ما شئت البين اجتماعه^(١)
ومن شعره :

وذو عدل فيمن سباني بحسنه * يطيل ملامي في الهوى ويقول
أفي حسن وجه لاح لم تر غيره * ولم تدر كيف الجسم أنت قتيل
فقلت له أسرفت في اللوم ظالما * وعندى رد لو أردت طويل
ألم تر اني ظاهري واننى * على مابدا حتى يقوم دليل

قال هذه الأبيات لصاحبه ابن عبدالبر وكانا يمران بسكة الحطابين بإشبيلية فرأى ابن
حزم شاب حسن الوجه فقال لصاحبه انظر هذا الوجه الحسن فقال لعل ماتخفيه
الثياب غير ذلك فأنشده ابن حزم هذه الأبيات على سبيل الدعابة.

أورد المقرئ هذه القصة وأسبقها بقوله: "قال ابن حزم فى طوق الحمامة"^(٢)
وبالرغم من عدم ورودها فى نسخة الطوق الحالية فيمكننا أن نتق فى كلام المقرئ إذا علمنا
أن النسخة التى بين أيدينا ليست كاملة باعتراف الناسخ نفسه، الذى حذف أكثر أشعارها
تحسينا لها وتصغيرا لحجمها^(٣)

قلت: ومن هذه الرواية علمنا تاريخ تحول ابن حزم إلى المذهب الظاهري كما
أوضحنا فى دراستنا عن ابن حزم رضى الله عنه وهو قبل عام ٤١٨ هـ وهى السنة التى صنف

(١) أنظر: جذوة المقتبس، ٤٨٩/٢، ٤٩٠، .

(٢) أنظر: نفع الطيب، ٢٨٨/٢، والبين رقم ٤ من المقطوعة الشعرية.

(٣) أنظر: طوق الحمامة، ص ٣٣٦.

فيها كتابه طوق الحمامة وذكر فيها هذه القصة كما قال المقرئ .

وقال الفتح بن خاقان (ت. ٥٢٩هـ): ما تَمَنَّتْ به الأندلس أن تكون كالعراق ولا حنّت الأنفس معه إلى تلك الآفاق (١).

وقال ابن فضل الله العمري: فأما بالمغرب فلم يكن منهم إلا واحداً، لكنه كالألف. وفرد يحطم به كل صف وهو: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خاف بن معدان بن سفيان بن يزيد مولى يزيد بن أبي سفيان بن صخر بن حرب الأموي. أسد فتح فاه والتقم، وبحر زخر عبابه والتطم، سيل عرم يجتحف ما قُدَّامه، وريح زعزع ينسف ما جاء أمامه، وجبل لا يأمن من استدرى به أن يقع عليه وأرقم لا يطمئن راقيه أن يثبت إليه، شجاع أعدد للحرب، وحسام لا يُفَلِّ له غرب، ومثقف ما ألف إلا الطعن والضرب، أكل العلماء بلسانه، وأذهب سوء الصنيع بإحسانه، ووطيء الرجال بقدمه، وفَلَّ النصال بقلمه، ونكس بعلمه الأعلام، وقطع حيازيم الملوك بالكلام، وكان أمة وحده والسلام وذكر ابن فضل الله قول ابن حزم حين بلغه أن أبا الوليد الباجي يتناوله فقال: قالوا سليمان يذمك جاهداً... فقلت دَعُوهُ إِنَّهُ غَيْرَ طَائِلٍ هُوَ الْمَرءُ لَا يُوسَى لِمَطْلَقِ ذَمِّهِ... وَلَا لِشَاءِ مِنْهُ يُشْرَى لِعَقْلِ (٢).

وقال ابن العماد الحنبلي: كان إليه المنتهى في الذكاء وحدة الذهن وسعة العلم بالكتاب والسنة والمذاهب والملل والنحل والعربية والآداب والمنطق والشعر مع الصدق والديانة والحشمة والسؤدد والرياسة والثروة وكثرة الكتب (٣).

وقال الغزالي وجدت في أسماء الله تعالى كتابا لأبي محمد بن حزم يدل على عظم

(١) أنظر: مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس" مطبعة السعادة، القاهرة، ص. ٦٣.

(٢) أنظر: مسالك الأبصار، مركز زايد للتراث والتاريخ، العين. الإمارات العربية المتحدة، ٤٧٢/٦-٤٩١.

(٣) أنظر: شذرات من الذهب، ٢٩٩/٣.

حفظه وسيلان ذهنة (١)

وقال صاعد في طبقات الأمم كان ابن حزم أجمع أهل الاندلس قاطبة لعلوم الاسلام

وأوسعهم مع توسعه في علم اللسان والبلاغة والشعر والسير وال اخبار أخبرني ابنه الفضل انه اجتمع عنده بخط أبيه من تأليفه نحو أربعمئة مجلد (٢)

وقال ابن خلكان: كان حافظا عالما بعلوم الحديث مستتبطا للأحكام من الكتاب والسنة بعد ان كان شافعي المذهب فانتقل إلى مذهب أهل الظاهر وكان متفننا في علوم جملة عاملا بعلمه زاهدا في الدنيا بعد الرياسة التي كانت له ولأبيه من قبله في الوزارة وتديي الملك متواضعا ذا فضائل وتآليف كثيرة وجمع من الكتب في علم الحديث والمصنفات والمسندات شيئا كثيرا وسمع سماعا جما وألف في فقه الحديث كتابا سماه كتاب الايصال إلى الفهم، وكتاب الخصال الجامعة نحل شرائع الاسلام في الواجب والحلال والحرام والسنة والاجماع أورد فيه أقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أئمة المسلمين رضي الله عنهم أجمعين وله كتاب في مراتب العلوم وكيفية طلبها وتعلق بعضها ببعض وكتاب اظهار تبديل اليهود والنصارى التوراة والانجيل وبيان ناقص ما بأيديهم من ذلك مما لا يحتمل التأويل وهذا معنى لم يسبق إليه وكتاب التقريب بحد المنطق والمدخل إليه بالألفاظ العامية إلى غير ذلك مما لا يحصى كثرة وكان له كتاب صغير سماه نقط العروس جمع فيه كل غريبة ونادرة (٣)

ومن فضائله ما ذكره الشيخ ابن العربي الصوفى صاحب الفتوحات المكية انه رأى ابن حزم في المنام وقد عانق رسول الله صلى الله عليه وسلم فغاب أحدهما في الآخر فلم أعرف احدهما عن الآخر هذا حاصل معناه وهذا يدل على حسن عاقبته ولطف علمه وخيرة طريقه وكما اتحاده بالنبي صلى الله عليه وسلم وليس وراء ذلك غاية والله اعلم.

(١) نقلا عن الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٨ / ١٨٧، ابن حجر، لسان الميزان، ٤ / ٢٠١، المقرئ، نفع الطبيب، ٢ / ٧٨.

(٢) أنظر: طبقات الأمم، ص ٩٨، ٩٩.

(٣) أنظر: وفيات الأعيان، ٣ / ٣٢٥ - ٣٣٠.

وقال ابن العريف كان لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقين (١).
قلت: قال هذا من شدة ابن حزم وحدته في الرد على العلماء حيث كان يصك معارضيه صك الجندل .

وقال العلامة عبدالحى الغمارى: "والذي رأيناه يحقق النقل عن أئمة المذاهب البائدة هو: الإمام الحافظ ابن حزم في كتاب (المحلى)، وكتاب (مراتب الإجماع)، فإنه لا يخطئ في نقل أقوالهم إلا في القليل النادر" (٢)
وكان بين أبي عمرو الدانى وبين أبي محمد بن حزم وحشة ومنافرة شديدة أفضت بهما إلى التهاجي وهذا مذموم من الأقران موفور الوجود نسأل الله الصفح وأبو عمرو أقوم قليلا وأتبع للسنة ولكن أبا محمد أوسع دائرة في العلوم بلغت توالييف أبي عمرو مئة وعشرين كتابا (٣)

وكانت بينه وبين أبي الوليد سليمان الباجي المالكي الأشعري مناظرات جمعنا بعضها فى كتابنا ابن حزم الظاهري وأثره فى المجتمع الأندلسي، وهو أصل أطرحتنا للماجستير فلترجع هناك .

وللحافظ البارع المجود أبو بكر محمد بن حيدرة بن مفوز بن أحمد بن مفوز المعافري الشاطبي رد على ابن حزم وكان حافظا للحديث وعلمه عالما بالرجال متقنا أديبا شاعرا فصيحاً نبيلاً أسمع الناس بقرطبة (٤)

وكان ابن زرقون أبو الحسين محمد بن أبي عبد الله محمد بن سعيد الأنصاري الأشبيلي شيخ المالكية من كبار المتعصبين للمذهب فأوذي من جهة بني عبد المؤمن لما

(١) نقلا عن الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٨/١٩٩.

(٢) أنظر: نقد المقال في مسائل من علم الحديث والفقه وأصوله، وتفضيل بعض المذاهب، ص ٤٧.

(٣) الذهبي، سير أعلام، ١٨/٨١.

(٤) ابن مفوز ولد في عام موت أبي عمر بن عبد البر سنة ثلاث وستين وأربع مئة وأجاز له الشيخ أبو عمر بن الحذاء والقاضي أبو الوليد الباجي وسمع من عمه طاهر بن مفوز وأبي علي الجياني فأكثر وأبي مروان بن سراج ومحمد بن الفرغ الطلاعي وخلف شيخه أبا علي في حلقة وفجئه الموت قبل أوان الرواية وعاش نيفا وأربعين سنة توفي سنة خمس وخمس مئة أنظر الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٩/٤٢١.

أبطلوا القياس وألزموا الناس بالأثر والظاهر وقد صنف كتاب المعلى في الرد على المحلى لابن حزم توفي في شوال سنة ٧٣١هـ وله ثلاث وثمانون سنة (١)

وممن انتقد ابن حزم ابراهيم بن حسن بن عبد الرفيع الربيعي التونسي قاضي القضاة بتونس يكنى أبا اسحاق كان علامة وقته ونادرة زمانه ألف كتاب معين الحكام في مجلدين وله الرد على ابن حزم في اعتراضه على مالك رحمه الله في أحاديث خرجها في الموطأ ولم يقل بها وله اختصار اجوبه القاضي أبي الوليد بن رشد توفي سنة أربع وثلاثين وسبعمائة في شهر رمضان عن تسع وتسعين سنة وأشهر رحمه الله تعالى (٢)

وقد أفرط الإمام السبكي كعادته في الرد فقال عن كتاب الفصل لابن حزم "وكتابه هذا الملل والنحل من شر الكتب وما برح المحققون من أصحابنا ينهاون عن النظر فيه لما فيه من الإزراء بأهل السنة ونسبة الأقوال السخيفة إليهم من غير تثبت عنهم والتشيع عليهم بما لم يقولوه وقد أفرط في كتابه هذا في الغض من شيخ السنة أبي الحسن الأشعري وكاد يصرح بتكفيره في غير موضع وصرح بنسبته إلى البدعة في كثير من المواضع وما هو عنده إلا كواحد من المبتدعة والذي تحققت بعد البحث الشديد أنه لا يعرفه ولا بلغه بالنقل الصحيح معتقده وإنما بلغته عنه أقوال نقلها الكاذبون عليه فصدقها بمجرد سماعه إياها ثم لم يكتف بالتصديق بمجرد السماع حتى أخذ يشنع وقد قام أبو الوليد الباجي وغيره على ابن حزم بهذا السبب وغيره وأخرج من بلده وجرى له ما هو مشهور في الكتب من غسل كتبه وغيره ومما يعرفك ما قلت لك من جراته وتسارعه هذا النقل الذي عزاه إلى الأشعري ولا خلاف عند الأشعري وأصحابه بل وسائر المسلمين أن من تلفظ بالكفر أو فعل أفعال الكفار أنه كافر بالله العظيم مخلد في النار وإن عرف بقلبه وأنه لا تنفعه المعرفة مع العناد ولا تغني عنه شيئاً ولا يختلف مسلمان في ذلك وهل الفئات عليه نفس الإيمان لكون النطق ركناً منه أو شرطه فيه البحث المعروف للأشاعرة وسيأتي وأجمعوا علماً أن الإسلام زائل عنه فقول ابن حزم في النقل عنهم إنه مسلم خطأ عليهم صادر عن أمرين عن عدم المعرفة بعقائدهم وعن

(١) أنظر: شذرات الذهب، ٩٦/٣، ابن فرحون، الديباج المذهب، ٢٨٦/١.

(٢) ابن فرحون، الديباج المذهب، ٨٩/١.

عدم التفرقة بين الإيمان والإسلام (١)

وممن رد على ابن حزم الحافظ الإمام أبو بكر محمد بن حيدرة بن مفوز بن أحمد بن مفوز المعافري الشاطبي حدث عن عمه طاهر الحافظ وأبي علي الغساني وأجاز له أبو الوليد الباجي وكان حافظا متقنا ضابطا عارفا بالأدب وفنونه حدث بقرطبة وخلف شيخه أبا علي في الإفادة وله رد على ابن حزم مات سنة خمس عشرة وخمسمائة عن اثنتين وأربعين سنة (٢)

وقال صديق القنوجي كان حافظا عالما بعلوم الحديث وفقهه مستنبطا للاحكام من الكتاب والسنة بعد إن كان شافعي المذهب فانتقل إلى مذهب أهل الظاهر وكان متفنا في علوم جمة عاملا بعلمه زاهدا في الدنيا بعد الرياسة التي كانت له ولاية من قبله في الوزارة وتدير الملك متواضعا ذا فضائل جمة وتوايف كثيرة ألف في فقه الحديث كتابا سماه الايصال إلى فهم الخصال الجامعة لجمل شرائع الاسلام في الواجب والحلال والحرام والسنة والاجماع اورد فيه اقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من ائمة المسلمين والحجة لكل طائفة وعليها وهو كتاب كبير ... وكان كثير الوقوع في العلماء المتقدمين لا يكاد يسلم أحد من لسانه فنفرت عنه القلوب واستهدف فقهاء وقته فتمالوا على بغضه وردوا أقواله واجمعوا على تضليله وشنعوا عليه وحذروا سلاطينهم من فتنته ونهوا عوامهم عن الدنو اليه والأخذ عنه فأقصته الملوك وشردته عن بلاده حتى انتهى إلى بادية لبلة فتوفي بها آخر النهار من شعبان سنة ٤٥٦ وقيل في منت ليشم وهي قرية ابن حزم (٣)

وقال ابن مفلح: كان إليه المنتهى في الذكاء والحفظ وكثرة العلم وكان متفنا في علوم جمة وله التصانيف الفاخرة في علوم شتى حتى في المنطق وشرح المجلى في اثني عشر مجلدا ومن طالع كتابه هذا وجد فيه تأدبه مع الإمام أحمد ومتابعته . قلت: لم يكن ابن حزم تابعا لأحد من الأئمة وإن كان كثير الجنوح للشافعي رضي الله عنهما،

(١) أنظر: طبقات الشافعية الكبرى، ٩٠/١، ٩١ .

(٢) السيوطي، طبقات الحفاظ، ص ٤٥٦ .

(٣) أنظر صديق القنوجي، أجد العلوم، ١٤٧/٣، ١٤٨، وانظر ترجمته ابن حزم في الذهبي، العبر في خبر من غير، ٢٤١/٣، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٧٥/٥ .

مثله مثل إمامه داود بن علي، ولم يعرض ابن حزم في كتابه المحلى للإمام أحمد رضى الله عنه سوى عدة أقوال قليلة جدا .

قال ابن عبد السلام ما رأيت في كتب الإسلام في العلم مثل المحلى لابن حزم والمغنى لابن قدامة (١)

وقال ابن بشكوال: في حقه كان أبو محمد أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام وأوسعهم معرفة مع توسعه في علم اللسان ووفور حظه من البلاغة والشعر والمعرفة بالسير والأخبار أخبر ولده أبو رافع الفضل أنه اجتمع عنده بخط أبيه من تأليفه نحو أربعمئة مجلد تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة (٢)

وقال المراكشي: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صلح بن خلف بن معدان بن سفيان بن يزيد الفارسي مولى يزيد بن أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي قرئ علي نسبة هذا بخطه علي ظهر كتاب من تصانيفه أصل آبائه الأدينين من قرية من إقليم لبلة من غرب الأندلس سكن هو وأبوه قرطبة وكان أبوه من وزراء المنصور محمد بن أبي عامر ووزراء ابنه المظفر بعده وكان هو المدبر لدولتيهما وكان ابنه أبو محمد الفقيه وزيراً لعبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر الملقب بالمستظهر بالله أخي المهدي ... ثم إنه نبذ الوزارة واطرحها اختياراً وأقبل على قراءة العلوم وتقييم الآثار والسنن فنال من ذلك ما لم ينل أحد قبله بالأندلس وكان على مذهب الإمام أبي عبد الله الشافعي رحمه الله أقام على ذلك زماناً ثم انتقل إلى القول بالظاهر وأفرط في ذلك حتى أربى على أبي سليمان داود الظاهري وغيره من أهل الظاهر وله مصنفات كثيرة جليلة القدر شريفة المقصد في أصول الفقه وفروعه على مهيعه الذي يسلكه ومذهبه الذي يتقلده وهو مذهب داود ابن علي بن خلف الاصبهاني الظاهري ومن قال بقوله من أهل الظاهر ونفاة القياس والتعليل بلغني عن غير واحد من علماء الأندلس أن مبلغ تصانيفه في الفقه والحديث والأصول والنحل والملل وغير ذلك من التاريخ والنسب وكتب الأدب والرد

(١) ابن مفلح، المقصد الأرشد، ٢/٢١٣، ٢١٤.

(٢) أنظر: الصلة، ٢/٦٠٥.

على المخالفين له نحو من أربعمائة مجلد تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة وهذا شيء ما علمناه لأحد ممن كان في مدة الإسلام قبله إلا لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري فإنه أكثر أهل الإسلام تصنيفاً فقد ذكر أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر الفرغاني في كتابه المعروف بالصلة وهو الذي وصل به تاريخ أبي جعفر الطبري الكبير أن قوماً من تلاميذ أبي جعفر لخصوا أيام حياته منذ بلغ الحلم إلى أن توفي في سنة ٣١٠ وهو ابن ست وثمانين سنة ثم قسموا عليها أوراق مصنفاًه فصار لكل يوم أربع عشرة ورقة وهذا لا يتهيأ لمخلوق إلا بكريم عناية الباري تعالى وحسن تأييده له، ولأبي محمد بن حزم بعد هذا نصيب وافر من علم النحو واللغة وقسم صالح من قرص الشعر وصناعة الخطابة ... وإنما أوردت هذه النبذة من أخبار هذا الرجل وإن كانت قاطعة للنسق مزبحة عن بعض الغرض لأنه أشهر علماء الأندلس اليوم وأكثرهم ذكراً في مجالس الرؤساء وعلى السنة العلماء وذلك لمخالفته مذهب مالك بالمغرب واستبداده بعلم الظاهر ولم يشتهر به قبله عندنا أحد ممن علمت وقد كثر أهل مذهبه وأتباعه عندنا بالأندلس اليوم (١)

وقال السيوطي: ابن حزم الإمام العلامة الحافظ الفقيه أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف الفارسي الأصل اليزيدي الأموي مولا هم القرطبي الظاهري كان أولاً شافعيًا ثم تحول ظاهرياً وكان صاحب فنون وورع وزهد وإليه المنتهى في الذكاء والحفظ وسعة الدائرة في العلوم أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام وأوسعهم مع توسعه في علوم اللسان والبلاغة والشعر والسير والأخبار (٢)

وقال الفيروزآبادي: إمام في الفنون وزر هو بعد أبيه للمظفر وترك الوزارة وأقبل على التصنيف ونشر العلم ومن تصانيفه كتاب التقريب في بيان حدود الكلام وكيفية إقامة البرهان في كل ما يحتاج إليه منه وتمييزه مما يظن أنه برهان وليس برهاناً وكتاب الأخلاق والسير صغير وكتاب الفصل بين النحل والملل (قلت اسمه الفصل في الملل والأهواء والنحل) وكتاب الدرّة في الاعتقاد صغير ورسالة التوفيق على شارع النجاة باختصار الطريق وكتاب

(١) أنظر المراكشي، المعجب، ص ٤٦ - ٤٩.

(٢) أنظر: طبقات الحفاظ، ص ٤٣٥، ٤٣٦.

التحقيق في نقض كلام الرازي وكتاب التزهيد في بعض كتاب الفريد وكتاب اليقين في النقض على عطف في كتابه عمدة الأبرار وكتاب النقض على عبد الحق الصقلي وكتاب زجر العاوي وإخسانه ودحر الغاوي وإخزائه وكتاب رواية أبان يزيد العطار عن عاصم في القراءات وكتاب الرد على من قال إن ترتيب السور ليس من عند الله بل هو فعل الصحابة رضي الله عنهم وكتاب الإحكام لأصول الأحكام وكتاب النبذ في الإصول وكتاب النكت الموجزة في إبطال القياس والتعليل والرأي وكتاب النقض على أبي العباس بن سريج وكتاب الرد على المالكية في الموطأ خاصة وكتاب الرد على الطحاوي في الاستحسان وكتاب صلة الدامع الذي ابتدأه أبو الحسن بن المفلس وكتاب الخصال في المسائل المجردة وصلته في الفتوح والتاريخ والسير وكتاب الاتصال في شرح كتاب الخصال نحو أربعة آلاف ورقة وكتاب المحلى وشرحه وكتاب المعلى في شرح المحلى بإيجاز وكتاب حجة الوداع صغير ورسالة في التلخيص في تلخيص الأعمال وكتاب مراتب العلماء وكتاب مراتب التوالمف واختصار كتاب العلل للباقي والتاريخ الصغير في أخبار الأندلس وكتاب الجماهير في النسب ورسالة في النفس ورسالة في النفس ورسالة في الطب ورسالة في النساء ورسالة في الغناء وكتاب الإعراب عن كشف الالتباس الموجود في مذاهب أصحاب الرأي والقياس وكتاب القواعد في المسائل المجردة على طريقة أصحاب الظاهر نحو ثلاثة آلاف ورقة وكتاب تأليف الأخبار المأثورة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم التي ظاهرها التعارض ونفي التناقض عنها نحو عشرة آلاف ورقة ورسالة الاستحالات وكتاب في الألوان ورسالة في الروح والنفس ورسالة في مراعاة أحوال الإمام ورسالة في فضل الأندلس وذكر علمائها وتوالمفهم ورسالة الكشف عن حقيقة البلاغة وحين الاستعادة في النظم والنشر وكتاب غلط أبي عمرو المقرئ في كتابه المسند والمرسل وكتاب في العروض صغير وكتاب طوق الحمامة نحو ثلاثمئة ورقة عارض كتاب الزهرة لأبي بكر بن داود وكتاب دعوة الملل في أبيات المثل فيه أربعون ألف بيت وكتاب التعقيب على ابن الإفليلي في شرح شعر المتنبي وكتاب في الوعد والوعيد ورسالة الإيمان وكتاب الإجماع (١)

(١) أنظر البلغة في أئمة اللغة، ص ١٤٦، ١٤٧.

قلت: قد أجاد الفيروزآبادي في ترجمته لابن حزم فأتى بمصنفات له انفرد بها، ولم يدانيه فيها أحد ممن ترجموا لابن حزم، حتى عمدة المؤرخين الإمام العظيم الذهبي .

وقال ابن كثير: هو الإمام الحافظ العلامة أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف بن معد بن سفيان بن يزيد بن مولى يزيد بن أبي سفيان صخر بن حرب الأموي أصل جده من فارس أسلم وخلف المذكور وهو أول من دخل بلاد المغرب منهم وكانت بلدهم قرطبة فولد ابن حزم هذا بها في سلخ رمضان سنة أربع وثمانين وثلثمائة فقرأ القرآن واشتغل بالعلوم النافعة الشرعية وبرز فيها وفاق أهل زمانه وصنف الكتب المشهورة يقال إنه صنف أربعمائة مجلد في قريب من ثمانين ألف ورقة وكان ادبياً طبيباً شاعراً فصيحاً له في الطب والمنطق كتب وكان من بيت وزارة ورياسة ووجاهة ومال وثروة وكان مصاحباً للشيخ أبي عمر بن عبد البر النمري وكان مناوئاً للشيخ أبي الوليد سليمان بن خلف الباجي وقد جرت بينهما مناظرات يطول ذكرها .

قلت ليت كل من قال هذه الكلمات ممن ترجموا لابن حزم ذكروا هذه المناظرات، إذ أنى لم أستطع أن أجمع منها سوى نتف من ثلاثة منها، ولو وصلتنا هذه المناظرات لأوضحت لنا جانباً كبيراً من جدلية ابن حزم مع المالكية، ومدى الشراء الفكري التي كانت تنعم به الأندلس في عصر الطوائف) وكان ابن حزم كثير الوقيعة في العلماء بلسانه وقلمه فأورثه ذلك حقداً في قلوب أهل زمانه ومازالوا به حتى بغضوه إلى ملوكهم فطردوه عن بلاده حتى كانت وفاته... والعجب كل العجب منه أنه كان ظاهرياً حائراً في الفروع لا يقول بشيء من القياس لا الجلي ولا غيره وهذا الذي وضعه عند العلماء وأدخل عليه خطأ كبيراً في نظره وتصرفه وكان مع هذا من أشد الناس تأويلاً في باب الأصول وآيات الصفات وأحاديث الصفات لأنه كان أولاً قد تزلع من علم المنطق أخذه عن محمد بن الحسن المذحجي الكناني القرطبي ذكره ابن ماكولا وابن خلكان ففسد بذلك حاله في باب الصفات (١)

مصنفات ابن حزم :

أولاً التاريخ والنسب والسياسة:-

(١) البداية والنهاية، ١٢ / ٩١، ٩٢ .

جوامع السيرة نشر عدة مرات، رسالة فى القراءات المشهورة فى الأمصار، رسالة أسماء الصحابة والرواة وما لكل واحد من العدد، رسالة أصحاب الفتيا من الصحابة ومن بعدهم على مراتبهم فى كثرة الفتيا، رسالة جمل فتوح الإسلام بعد الرسول صلى الله عليه وسلم. صنفها سنة ٤٣١هـ/١٠٣٩م أو بعدها بقليل، رسالة فى أسماء الخلفاء والولاة وذكر عددهم. صنفها إما سنة ٤٢٦هـ/١٠٣٤م أو ٤٤٦هـ/١٠٥٤م حيث فتنة البساسيرى، وهذه الرسائل الخمس نشرت ملحقة بجوامع السيرة تحقيق إحسان عباس وناصر الأسد، دار المعارف بمصر، كما نشرتها مجلة الأزهر فى هديتها عدد جمادى الآخر ١٤١٣هـ، شعبان ١٤١٣هـ، رسالة جمل من التاريخ ويبدو أنه صنفها فى نفس تاريخ الرسالة السابقة حيث توقف فيها عند ما توقف فى أسماء الخلفاء وقد نشرها عبدالحليم عويس وابن عقيل بالرياض ١٩٧٧م، ونشر إحسان عباس جزءاً منها برسائل ابن حزم الظاهري الجزء الثانى، رسالة أمهات الخلفاء صنفها بعد سنة ٤٢٢هـ/١٠٣٠م، نقط العروس فى تواريخ الخلفاء صنفها قبل سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م إلا أنه أدخل عليها تعديلات أخر سنة ٤٥٢هـ/١٠٦٠م، رسالة فى فضل الأندلس وذكر رجالها. صنفها بقلعة البونت سنة ٤٢٢هـ/١٠٣٠م أو بعدها بقليل، رسالة فى ذكر أوقات الأمراء أو أيامهم بالأندلس. صنفها بعد سنة ٤٤٥هـ/١٠٥٣م، وهذه الرسائل نشرها إحسان عباس بالجزء الثانى من رسائل ابن حزم، جمهرة أنساب العرب. صنفه بعد سنة ٤٤٦هـ/١٠٥٤م، كتاب فى السياسة صنفه بعد سنة ٤١٨هـ/١٠٢٦م وقد نشر محمد إبراهيم الكنانى نتفا منه بمجلة تطوان عدد (٥) سنة ١٩٦٠م ص ٩٥-١٠٧، كتاب الإمامة والسياسة فى قسم سير الخلفاء ومراتبها والندب إلى الواجب منها، وقد وردت شذرات منه ضمن كتاب الشهب اللامعة والسياسة النافعة لابن رضوان.

أما عن مصنفاته التاريخية المفقودة فهى:-

تواريخ أعمامه وأبيه وأخواته وبنيه وبناته مواليدهم وتاريخ من مات منهم فى حياته، إجازة لتلميذه شريح، إجازة لتلميذه الحسين بن عبد الرحيم، وكتاب طبقات القراء ابتداءً من الصحابة نقل منه ابن حجر فى كتابه الإصابة (١)، كتاب الفضائح ذكر فيه فضائح البربر،

(١) ابن حجر، الإصابة، ١٥٩/٢.

يبدو أنه صنفه بعد تدمير البربر قرطبة سنة ٤٠٣هـ/١٠١٣م، كتاب الشعراء المقدمين، كتاب الإمامة والمفاضلة، نسب البربر في مجلد، رسالة مراتب العلماء وتواليهم في كراسة، الرسالة اللازمة لأولى الأمر، تسمية شيوخ مالك، تسمية الشعراء الوافدين على ابن أبي عامر، غزوات المنصور بن أبي عامر، فهرسة شيوخ ابن حزم، كتاب في جملة من دخل الأندلس من المغرب.

ثانياً الفقه وأصوله:-

المحلى بالآثار شرح المجلى بالاختصار إثني عشر جزءاً توفي ابن حزم ولم يتمه حيث توقف عند المسألة رقم ٢٠٢٣ وأتمه ابنه الفضل من كتاب أبيه الإيصال طبع عدة مرات، الإحكام في أصول الأحكام ثمانية أجزاء في مجلدين طبع عدة مرات، النبذة الكافية في أحكام أصول الدين وهو مختصر للإحكام طبع أكثر من مرة، مراتب الإجماع في العبادات والمعاملات والاعتقادات طبع أكثر من مرة، إبطال القياس والرأى والتقليد مطبوع بتحقيق محمد سعيد البدرى، رسالة ملخص إبطال القياس والرأى والاستحسان والتقليد والتعليل نشرها سعيد الأفغانى بدمشق، حجة الوداع طبع أكثر من مرة، رسالتان أجاب فيهما عن رسالتين سئل فيهما سؤال التعنيف، رسالة في الرد على الهاتف من بعد، رسالة التوقيف على شارع النجاة وهذه الرسائل الثلاث صنفها بعد كتاب التقريب، رسالة التلخيص لوجوه التلخيص صنفها بعد سنة ٤٢٦هـ/١٠٣٤م، رسالة البيان عن حقيقة الإيمان. صنفها بعد سنة ٤٤٠هـ/١٠٤٨م، رسالة الإمامة، رسالة في حكم من قال إن أرواح أهل الشقاء معذبة إلى يوم القيامة. صنفها بعد كتاب الفصل، وهذه الرسائل السبع نشرها إحسان عباس بالجزء الثالث من رسائل ابن حزم ص٧٣-٢٣٠، كما ألحقها برسالة ابن حزم في الرد على ابن النغريلة اليهودى، دار العروبة، القاهرة، رسالة في الفاظ تجرى بين المتكلمين في الأصول. نشرها إحسان عباس بالجزء الرابع من رسائل ابن حزم ص٤٠٩-٤١٦، رسالة في الغناء الملهى أمباح هو أم محظور. نشرت برسائل ابن حزم الجزء الأول ص٤٣٠-٤٣٩، نبذة في البيوع. نشرتها دار الحرمين بالقاهرة، رسالة في ألم الموت وإبطالة. نشرت بالجزء الرابع من رسائل ابن حزم ص٣٥٩-٣٦٠، ظل العمامة وطوق الحمامة في فضل القرية والصحابة.

مطبوع ولكن شكك البعض في نسبه لابن حزم، رسالة نكت الإسلام. ترجمت للأسبانية ونشرت بقرنطاة سنة ١٩١١م، وقد ضاع نصها العربي، كتاب المجلى وهو المتن الذى عمل عليه كتاب المحلى. وقد أخبرنى بعض المهتمين ببن حزم فى مصر بأنه توجد نسخة من هذا الكتاب عنده ويقع فى مجلدين إلا أننى لم أطلعه، الإعراب عن الحيرة والالتباس الموجودين فى مذاهب أهل الرأى والقياس. جزءين وتوجد نسخة مصورة منه لدى أبى عبد الرحمن بن عقيل الظاهرى بالرياض، كتاب الإيصال فى شرح الخصال الجامعة لجمل شرائع الإسلام فى الواجب والحلال والحرام والسنة والإجماع يقع فى أربعين مجلدا فى خمسة عشر ألف ورقة ويوجد جزء من هذا الكتاب عند أبى تراب الظاهرى بجدة وباقى الكتاب فى حكم المفقود، الرسالة تقع فى ستة وثلاثين ورقة، رسالة الأصول وهما مخطوطتان بمكتبة جسترخنى بدبلن إيرلندا، كتاب فى ما جرى بين ابن حزم وأبى الوليد الباجى من مناظرة يوجد عند أبى تراب الظاهرى، رسالة فى مسألة الكلب. مخطوطة بمخطوطة شهيد على رقم ٢٧٠٤ (١٦٨) - ١٧١) وقد أخبرنى بعض المهتمين بفكر ابن حزم أنها عنده مطبوعة فى عدة صفحات وكان قد وعدنى بها إلا انه لم يوفى .

وعن الكتب الفقهية التى لم تصلنا إما لأنها مفقودة أو مازالت فى بطون

مكتبات العالم:-

كتاب أجوبة على المسائل المستغربة من صحيح البخارى (١)، كتاب تنوير المقباس، الصادع فى الرد على من قال بالتقليد، الإجماع ومسائله على أبواب الفقه، الاستقصاء، ذو القواعد فى ألف ورقة ومن موضوعاته الشروط التى إن خالفها أهل الكتاب تستباح دماؤهم، القدر المعلى فى تميم المجلى، مختصر الموضح لأبى الحسن بن المغلس الظاهرى، كتاب فى أن تارك صلاة عمدا حتى يخرج وقتها لا قضاء عليه. وقد عرض ابن حزم هذه المسألة بكتابه المحلى مسألة رقم ٢٧٩، كتاب الإملاء فى شرح الموطأ فى ألف ورقة، كتاب فى ما خالف فيه الحنفية والمالكية والشافعية جمهور الصحابة. يشتمل على مائتى مسألة، قسمة الخمس فى الرد على إسماعيل القاضى مجلد، الخصال الحافظ لجمل

(١) حاجى خليفة، كشف الظنون، ١/٥٤٥.

شرائع الإسلام مجلدين، السألة اليقينية المستخرجة من الآيات القرآنية، الآثار التي ظاهرها التعارض ونفي التناقض عنها. بدأ تصنيفه بعد الأحكام ومات ولم يتمه يقع في عشرة آلاف ورقة، كتاب في ما خالف فيه المالكية الطوائفة من الصحابة، كتاب اختلاف الفقهاء مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد وداود، كتاب التصحح في الفقه، التبيين في هل علم المصطفى أعيان المنافقين ثلاث كراريس، التلخيص والتخليص في المسائل النظرية ذكر ابن عقيل أنه يقع في مجلد ضخيم، كتاب الإملاء في قواعد الفقه في ألف ورقة، الإجماع كتيب، الفرائض كتيب، الرسالة البلقاء في الرد على عبدالحق بن محمد الصقلي كتيب، الرد على من كفر المتأولين من المسلمين مجلد، الاستجلاب مجلد، مراقبة أحوال الإمام جزء، رسالة المعارضة كراسة، قصر الصلاة كراسة، رسالة التأكيد كراسة، العتاب على أبي مروان الخولاني كراسة، رسالة في معنى الفقه والزهد كراسة، التلخيص في أعمال العباد جزء، الإظهار لما شنع به على الظاهرية كراسة، زجر الغاوى جزءين، رسالة في مسألة الإيمان، رسالة في السماع، كتاب الحدود، كشف الالتباس لما بين أصحاب الظاهر وأصحاب القياس. جزء، كتاب الصلاة، كتاب مناسك الحج، رسالة في الوعد والوعيد وبيان الحق في ذلك من السنن والقرآن. كتبها للأمير ابى الأحوص معن بن محمد التجيبى بين سنتي(٤٣٣هـ/١٠٤١م و٤٤٣هـ/١٠٥١م)، كتاب مراتب الديانة، كتاب مهم السنن، مجموع فتاوى عبد الله بن عباس، إرشاد السترشد .

ثالثا القرآن وعلومه وكلها في حكم المفقود:-

الناسخ والنسوخ في القرآن، رسالة في أن القرآن ليس من نوع بلاغة الناس. كتبها لصاحبه احمد بن عبدالمملك بن شهيد، رسالة في آية فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك، كتاب في تفسير حتى إذا استياس الرسل، كتاب في القراءات .

رابعا الحديث وعلومه:-

كتاب عدد ما لكل صاحب في مسند بقى. ذكر محمد إبراهيم الكنانى أنه مطبوع ولكن لم يذكر دار النشر ولا مكانها، الجامع في صحيح الأحاديث باختصار الأسانيد والاقتصار على أصحابها واجتلاب أكمل ألفاظها وأصح معانيها، مختصر علل الحديث،

حديثان أحدهما في صحيح البخارى والآخر في صحيح مسلم زعم أنهما موضوعان، ترتيب
سؤلات الدارمى لابن معين، بيان غلط عثمان بن سعيد الأعور فى المسند والمرسل، ترتيب
مسند بقى بن مخلد (١)، تراجم أبواب صحيح البخارى، جزء فى أوهام الصحيحين،

الإنصاف فى الرجال، مختصر كتاب الساجى فى الرجال مرتب على الحروف، الوجدان فى
مسند بقى بن مخلد (٢) وكل هذه فى حكم المفقود .

خامسا العقائد والفلسفة والمنطق:-

الفصل فى الأهواء والملل والنحل. بدأ فى تصنيفه بقرطبة سنة ٤١٨هـ/١٠٢٧م وانتهى
منه بجزيرة ميورقة سنة ٤٤٠هـ/١٠٤٨م طبع عدة مرات، كتاب فى الجدل. ذكر
الكنانى أنه مطبوع ولم يذكر دار النشر ولا مكانها، النصائح المنجية من الفضائح المخزية
والقبائح المردية من أقوال أهل البدع من الفرق الأربع المعترزة والمرجئة والخوارج والشيعة.
ضمنه كتاب الفصل، رسالة المفاضلة بين الصحابة نشرها سعيد الأفغانى أكثر من مرة وهى
مضمنه بكتاب الفصل، الأصول والفروع صنفه سنة ٤٢٠هـ/١٠٢٩م مطبوع بتحقيق عاطف
العراقى، دار النهضة بالقاهرة، الأخلاق والسير فى مداواة النفوس صنفه قبل
عام ٤٢٠هـ/١٠٢٩م طبع عدة مرات، التقريب لحد المنطق والمدخل إليه بالالفاظ العامية
والأمثلة الفقهية. صنفه قبل سنة ٤٢٠هـ/١٠٢٩م، رسالة فى مراتب العلوم صنفها بعد
الفصل، الرد على الكندى الفيلسوف نشرت هى والنسبة قبلها برسائل ابن حزم الجزء الرابع،
رسالة فى الرد على ابن النغريلة اليهودى صنفها بعد سنة ٤٥١هـ/١٠٥٩م نشرت برسائل ابن
حزم الجزء الثالث، رسالة الدرّة فى تحقيق الكلام فيما يلزم الإنسان اعتقاده. صنفها حوالى
سنة ٤٤٣هـ/١٠٥١م نشرت بمكتبة التراث بمكة المكرمة، وقد حصلت مكتبة الخانجى
بالقاهرة على نسخة مصورة منها ونشرتها، علم الكلام على مذهب أهل السنة والجماعة
مطبوع بالقاهرة، مسألة هل السواد لون أم لا. نشرها النادى الأدبى بالرياض سنة ١٩٧٩م،

(١) ابن حجر، الإصابة، ٥/٥٤٤.

(٢) نفس المصدر، ٢/٥٧٠.

الرسالة الباهرة في الرد على أهل الأقوال الفاسدة. توجد بمكتبة بودليان بانجلترا، رسالة في معرفة النفس بغيرها وجهلها بذاتها. نشرت برسائل ابن حزم الجزء الأول، كتاب الجوهرية ذكره صديق خان القنوجي ولعله في المنطق (١).

أما عن كتبه المفقودة في العقائد والفلسفة والمنطق: - التحقيق في نقد زكريا الرازي في كتابه العلم الإلهي. يقع في مائة ورقة وقد نشر بول كراوس الردود التي أوردتها ابن حزم في الفصل على الرازي في كتابه العلم الإلهي وليس من رسالته الأصلية فهي مفقودة. صنفها قبل الفصل، الرد على من قال أن الإيمان بالقلب. صنفها قبل الفصل، الرد على من اعترض على الفصل مجلد، اليقين في نقض تمويه المعتزدين عن إبليس اللعين وسائر المشركين صنفه قبل الفصل في مجلد كبير، الترشيح في الرد على كتاب الفريد لابن الراوندي في اعتراضه على النبوات مجلد، أخلاق النفس والسيرة الفاضلة جزءان، الدرّة في ما يلزم المسلم جزئين، مختصر الملل والنحل مجلد، الحد والرسم، الرد على أنجيل النصرى، إظهار تبديل اليهود والنصارى للكتابين التوراة والإنجيل وبيان تناقض ما بأيديهم من ذلك مما لا يَحتمل التأويل. صنفه قبل الفصل وضمن أجزاء منه بالفصل، أسماء الله الحسنى .

سادسا اللغة العربية وآدابها: -

طوق الحمامة في الألفة والآلاف. صنفه بشاطبة سنة ٤١٨هـ/١٠٢٧م أو ٤١٩هـ /١٠٢٨م تقريبا طبع عدة مرات في مصر والعالم العربي وترجم إلى الأسبانية والفرنسية والإنجليزية والروسية والألمانية، ديوانه الشعري طبع عدة مرات، قصيدة في أصول فقه الظاهرية. نشرت عدة مرات بالسعودية وعندى منها نسخة، كتاب الإعراب. مائتي وأربع عشرة ورقة نسخ سنة ٧٦١هـ/١٣٦٩م في شستريتي .

أما عن كتبه المفقودة في اللغة العربية: -

دعوة الملل في أبيات المثل وهو مصنف شعري يضم أربعين ألف بيت من الشعر (٤٠ ألف)، رسالة بيان الفصاحة والبلاغة وهي إلى ابن حفصون، شيء في العروض، مؤلف في الظاء والضاد، قطعة بائية، التعقيب على الإفيلبي في شرحه لديوان المتنبي .

(١) أنظر: أجد العلوم، ٢/٥٤٢.

سابعا الطب وكلها في حكم المفقود:-

رسالة في الطب النبوي، مقالة في السعادة، مقالة في شفاء الضد بال ضد، كتاب شرح فصول بقراط، كتاب بلغة الحكيم، كتاب حد الطب، كتاب اختصار كلام جالينوس في الأمراض الحادة، كتاب الأدوية المفردة، مقالة في المحاكمة بين التمر والزبيب، مقالة في النحل.

ثامنا مصنفات في معارف مختلفة:-

كتاب العانس في صدمات، كتاب المرطار في اللهو والدعابة، كتاب أسواق العرب، برنامج ابن حزم (١).

إحراق كتبه ووفاته: ويرتبط بمصنفات ابن حزم حادثة خطيرة طالما تكررت بالأندلس كلما ضاق أهلها باحد ممن يخالفهم من العلماء، وهي إحراق كتبه علانية بإشبيلية، بيد أنها لم تفقد من جراء ذلك، فقد كان له جماعة من تلاميذه النجباء الذين قدروا فكره وحافظوا على كتبه التي كانوا يمتلكونها بنسخها ونشرها بين الناس، ولذا فعندما أحصاها ابن مرزوق اليحصبي وهو من المتأخرين وجدها ثمانين ألف ورقة، وهو نفس إحصاء أبو رافع الفضل في القرن الخامس الهجري /الحادى عشر الميلادى، ويمكن أن نرجع أسباب هذه الحادثة فى الآتى:-

(١) عن هذا الإحصاء انظر ابن حزم، الفصل، ١٣/١، ٢٢٦/٢؛ رسائل ابن حزم، ١/٦-٣، ١٥/١١١، ٨٨، ٣١٩/٤؛ المحلى، ٢/٢٥؛ الفيروزابادى، البلغة فى أئمة اللغة، ص١٤٨؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٨/١٩٣-١٩٧؛ الضبي: بغية الملتمس، ص٢٤٢؛ ابن القيم، الوابل الصيب، ص٧٢؛ النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص١٤١؛ ابن حجر، تهذيب التهذيب، ٧/١٨٥؛ لسان الميزان، ٦/٢١٧؛ السخاوى، الإعلان بالتوبيخ، ص٢٠٢؛ المقرئ، نفع الطيب، ٢/٢٨٤، الشوكاني، إبطال دعوى الإجماع، ص٢٢؛ الزركلى: الأعلام، ٤/٢٥٥؛ T.1 P.247-278, Asin placios:Aben hazam de cordoba , P.7-15 Asin placios: Inexplorado del cordobes ibn hazm , سعيده الأفغانى، ابن حزم ص٥١-٥٩؛ أبو عبد الرحمن ابن عقييل، مؤلفات ابن حزم المفقودة، ص٦٠-٦٢؛ محمد إبراهيم الكنانى، مؤلفات ابن حزم، ص١٠٠-١٠٤؛ صلاح الدين بسيونى؛ الأخلاق والسياسية عند ابن حزم، ص٣١-٤٤؛ عبد الله الزايد، ابن حزم، ص٥٨-٦٠؛ عبد الحليم عويس، ابن حزم، ص١١٠-١١٧؛ أحمد بن ناصر الحمد، ابن حزم، ص٨١.

أولاً: ثقة ابن حزم بنفسه عند منازلة كبار فقهاء المالكية، وعدم تردده في تسفيه آراءهم طالما خالفت الحق .

ثانياً: تنديده بولاية خلف الحصرى للخلافة بإشبيلية، ومبايعته على أنه هشام المؤيد سنة ٣٢٥هـ/١٠٣٣م في عهد محمد بن إسماعيل القاضى والد المعتضد بن عباد (١)، فعندما حل بإشبيلية أوقع به المعتضد أشد إيقاع لما صدر منه من إثارة الناس حول محمد بن إسماعيل رأس الاسرة العبادية .

ثالثاً: معارضة فقهاء المالكية له وسعيهم لدى السلطان للإيقاع به وإثارة العامة ضده (٢)، ومن ثم التقت أغراضهم مع ما كان يرمى إليه المعتضد، فكانت واقعة إحراق كتبه على مسمع ومرأى من الناس .

رابعاً: نزعة ابن حزم الأموية ودعوته لإعادة حكم الأمويين فى الوقت الذى قطع فيه معظم ملوك الطوائف كل صلة بالأموية الأندلسية، وحاول كل واحد منهم أن يحقق استقلالاً سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وثقافياً، خاصة المعتضد الذى ما وافق على خدعة أبيه بعد وفاته بمبايعة خلف الحصرى بإشبيلية على أنه هشام المؤيد إلا ليصغ الشرعية على محاولته الاستقلالية، وليرضى أصحاب النزعات الأموية بإمارته. فلما تحقق له ذلك أعلن وفاة الخليفة المزعوم .

خامساً: أن ابن حزم لم يكن ينظر إلى أمراء عصره ومنهم المعتضد نظرة إكبار فهو وزير ابن وزير، وما كان له أن ينظر إليهم أكثر من نظرتة إلى من دونه أو من ليسوا أكبر منه، وهم يأنفون من ذلك الأمر الذى دفع المعتضد إلى تدبير مؤامرة تجعله ذليلاً لا يشمخ براسه عليه ولا على غيره هى إحراق كتبه .

وبالرغم من هذه المؤامرة التى ألمت بابن حزم فلم يتحقق للمعتضد ما كان يصبو إليه من كسر كبريائه وإذلاله، بل ظل الرجل يشمخ بمكانته وعلمه وعقله هنا وهناك دون ضعف

(١) أنظر: نطق العروس، رسائل ٩٧/٢.

(٢) ابن حزم، رسالتان له أجاب فيهما عن رسالتين، رسائل ١١٦/٣، ١١٥؛ وانظر ابن سعيد، المغرب، ٤٠٥/١.

ولا ذلة، لكنه آثر السلامة وغادر إشبيلية إلى قرينته منت ليشم التي كان يمتلكها ويتردد عليها، وظل بها يمارس التصنيف والتدريس حتى وافته المنية عشية يوم الأحد ٢٨ شعبان ٤٥٦هـ / ١٥ يوليو ١٠٦٣م^(١)، وليس كما ذهب البعض من أن وفاته كانت سنة ٤٥٧هـ / ١٠٦٤م، ولا ٤٥٥هـ / ١٠٦٣م^(٢)، لأن أبا رافع ولد ابن حزم هو الذي كتب التاريخ الذي ذكرناه، وهو الأعلم من أي أحد بتاريخ وفاة والده، فضلا عن أن معظم من ترجم لابن حزم ذكروا سنة وفاته كما ذكرها ابنه الفضل^(٣).

كان ابن حزم قد رثى نفسه قبل وفاته بقليل في أبيات شعرية كأنه أحس بدنو أجله

قائلا :

كأنك بالزوار لي قد تبادروا وقيل لهم أودي على بن أحمد

فيارب محزون هناك وضاحك وكم أدمع تزرى وخذ محدد

عفا الله عنى يوم أرحل ظاعنا عن الأهل محمولا إلى ضيق ملحد

وأترك ما قد كنت مغتبطا به وألقى الذي آنست منه بمرصد

فوارا حتى إن كان زادي مقدما ويانصبي إن كنت لم أتزود^(٤) ويمكن تخيل جنازته

وقد حضرها تلاميذه بقرطبة وأبناؤه وأصحابه من أمثال ابن عبد البر، وابن حيان، وغيرهما ممن تربطه بهم قرابة أو نسب .

وهكذا فقد ذهب ابن حزم إلى مثواه الأخير سائلا الله أن يعفو عنه يوم طعنه إلى

ضيق الملحد، بعد حياة قضاها في كفاح ونضال ضد الجمود والتقليد، قاسى خلالها من

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٨/٢١١؛ وانظر Asin Placios , Aben hazam , T.1 , P. 240, 241 .

(٢) ياقوت، معجم الأدباء، ١٢/٢٤٠؛ وانظر غرسيه غومث، الشعر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط١، ١٩٥٢م، ص١٦.

(٣) صاعد، طبقات الأمم، ص٩٩؛ وانظر ابن بشكوال، الصلة، ٢/٦٠٥؛ ابن سعيد، المغرب، ١/٣٥٥؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٦/٥٦٩؛ Roger Arnoldez Grammaire E theologie conditions de chez ibn hazm de cordove essal sur Las trueture Et les pensee musulmane, liprairie philosophique, Paris, 1956 ,P.19 .

(٤) أنظر: ديوان ابن حزم، ص٩٦ مقطوعة رقم ٢ .

المرارة والاضطهاد والتشريد، ما أنضب معين الرقة واللين لديه .

٢- أبوإرفاع الفضل بن على بن أحمد بن سعيد بن حزم (ت ٤٧٩هـ/١٠٨٦م) أحد أبناء ابن حزم وتلاميذه وهو الذى أتم المحلى لأبيه من كتاب أبيه الإيصال، وكان من الدعاة النشطين لمذهب أبيه.

وكان أبوإرفاع الفضل بن على بن أحمد بن حزم وزيراً للمعتمد بن عباد صاحب إشبيلية (٤٦٢-٤٨٤هـ/١٠٦٩-١٠٩١م)، وكان مقدماً على وزرائه (١) كما كان على صلة قوية بأمرأء الدولة العبادية حتى أن أحدهم طلب منه أن يصنف كتاباً عن تاريخ الأسرة ونسبها فصنف كتابه الموسوم بـ (الهادى إلى معرفة النسب العبادى)، ولاشك أن الفضل كان يتقلب فى الرخاء الاقتصادى بحكم كونه وزيراً للمعتمد، فضلاً عن أملاك أبيه لا سيما قرية منت ليشم .

٣- الوزير عبد الله بن محمد بن أحمد بن العربى المعافى الإشبلى (٤٣٥-٤٩٣هـ / ١٠٤٣م-١٠٩٩م) سيذكر فى الفقهاء .

٤- يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن بن على وزر لأبيه يوسف وكان كل منهما ظاهرى المذهب. سبق ذكره فى الخلفاء .

٥- إبراهيم بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن بن على الكومى (ت ٦١٧هـ) سبق ذكره فى الولاة.

٦- محمد بن محمد بن سهل بن مالك الأزدى الغرناطى الأندلسى الظاهرى (ت ٧٣٠هـ) (٢) وهو غير ابن مالك صاحب الألفية الشهيرة المعروفة بألفية ابن مالك. كان أبوه وزيراً فى مملكة غرناطة مات أبوه سنة ٦٧٠هـ وابن مالك الظاهرى ولد فى بيت معروف بالجلالة والرئاسة والفضل والثروة قدم ابن مالك الظاهرى مصر ودرس على يد كل من الإمام الدمياطى وابن دقيق العيد وابن النحاس وكان ذو فنون وشعر، وكان لا يتعمم بل كان يتطبلس على طاقية وكان شيخاً وقوراً على قول الذهبى وكان كثير النظر فى كتاب

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٣/٣٢٩.

(٢) انظر عنه بالتفصيل توفيق الغليزورى، المدرسة الظاهرية بالمغرب والأندلس، ٣٧١-٣٧٣.

المحلى تأليق ابي محمد بن حزم ويميل إلى مذهبه على قول المقرئى (١).
قرأ بالسبع على ابن ابي الأحوص، وابن الزبير، وبرع فى معرفة الاصطلاب، وكان يلقب
بالوزير .

كان يكثر من الصدقات من أملاكه بالمغرب ويفعل ذلك سرا .
ظاهريته: قال الحافظ الذهبى "من بيت سيادة ووزارة ولد سنة ٦٧٢ هـ... قدم علينا فقرا
الصحيحين فى دون الشهر وكان أثريا ظاهريا" ... (٢).
وقال الإدقوى عن ابن مالك الظاهرى "كان يميل إلى مذهب أهل الظاهر" (٣)
وقال ابن حجر "اشتغل كثيرا ومال إلى مذهب الظاهر" (٤).
قلت: ومعنى يميل إلى ليس معناه كما يتوهم البعض أنه لم يكن ظاهريا لأن أهل
المغرب والأندلس اعتادوا هذه اللفظة وكانوا يعنون بها المعنى الحقيقى من الكلام أى
أنه ظاهرى ويقولون يميل إلى قول داود أى أنه داوودى المذهب أو ظاهرى وهكذا.
وفاته: مات رضى الله عنه بالقاهرة بعد رجوعه من الحج رحمه الله رحمة واسعة.

(١) أنظر: المقفى الكبير، ٢٤/٧.

(٢) أنظر: الذهبى، المعجم المختص بالمحدثين، ص ٢٥٧

(٣) أنظر: ابن قاضى شهبه، طبقات الشافعية، ١٥٠/٢

(٤) أنظر: الدرر الكامنة، ١٧٨/٤.

القضاة من أهل الظاهر

١- القاضي أحمد بن عمرو بن أبي عاصم (٢٠٦ هـ - ٢٨٧ هـ = ٨٢٢ - ٩٠٠ م) حافظ كبير، إمام بارع متبع للآثار، كثير التصانيف. قدم أصبهان على قضائها، ونشر بها علمه. قالت ابنته عاتكة: ولد أبي في شوال سنة ست ومائتين فسمعتة يقول: ما كتبت الحديث حتى صار لي سبع عشرة سنة، وذلك أني تعبدت وأنا صبي، فسألني إنسان عن حديث، فلم أحفظه، فقال لي: ابن أبي عاصم لا تحفظ حديثاً؟! فاستأذنت أبي، فأذن لي، فارتحلت.

وأمه هي: أسماء بنت الحافظ موسى بن إسماعيل التبوذكي، فسمع من جده التبوذكي، ومن والده، ومات والده بحمص على قضائها، في سنة اثنتين وأربعين ومائتين، وله نيف وستون سنة. وكان أخوه عثمان بن عمرو بن أبي عاصم من كبار العلماء قال أبو الشيخ: كان من الصيانة والعفة بمحل عجيب. وقال أبو بكر بن مردويه: حافظ، كثير الحديث، صنف "المسند" والكتب.

قال ابن عبد كويه: سمعت عاتكة بنت أحمد تقول: سمعت أبي يقول: جاء أخي عثمان عهده بالقضاء على سامراء، فقال: أقعد بين يدي الله تعالى قاضياً؟! فانشقت مرارته، فمات. قال ابن عبد كويه: أخبرتنا عاتكة: سمعت أبي يقول: خرجت إلى مكة من الكوفة، فأكلت أكلة بالكوفة، والثانية بمكة. قلت: إسنادهما صحيح.

قال أبو الشيخ: سمعت ابني عبد الرزاق يحكي عن أبي عبد الله الكسائي، قال: كنت عنده - يعني ابن أبي عاصم - فقال واحد: أيها القاضي! بلغنا أن ثلاثة نفر كانوا بالبادية، وهم يقلبون الرمل، فقال واحد منهم: اللهم إنك قادر على أن تطعمنا خبيصاً على لون هذا الرمل. فإذا هم بأعرابي بيده طبق، فوضعه بينهم، خبيص حار، فقال ابن أبي عاصم: قد كان ذلك. قال أبو عبد الله: كان الثلاثة: عثمان بن صخر الزاهد، وأبو تراب، وابن أبي عاصم، وكان هو الذي دعا.

عن محمد بن إبراهيم، عن ابن أبي عاصم قال: صحبت أبا تراب، فقطعوا البادية، فلم

يكن زاد إلا هذين البيتين رويدك جانب ركوب الهوى فبئس المطية للراكب، وحسبك بالله من مؤنس وحسبك بالله من صاحب

وكان ابن أبي عاصم مجوداً للقراءة، وكان يقول: أنا أقدم نافعاً في القراءة، وكان يقول: ما بقي أحد قرأ على روح بن عبد المؤمن غيري - يعني صاحب يعقوب قال ابن مردويه: سمعت عبد الله بن محمد بن عيسى، سمعت أحمد بن محمد بن محمد المديني البزاز يقول: قدمت البصرة وأحمد بن حنبل حي، فسألت عن أفقهم، فقالوا: ليس بالبصرة أفقه من أحمد بن عمرو بن أبي عاصم. قال أبو الشيخ: سمعت ابني عبد الرزاق يحكي عن أحمد بن محمد بن عاصم: سمعت ابن أبي عاصم يقول: وصل إلي منذ دخلت إلى أصبهان من دراهم القضاء زيادة على أربع مائة ألف درهم، لا يحاسبني الله يوم القيامة أني شربت منها شربة ماء، أو أكلت منها، أو لبست.

وأورد هذه الحكاية ابن مردويه، فقال: أرى أني سمعتها من أحمد بن محمد بن عاصم، وقال أبو الشيخ: وسمعت ابني يحكي عن أبي عبد الله الكسائي: سمعت ابن أبي عاصم يقول: لما كان من أمر العلوي بالبصرة ما كان، ذهبت كتبي، فلم يبق منها شيء، فأعدت عن ظهر قلبي خمسين ألف حديث، كنت أمر إلى دكان البقال، فكنت أكتب بضوء سراجي، ثم تفكرت أني لم أستأذن صاحب السراج، فذهبت إلى البحر فغسلته، ثم أعدته ثانياً. قال أبو الشيخ: فولى القضاء بأصبهان مدة لإبراهيم بن أحمد الخطابي، ثم ولي القضاء بعد موت صالح بن أحمد إلى سنة اثنتين وثمانين ومائتين، ثم بقي ويحدث ويسمع منه إلى أن توفي. وكان قاضياً ثلاث عشرة سنة، وكثرت الشهود في أيامه. قال ابن مردويه: عزل سنة اثنتين وثمانين.

قال أبو عبد الله بن خفيف: قال ابن أبي عاصم: صحبت أبا تراب. فكان يقول: كم تشقى ! لا يجيء منك إلا قاضي. وكان بعدما دخل في القضاء إذا سئل عن مسألة الصوفية، يقول: القضاء والدينية والكلام في علم الصوفية محال.

قال أبو الشيخ: كثرت الشهود في أيامه، واستقام أمره، إلى أن وقع بينه وبين علي بن متويه، وكان صديقه طول أيامه، فاتفق أنه صار إلى ابن متويه قوم من المرابطين، فشكوا

إليه خراب الرباطات، وتأخر الإجراء عنهم، فاحتد علي بن متويه، فذكر ابن أبي عاصم حتى قال: إنه لا يحسن يقوم سورة (الحمد). فبلغ الخبر ابن أبي عاصم، فتغافل عنه إلى أن حضر الشهود عنده، فاستدرجهم، وقرأ عليهم سورة (الحمد)، فقومها، ثم ذكر ما فيها من التفسير والمعاني، ثم أقبل عليهم، فقال: هل ارتضيتم؟ قالوا: بلى. قال: فمن زعم أنني لا أحسن تقويم سورة (الحمد) كيف هو عندكم؟ قالوا: كذاب. ولم يعرفوا قصده، فحجر ابن أبي عاصم على علي بن متويه لهذا السبب. فماج الناس، واجتمعوا على باب أبي ليلى - يعني الحارث بن عبد العزيز - وكان خليفة أخيه عمر بن عبد العزيز على البلد، وذلك في سنة ٢٨١ فأكرهه أبو ليلى على فسخه، ففسخه ثم ضعف بصره، فورد صرفه.

قال أبو بكر بن أبي علي: سمعت بعض مشايخنا يحكون أنه حكم بحجره، ووضعه في جونه فأنفذ إليه السلطان، يكرهونه على فسخه، فامتنع حتى منع من الخروج إلى المسجد أياما، فصبر، وكانت الرسل تختلف إليه في ذلك، فيقول: قد حكمت بحكم وهو في جونتي مختوم، فمن أحب إخراج ذلك منها فليفعل من دون أمري. فلم يقدروا إلى أن طيب قلبه، فأخرجه وفسخه.

قال أبو موسى المدني: وجدت بخط بعض قدماء علماء أصبهان، فيما جمع من قضاتها، قال: إبراهيم بن أحمد الخطابي. وافى أصبهان من قبل المعتز، وكان من أهل الأدب والنظر، فلما قدمها صادف بها ابن أبي عاصم، فجعله كاتبه، وعليه كان يعول، ثم وافى صالح بن أحمد بن حنبل من قبل المعتمد، وانقطع القضاة عن أصبهان مدة، إلى أن ورد كتاب المعتمد على ابن أبي عاصم بتوليته القضاء، وكان في رجب سنة تسع وستين ومائتين، فبقي عليها ثلاث عشرة سنة، واستقام أمره إلى أن وقع بينه وبين علي بن متويه زاهد البلد.

قال: وولي بعده القضاء الوليد بن أبي داود.

أبو العباس النسوي: سمعت أبا بكر محمد بن مسلم، سمعت محمد بن خفيف يقول: سمعت الحكيمي يقول: ذكروا عند ليلى الديلمي أن أبا بكر بن أبي عاصم ناصبي فبعث غلاما له ومخلابة وسيفا وأمره أن يأتيه برأسه، فجاء الغلام، وأبو بكر يقرأ الحديث، والكتاب في يده، فقال: أمرني أن أحمل إليه رأسك. فنام على قفاه، ووضع الكتاب الذي

كان في يده على وجهه، وقال: افعَل ما شئت. فلحقه إنسان، وقال: لا تفعل، فإن الأمير قد نهاك. فقام أبو بكر وأخذ الجزء، ورجع إلى الحديث الذي قطعه، فتعجب الناس.

قال أبو بكر بن مردويه: سمعت أحمد بن إسحاق يقول: مات أحمد بن عمرو سنة سبع وثمانين، ليلة الثلاثاء، لخمس خلون من ربيع الآخر وذكر عن أبي الشيخ، قال: حضرت جنازة أبي بكر، وشهدتها مائتا ألف من بين راكب وراجل، ما عدا رجلا كان يتولى القضاء، فحرم شهود جنازته، وكان يرى رأي جهم.

قال أبو الشيخ: سمعت ابني عبد الرزاق يحيى عن أبي عبد الله الكسائي، قال: رأيت ابن أبي عاصم فيما يرى النائم، كأنه كان جالسا في مسجد الجامع، وهو يصلي من قعود، فسلمت عليه، فرد علي، وقلت له: أنت أحمد بن أبي عاصم؟ قال: نعم. قلت: ما فعل الله بك؟ قال: يؤنسني ربي. قلت: يؤنسك ربك؟ قال: نعم. فشهقت شهقة، وانتهت. مصنفاته: جمع جزء فيها فيه زيادة على ثلاث مائة مصنف، رواها عنه أبو بكر القباب، من ذلك: "المسند الكبير" نحو خمسين ألف حديث، و"الآحاد والمثاني" نحو عشرين ألف حديث في الأصناف، "المختصر من المسند" نيف وعشرون ألفا، فذكر نحو من هذا إلى أن عد مائة وأربعين ألفا ونيفا.

شيوخه: أبو الوليد الطيالسي، وعمرو بن مرزوق، وأبو عمر الحوضي، ومحمد بن كثير، ومحمد بن أبي بكر المقدمي، وشيبان بن فروخ، وهديبة بن خالد، ومحمد بن عبد الله بن نمير، وإبراهيم بن محمد الشافعي، ويعقوب بن حميد بن كاسب، وإبراهيم بن الحجاج السامي، والحوطي عبد الوهاب بن نجدة، ودحيم، وهشام بن عمار، وأبو بكر بن أبي شيبة، وعبد الأعلى بن حماد، وكامل بن طلحة الجحدري، وأبو كامل الجحدري، وعبد الله بن محمد بن أسماء، وطبقتهم، وينزل إلى طبقة أبي حاتم الرازي، والبخاري، ويكثر عن ابن أبي شيبة، وابن كاسب، وهشام وسمع من جده لأمه موسى بن إسماعيل كتب حماد بن سلمة، ومن أبي الوليد، والحوضي.

تلاميذه: ابنته أم الضحاك عاتكة، وأحمد بن جعفر بن معبد، والقاضي أبو أحمد العسال، ومحمد بن إسحاق بن أيوب، وعبد الرحمن بن محمد بن سياه، وأحمد بن محمد

بن عاصم، وأحمد بن بندار الشعار، ومحمد بن معمر بن ناصح، وأبو الشيخ، وأبو بكر القباب، وهو آخر أصحابه وفاة، وأبو عبد الله محمد بن أحمد الكسائي.

ظاهريته: قال أبو سعيد بن الأعرابي في كتاب "طبقات النساك" له: فأما أبو بكر بن أبي عاصم، فسمعت من يذكر أنه كان يحفظ لشقيق البلخي ألف مسألة، وكان من حفاظ الحديث والفقهاء، وكان مذهبه القول بالظاهر ونفي القياس.

وقال: أحمد بن عمرو بن الضحاك بن مخلد بن مسلم بن رافع بن رفيع بن ذهل بن شيبان أبو بكر، كان فقيها ظاهري المذهب، ولي القضاء بأصبهان ثلاث عشرة سنة، بعد صالح بن أحمد، توفي فصلى عليه ابنه الحكم.

وقال أبو العباس النسوي: أبو بكر بن أبي عاصم، وهو: أحمد بن عمرو بن الضحاك بن مخلد الشيباني، من أهل البصرة، من صوفية المسجد، من أهل السنة والحديث والنسك والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، صحب النساك، منهم: أبو تراب، وسافر معه، وكان مذهبه القول بالظاهر، وكان ثقة نبيلاً معمرًا.

وقال الحافظ أبو نعيم: كان فقيها، ظاهري المذهب. (١)

وقال الذهبي: في ترجمة أحمد بن بندار الشعار كان أبو بكر - ابن أبي عاصم -

ظاهري المذهب مجتهدا من طبقة داوود بن علي (٢)

٢- القاضي علي بن الحسين بن حرب بن عيسى أبو عبيد بن حربوية البغدادي (ت ٣١٩هـ).

قال ابن يونس: قدم مصر على القضاء فأقام بها دهرا طويلا وكان شيئا عجبا، ما راينا مثله قبله ولا بعده.... عزل عن القضاء سنة إحدى عشر وثلاث مئة، وكان سبب عزله انه كتب يستعفى من القضاء.... إلى أن قال ابن يونس وكان ثقة ثبتا (٣).

(١) أنظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٤٣٠/١٣.

(٢) أنظر: تاريخ الإسلام، السنين من ٣٥١-٣٨٠ هـ، ص ١٨٧.

(٣) البغدادي، تاريخ بغداد، ٣٩٥/١١-٣٩٨.

ومن أقواله في ذم التقليد: ما يقلد إلا عصبى أو غيبى (١).
وقد حمل الفقه الظاهري عن داوود بن علي الظاهري (٢)
وفاته: توفي ليلة الخميس، ودفن يوم الخميس في داره، وصلى عليه أبو سعيد
الإصطخري (٣)

٣- القاضي أبو علي الواسطي محمد بن موسى (ت ٣٢٠هـ) قاضي الرملة، كان عالما فقهيا
مفسرا، تفقه على مذهب أهل الظاهر، وقد رمى بالقدر، وتوفي سنة ٣٢٠هـ بمصر (٤).
٤- قاضي القضاة منذر بن سعيد البلوطي (٣٥٥هـ) (٥) أبو الحكم الأندلسي قاضي
الجماعة ينسب إلى قبيلة يقال لها كزنه وهو من موضع قريب من قرطبه يقال له فحص
البلوط .

رحل إلى المشرق والتقى برجال الفقه واللغة وجلب إلى الأندلس كتاب الأشراف في
اختلاف العلماء لابن المنذر، وكتاب العين للخليل بن أحمد (٦)
ولى قضاء ماردة والثغور الشرقية (٧)، ووضحت مكانته الاجتماعية من خلال
حضوره حفل استقبال عبد الرحمن الناصر لسفراء قسطنطين السابع بقصر الزهراء سنة
٣٣٨هـ/٩٤٩م، وقد عرف منذر كيف يفيد من كل مناسبة كي يزداد رفعة وسلطانا عند
الخليفة، فأصبح أكبر شيوخ عصره بحكم أنه أصبح قاضي الجماعة، وسلم الناس له بذلك
بحكم مركزه الوظيفي (٨)، ولا شك أن مكانته الاجتماعية هذه حققت له رخاء اقتصاديا

(١) نقلا عن الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٥٣٧/١٤.

(٢) السبكي، طبقات الشافعية، ٣٠١/٢.

(٣) البغدادي، تاريخ بغداد، ٣٩٨/١١.

(٤) السيوطي، طبقات المفسرين، ص ١٠٢.

(٥) عنه بالتفصيل أنظر: ابن الغزوي، تاريخ علماء الأندلس، ١/ ٣٧٨، ٣٧٩ ترجمة ٦٥٣؛ وانظر النباهي،

تاريخ قضاة الأندلس، ص ٧٤، ٧٥، الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٦/ ١٧٣ - ١٧٨، ابن غالب، منتقى

فرحة الأنفس، ص ٣٠٢-٣٠٦ .

(٦) القفطي، إنباه الرواة، ٣/ ٣٢٥.

(٧) النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص ٧٤، ٧٥.

(٨) حسين مؤنس، شيوخ العصر، ص ٧٠-٧٢.

وجعلته في مصاف الأثرياء، وإن ظل دائما ينهى عن الإسراف، حتى إنه لم يستطع أن يخفى اعتراضه على ما قام به الناصر من جعل سقف قبة قصره بالزهرء من الذهب، فنقضه الناصر لتوه (١)، وهكذا لم يمنع المنذر منصبه الاجتماعي من توجيه النصح للخليفة بل والاعتراض على بعض أفعاله طالما خالفت تعاليم الإسلام وقيمه

قلت: مات المنذر وهو في منصب القضاة، فكانت ولايته القضاء ست عشرة سنة،

وكانت بينه وبين الإمام أبي علي القالي تلميذ الإمام ابن عرفه الظاهري (نفظويه) مودة وصحبة .

قلت: قال منذر بن سعيد كتبت إلى أبي علي البغدادي أستعير منه كتابا من الغريب وقلت

بحق ربهم مهفهف	...	وصدغه المتعطف
إبعث إلي بجزء	...	من الغريب المصنف
ففضى حاجتي وأجاب بقوله		
وحق در تألف	...	بفيك أي تألف
لأبعثن بما قد حوى	...	الغريب المصنف
ولو بعثت بنفسي	...	إليك ما كنت أسرف (٢)

كان المنذر فقيها محققا وخطيبا بليغا مفوها له اليوم المشهور الذي ملا فيه الاذان وبهر العقول وذلك ان الناصر لدين الله كان مشغوبا بابي علي القالي إسماعيل بن القاسم البغدادي يؤهله لكل مهم فلما دخل ملك الروم لقصر قرطبة تقدم القالي ليقوم خطيبا على العادة الجارية فلما شاهد الجمع العظيم جبن فلم تحمله رجلاه ولا ساعده لسانه وفطن له منذر بن سعيد فوثب في الحال وقام مقامه وارتجل خطبة بديعة جاء فيها اما بعد فان لكل حادثة مقاما ولكل مقام مقالا وليس بعد الحق الا الضلال واني قد قمت في مقام كريم بين

(١) ابن غالب، قطعة من كتاب فرحة الأنفس، تحقيق لطفى عبدالديع، مجلة معه المخطوطات العربية، جامعة

الدول العربية، ربيع أول ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م، مجلد ١ ج ٢ ص ٣١٠، ٣١١.

(٢) نقلا عن المقرئ، نفع الطيب، ٢/٢٠.

يدي ملك عظيم فأصغوا إلى معشر الملاء بأسماعكم ان من الحق ان يقال للمحق صدقت وللمبطل كذبت وان الجليل تعالى في سمائه وتقديس بأسمائه امر كليمة موسى ان يذكر قومه بنعم الله عندهم وأنا اذكركم نعم الله عليكم وتلافية لكم بولاية اميركم التي امننت سربكم ورفعت خوفكم وكنتم قليلا فكثركم ومستضعفين فقواكم ومستذلين فنصركم ولاه الله اياما ضربت الفتنة سرادقها على الافاق واحاطت بكم شعل النفاق حتى صرتم مثل حدقة البعير مع ضيق الحال والتغيير فاستبدلتم بخلافته من الشدة بالرخاء إلى ان قال فناشدتكم الله الم تكن الدماء مسفوكة فحقنها والسبل مخوفة فآمنها والاموال منتهبة فأحرزها والبلاد خرابا فعمر والثغور مهتزمة فحماها ونصرها فاذكروا آلاء الله عليكم إلى أن قال فقد فتح الله عليكم أبواب البركات وتواترت عليكم أسباب الفتوحات وصارت وفود الروم وافدة عليكم يأتون من كل فج عميق وبلد سحيق إلى أن قال :

مقال كحد السيف وسط المحافل أقمت به ما بين حق وباطل

وانشد في آخرها لنفسه:

هذا المقال الذي ما عابه فند لكن صاحبه ازرى به البلد
لو كنت فيهم غريبا كنت مطرفا لكنني منهم فاغتالني النكد
لولا الخلافة ابقى الله بهجتها ما كنت ابقى بارض ما بها احد
فاستحسنوا ذلك وصلب الرسول على وجهه وقال هذا كبش الملك (١)

مصنفاته:

١- كتاب الانباه عن الاحكام من كتاب الله وورد بلفظ الإنباه على استنباط الأحكام في كتاب الله". هذا المصدر أقدم من نقل عنه هو القاضي عيسى بن سهل الجباني (ت. ٤٨٦هـ/١٠٩٣م) في كتابه الموسوم بالتنبيه على شدوذ ابن حزم، وسماه بكتاب الإنباه على استنباط الأحكام من كتاب الله" وهكذا سماه الحميدي تلميذ ابن حزم أو غيره لا أذكر. وقد يذكر كتاب منذر بن سعيد باسم مختصر هو أحكام القرآن وممن

(١) أنظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ابن غالب، منتقى فرحة الأنفس، تحقيق لطفى عبد البديع، ص ٣٠٥ ،

أكثر النقل عنه ابن جزي الأندلسي. وغيره من الأندلسيين.

- ٢- كتاب الابانه عن حقائق اصول الديانة، والأدلة على استنباط الأحكام من كتاب الله (١)
 - ٣- كتاب الناسخ والمنسوخ ومنه أكثر ابن العربي النقل في كتابه الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم.
 - ٤- رسالة إلى بعض إخوانه. مخطوطة وعندي نسخة منها.
 - ٥- رسالة فيما أنكر عليه من تحويل رداؤه. مخطوطة وعندي نسخة منها .
 - ٦- تفسير غريب المدونة ذكره صاحب طبقات المالكية .
- شيوخه ورحلته للمشرق :

سمع بالأندلس من من عبد الله بن يحيى بن يحيى الليثي ونظرته ن ثم رحل للمشرق حاجا سنة ٣٠٨ هـ فاقام أربعين شهرا التقى فيها بـ

١- محمد بن المنذر النيسابوري وأخذ عنه بمكة كتاب الإشراف في اختلاف العلماء، وجلبه للأندلس.

٢- أبو العباس بن ولاد بمصر وروى عنه كتاب العين للخليل بن أحمد .

٣- أبو جعفر أحمد بن محمد بن النحاس النحوى بمصر وله معه حكاية مشهور تدل على فطنته وسرعة بديهته إذ إنه حضر مجلسه فى الإملاء فأملى ابو جعفر مما أملى قول الشاعر :

خليلي هل بالشام عين حزينة	تبكي على نجد لعل أعينها
وهل بائع نفساً بنفس أو الأسى	إليها فأجلاها بذاك حنينها
وأسلمها الباكون إلا حمامة	مطوقة باتت ويات عنها قرينها
تجاوبها أخرى على خيزرانة	يكاد يدنيها من الأرض لينها

فقال له منذر بن سعيد: أيها الشيخ أعزك الله، باتا يصنعان ماذا ؟ فقال ابو جعفر النحاس: وكيف تقول أنت يا اندلسى ؟ فقال له منذر بانت وبان عنها قرينها. فاستبان أبو جعفر ما قال، وقال له ارتفع ولم يزل يرفعه حتى أدناه منه .

(١) أنظر: ابن حزم، رسالة فى فضل الأندلس، رسائل ابن حزم، ١٧٩/٢، وانظر: الذهبى سير أعلام النبلاء .

تلاميذه: بجانب أبنائه الثلاثة نجد أحمد بن قاسم بن عبد الرحمن التاهرتي من أشهر تلاميذه، وهو شيخ الحافظ ابن عبد البر، وكان مختصا بالقاضي منذر بن سعيد وسمع منه مصنفاته كلها .

إخوته: لم نعرف من إخوته سوى فضل الله بن سعيد، وكان قد رحل مع أخيه للمشرق والتقى بابن المنذر، وسمع منه ومن ابن ولاد، وابن النحاس، وتولى قضاء فحص البلوط سنة ٣٣٠هـ، وتوفي سنة ٣٣٥هـ، وورث فيه أخوه المنذر (١) أبناءه :

١ - حكم وكان رأسا للمعتزلة بالأندلس وكبيرهم واستاذهم ومتكلمهم وناسكهم على قول ابن حزم (٢)، وقد وثقه ابن حزم وقال عنه إنه "بعيد من الكذب" (٣).

٢ - عبد الملك كان متهما بمذهب الاعتزال أيضا على حد قول ابن حزم (٤) صلبه المنصور بن ابي عامر لاتهامه أنه وجماعة من الفقهاء والقضاة يبائعون سرا لعبد الرحمن بن عبد الله بن الناصر وقال يوم صلبه "اللهم إن كنت كشفت ستري في الدنيا فلا تكشفه في الآخرة يا ارحم الراحمين" .

٣ - سعيد كان خطيبا بليغا ذكيا نبيا قتل يوم تغلب البرابرة على قرطبة سنة ٤٠٣هـ وقد ذكر ابن حزم واقعة قتله (٥) .

أقوال العلماء فيه :

قال ابن الطيلسان: كان خطيب الأندلس وبلغها مع العلم البار والمعرفة الكاملة والتفنن في العلوم على اختلافها، والدين والورع وكثرة الصلاة والصيام والصلابة في الأحكام والصدع بالحق في جميع الأمور لا يداهن أحدا ولا تأخذه في الله لومة لائم، وكان أعلم

(١) ابن الفرضي، بغية الملتمس، ترجمة ١٢٨٨ .

(٢) أنظر: طوق الحمامة، ص ٤٥ .

(٣) أنظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل .

(٤) أنظر: طوق الحمامة، ص ٤٥ .

(٥) نفسه، ص ٤٥ .

الناس باختلاف العلماء (١).

ذكره امير المؤمنين الحكم المستنصر: فقال كان فقيها فصيحاً خطيباً لم يسمع بالاندلس اخطب منه وكان اعلم الناس باختلاف العلماء شاعراً لبيبا ادبياً له تصانيف حسان جدا وكان مذهبه النظر والجدل يميل إلى مذهب داود بن علي.

وذكره محمد بن حارث القزوي فقال كان من اهل النفاذ والتحصيل متديراً للمناظرة متخلفاً بالانصاف جيد الفهم طويل العلم بليغاً موجزاً يميل إلى طرق الفضائل ويوالي أهلها ويلهج بأخبار الصالحين.

حج سنة ثمان وثلاث مئة فأقام في رحلته اربعين شهراً وانصرف فأدخل الاندلس من علم النظر ومن علم اللغة كتباً كثيرة وامتحنه الناصر يغيراً ما امانته واخرجه رسولاً إلى غير ما وجه فخلص محموداً وأقام بما حمل مشكوراً ثم ولاه قضاء كورة ما ردة ثم ولاه قضاء الثغور الشرقية كلها ثم نقله إلى قضاء القضاة والصلاة بجامع الزهراء.

قال إمامنا أبو محمد بن حزم اخبرني حكم بن منذر بن سعيد اخبرني ابي انه حج راجلاً مع قوم رجالة فانقطعوا وأعوزهم الماء في الحجاز وتاهوا قال فأوينا إلى غار ننتظر الموت فوضعت رأسي ملصقاً بالجبل فإذا حجر كان في قبالته فعالجته فنزعته فانبعث الماء فشرينا وتزودنا.

وقال ابن حزم: وإذا نعتنا عبد الله بن قاسم بن هلال ومنذر بن سعيد لم نجار بهما إلا أبا الحسن ابن المغلس والنخلال والديباجي ورويم بن أحمد وقد شركهم عبد الله في أبي سليمان وصحبته (٢).

وقال ابن حزم: "كان من أخطب الناس وأعلمهم بكل فن وأورعهم، وأكثرهم هزلاً ودعابة" (٣).

قلت: ومن دعابته ما حدث به سعيد ابنه قال قعدنا ليلة من ليالي شهر رمضان

(١) نقلاً عن مجهول، طبقات المالكية، مخطوط بالخزانة العامة بالرياض، رقم ٣٩٢٨، ورقة ٢١٢-٢١٤.

(٢) أنظر: رسائل ابن حزم، ١٨٧/٢.

(٣) أنظر: طوق الحمامة، ص ٤٥.

المعظم مع أئمتنا للإفطار بداره البرانية فإذا سائل يقول أطعمونا من عشائكم أطعمكم الله

تعالى من ثمار الجنة هذه الليلة ويكثر من ذلك فقال القاضي إن استجيب لهذا السائل فيكم
فليس يصبح منا واحد (١) .

وحكى عنه قاسم بن أحمد الجهني أنه ركب يوما لحيازة أرض محبسة في ركب من
وجوه الفقهاء وأهل العدالة فيهم أبو إبراهيم اللؤلؤي ونظراؤه قال فسرنا نقفوه وهو أمامنا
وأمامه أمناؤه يحملون خرائطه وذووه عليهم السكينة والوقار وكانت القضاة حينئذ لا تراكب
ولا تماشي فعرض له في بعض الطريق كلاب مع مستوحمة والكلاب تلعق عنها وتدور حولها
فوقف وصرف وجهه إلينا وقال ترون يا أصحابنا ما أبر الكلاب بالهن الذي تلعقه وتكرمه
ونحن لا نفعل ذلك ثم لوى عنان دابته وقد أضحكنا وبقينا متعجبين من هزله .

وحضر عند الحكم المستنصر بالله يوما في خلوة له في بستان الزهراء على بركة ماء
طافحة وسط روضة نافحة في يوم شديد الوهج وذلك إثر منصرفه من صلاة الجمعة فشكا
إلى الخليفة من وهج الحر الجهد وبث منه ما تجاوز الحد فأمره بخلع ثيابه والتخفيف عن
جسمه ففعل ولم يطف ذلك ما به فقال له الصواب أن تنغمس في وسط الصهريج انغماسة
يبرد بها جسمك وليس مع الخليفة إلا الحاجب جعفر الخادم الصقلي أمين الخليفة الحكم
لا رابع لهم فكأنه استحيا من ذلك وانقبض عنه وقارا وأقصر عنه إقصارا فأمر الخليفة حاجبه
جعفرا بسبقه إلى النزول في الصهريج ليسهل عليه الأمر فيه فبادر جعفر لذلك وألقى نفسه
في الصهريج وكان يحسن السباحة فجعل يجول يمينا وشمالا فلم يسع القاضي إلا إنفاذ أمر
الخليفة فقام وألقى بنفسه خلف جعفر ولاذ بالعود في درج الصهريج وتدرج فيه بعض تدرج
ولم ينبسط في السباحة وجعفر يمر مصعدا ومصوبا فدسه الحكم على القاضي وحمله على
مساجلته في العوم فهو يعجزه في إخلاده إلى القعود ويعابته بإلقاء الماء عليه والإشارة
بالجذب إليه وهو لا ينبعث معه ولا يفارق موضعه إلى أن كلمه الحكم وقال له ما لك لا
تساعد الحاجب في فعله وتنقيل صنعه فمن أجلك نزل ويسيبك تبذل فقال له يا سيدي يا

(١) نقلا عن المقرئ، نفع الطيب، ١٧/٢ .

أمير المؤمنين الحاجب سلمه الله تعالى لا هوجل معه وإنما بهذا الهوجل الذي معي يعقلني ويمعني من أن أجول معه مجاله يعني أن الحاجب خصي لا هوجل معه والهوجل الذكر فاستفرغ الحكم ضحكا من نادرته ولطيف تعريضه لجعفر وخجل جعفر من قوله وسبه سب الأشراف وخرجا من الماء وأمر لهما الخليفة بخلع ووصلهما بصلات سنوية تشاكل كل واحد منهما .

وحكي أن الخليفة الحكم قال له يوما لقد بلغني أنك لا تجتهد للأيتام وأنك تقدم لهم أوصياء سوء يأكلون أموالهم فقال نعم وإن أمكنهم نيك أمهاتهم لم يعفوا عنهن قال وكيف تقدم مثل هؤلاء قال لست أجد غيرهم ولكن أحلني على اللؤلؤي وأبي إبراهيم ومثل هؤلاء فإن أبوا أجبرتهم بالسوط والسجن ثم لا تسمع إلا خيرا (١).

وقال ابن عبد البر حدثت ان رجلا وجد القاضي منذر بن سعيد في بعض الاسحار على دكان المسجد فعرفه فجلس اليه وقال ياسيدى انك لتغرر بخروجك وانت اعظم الحكام وفي الناس الحكوم عليه والرقيق الدين فقال يااخي واني لي بمثل هذه المنزلة واني لي بالشهادة ما اخرج تعرضا للتغرر بل اخرج متوكلا على الله اذ انا في ذمته فاعلم ان قدرة لا محيد عنه ولا وزر دونه.

قال ابن بشكوال منذر بن سعيد خطيب بليغ مصقع لم يكن بالاندلس اخطب منه مع العلم البارع والمعرفة الكاملة واليقين في العلوم والدين والورع وكثرة الصيام والتهجد والصدع بالحق كان لا تأخذه في الله لومة لائم وقد استسقى غير مرة فسقى .

وقال الذهبي: كان فقيها محققا، وخطيبا بليغا مفوها، له اليوم المشهور الذي ملأ فيه الآذان، وبهر العقول، وذلك أن المستنصر بالله، كان مشغوبا بأبي علي القالي، يؤهله لكل مهم، فلما ورد رسول الروم أمره أن يقوم خطيبا على العادة الجارية، فلما شاهد أبو علي الجمع العظيم جبن فلم تحمله رجلاه، ولا ساعده لسانه، وفتن له منذر بن سعيد، فوثب في الحال، وقام مقامه، وارتجل خطبة بديعة، فأبته الخلق، وأنشد في آخرها لنفسه:

هذا المقال الذي ما عابه فند لكن صاحبه أزرى به البلد

(١) المقرئ، نفح الطيب، ١٨٠، ١٩/٢.

لو كنت فيهم غريبا كنت مطرفا لكنني منهم فاغتالني النكد
لولا الخلافة أبقى الله بهجتها ما كنت أبقى بأرض ما بها أحد
فاستحسنوا ذلك، وصلب الرسول، وقال: هذا كبش رجال الدولة.

ومن خطبته إذ ارتجل على أبي علي القالي : أما بعد: فإن لكل حادثة مقاما، ولكل
مقام مقالا، وليس بعد الحق إلا الضلال، وإني قد قمت في مقام كريم بين يدي ملك عظيم،
فأصغوا إلي معشر الملأ بأسماعكم إن من الحق أن يقال للمحق: صدقت، وللمبطل:
كذبت. وإن الجليل تعالى في سمائه، وتقدس بأسمائه، أمر كليمة موسى أن يذكر قومه بنعم
الله عندهم، وأنا أذكركم نعم الله عليكم. وتلافيه لكم بولاية أميركم التي آمنت سربكم،
ورفعت خوفكم، وكنتم قليلا فكثركم، ومستضعفين فقواكم، ومستذلين فنصركم، ولاه الله
(أياما) ضربت الفتنة سرادقها على الآفاق، وأحاطت بكم شعل النفاق، حتى صرتم مثل
حدقة البعير، مع ضيق الحال والتغيير، فاستبدلتم بخلافته من الشدة بالرخاء. .. إلى أن قال:
فناشدتكم الله، ألم تكن الدماء مسفوكة فحقنها؟ والسبل مخوفة فآمنها، والأموال منتهبة
فأحرزها والبلاد خرابا فعمرها، والشغور مهتزمة فحماها ونصرها. فاذكروا آلاء الله عليكم.
وذكر باقي الخطبة (١).

وقال المقرئ: قالوا وكان على متانته وجزالته حسن الخلق كثير الدعابة فر بما ساء
ظن من لا يعرفه حتى إذا رام أن يصيب من دينه شعرة ثار له ثورة الأسد الضاري (٢) .
وقال المقرئ أيضا: وكان منذر متفننا في ضروب العلوم وغلب عليه التفقه بمذهب
أبي سليمان داود بن علي الأصبهاني المعروف بالظاهري فكان منذر يؤثر مذهبه ويجمع كتبه
ويحتج لمقالته ويأخذ به في نفسه وذويه فإذا جلس للحكومة قضى بمذهب الإمام مالك
وأصحابه وهو الذي عليه العمل بالأندلس وحمل السلطان أهل مملكته عليه وكان خطيبا
بليغا عالما بالجدل حادقا فيه شديد المعارضة حاضر الجواب عتيده ثابت الحجة ذا شارة
عجيبة ومنظر جميل وخلق حميد وتواضع لأهل الطلب وانحطاط إليهم وإقبال عليهم وكان

(١) أنظر: سير أعلام النبلاء، ١٦/١٧٤، ١٧٨.

(٢) أنظر: نفح الطيب، ١٧/٢.

- مع وقاره التام - فيه دعابة مستملحة وله نوادر مستحسنة وكانت ولايته القضاء بقرطبة للناصر في شهر ربيع الآخر سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة وليث قاضيا من ذلك التاريخ للخليفة الناصر إلى وفاته ثم للخليفة الحكم المستنصر إلى أن توفي رحمه الله تعالى عقب ذي القعدة من سنة خمس وخمسين وثلاثمائة فكانت ولايته لقضاء (١).

قلت: العلامة المنذر بن سعيد البلوطي قاضى القضاء فى عهد عبد الرحمن الناصر، وأشهر الفقهاء المقربين إلى قلب الناس، والذي وقعت بينه وبين الناصر العديد من المواقف دونها أهل التاريخ وافردوها بالذكر فى كتبهم لما كان لها من الاثر العظيم فى تاريخ الناصر والقضاء والفقهاء خاصة، وتاريخ الأندلس والإسلام بعامة. المنذر رضى الله عنه كان من قبيلة يقال لها: كزنة، وهو من موضع قريب من قرطبة، يقال له: فحص البلوط.

وقد ذكر مؤرخو البربر المنذر بن سعيد البلوطي من جملة فقهاء البربر.

وقد ذكر ياقوت الحموى فحص البلوط والمنذر فى معجم البلدان بقوله "فحص البلوط. ناحية بالأندلس تتصل بجوف أوريط بين المغرب والقبلة من أوريط وجوف من قرطبة يسكنه البربر وسهله منتظم بجبال منها جبل البرانس وفيه معادن الزبيق ومنها يُحمل إلى جميع البلاد وفيها الزنجفر الذي لا نظير له وأكثر أرضهم شجر البلوط. ينسب إليها المنذر بن سعيد البلوطي القاضي بالأندلس وكان أحد أعيان الأمائل ببلاده زهداً وعلماً وأدباً ولساناً ومكانة من السلطان، وقلعة البلوط بصقلية حولها أنهار وأشجار وأثمار وأراضي كريمة تنبت كل شيء.

وذكر العلامة ابن حزم لغة فحص البلوط فى كتابه الأحكام فى الجزء الأول بالمجلد الأول عن الحديث عن كيفية ظهور اللغات فقال "ونحن نجد من سمع لغة أهل فحص البلوط وهي على ليلة واحدة من قرطبة كاد أن يقول إنها لغة أخرى غير لغة أهل قرطبة.

كرامات المنذر وفصائله: قال الحسن بن محمد قحط الناس فى بعض السنين آخر مدة الناصر فأمر القاضي منذر بن سعيد بالبروز إلى الاستسقاء بالناس فصام اياما وتأهب واجتمع الخلق فى مصلى الربض وصعد الناصر فى اعلى قصره ليشاهد الجمع فأبطأ منذر ثم

(١) أنظر: نفع الطيب، ٢/٢٠١.

خرج راجلاً متخشعاً وقام ليخطب فلما رأى الحال بكى ونشج وافتتح خطبته بأن قال سلام عليكم ثم سكت شبه الحسير ولم يكن من عادته فنظر الناس بعضهم إلى بعض لا يدرون ما عراه ثم اندفع فقال (سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة) [الانعام ٥٤] (استغفروا ربكم وتوبوا إليه وتقربوا بالاعمال الصالحة لديه فضج الناس بالبكاء وجأروا بالدعاء والتضرع وخطب فأبلغ فلم ينفذ القوم حتى نزل غيث عظيم واستسقى مرة فقال يهتف بالخلق (يا أيها الناس انتم الفقراء إلى الله) [فاطر ١٥ ١٦] فهيج الخلق على البكاء قال وسمعت من يذكر ان رسول الناصر جاءه للاستسقاء فقال للرسول ها أنا سائر فليت شعري ما الذي يصنعه الخليفة في يومنا هذا فقال ما رأيته قط اخشع منه في يومه هذا إنه منفرد بنفسه لابس اخشن الثياب مفترش التراب قد علا نحيبه واعترافه بذنوبه يقول رب هذه ناصيتي بيدك اترك تعذب الرعية وانت احكم الحاكمين وأعدلهم ان يفوتك مني شيء فتهلل منذر بن سعيد وقال يا غلام احمل الممطرة معك اذا خشع جبار الارض رحم جبار السماء^(١).

وحج مرة راجلاً فانقطع هو من معه وأعوزهم الماء في الحجاز، وتاهوا فأووا إلى غار ينتظرون الموت، فألصق الشيخ رأسه بحجر يدعو الله، ثم عالج ذلك الحجر وخلعه مستعملاً كل قوته، فنبع من فوق الحجر ماء شرب من الناس وتزودوا.

وخطب يوماً فأعجبه نفسه فقال حتى متى أعظ ولا اتعظ وأزجر ولا أزدجر أدل على الطريق المستدلين وأبقى مقيماً مع الحائرین كلا إن هذا لهو البلاء المبين (إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء) [الأعراف ١٥٥] اللهم فرغني لما خلقتني له ولا تشغلني بما تكفلت لي به ولا تحرمني وأنا أسألك ولا تعذبني وأنا أستغفرك يا أرحم الراحمين^(٢).

نصحه للحكام: قال ابن عفيف من أخباره المحفوظة أن أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر عمل في بعض سطوح الزهراء قبة بالذهب والفضة وجلس فيها ودخل الاعيان فجاء منذر بن سعيد فقال له الخليفة كما قال لمن قبله هل رأيت او سمعت ان احدا من الخلفاء

(١) أنظر: الذهبي، مصدر سابق، ابن غالب، فرحة الأنفس، ص ٣٠٥، ٣٠٤.

(٢) المقرئ، نفع الطيب، ٢/٢٠.

قيلي فعل مثل هذا فأقبلت دموع القاضي تتحدر ثم قال والله ما ظننت يا أمير المؤمنين ان الشيطان أحزاه الله يبلغ منك هذا المبلغ ولا أن تمكنه من قيادك هذا التمكين مع ما آتاك الله وفضلك على العالمين حتى انزلك منازل الكفار فاقشعر عبد الرحمن من قوله وقال انظر ما تقول كيف أنزلى منازل الكافرين فقال قال الله عزوجل (ولولا ان يكون الناس امة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة إلى قوله والاخرة عند ربك للمتقين) [الزخرف ٣٣ ٣٤] فكس الناصر رأسه طويلا ودموعه على لحيته تجرى خشوعا لله تعالى وتذمما إليه ثم أقبل على منذر وقال جزاك الله عنا خيرا وعن المسلمين وكثر في المسلمين أمثالك فالذي قلت هو الحق وقام من مجلسه وهو يستغفر الله وامر بنقض سقف القبة وأعاد قراميدها ترابا (١).

وقد استغرق مرة في خطبته بجامع الزهراء فأدخل فيها (أتبنون بكل ربيع اية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون وإذا بطشتم بطشتم جبارين) [الشعراء ١٢٨ ١٣٠]. منتقدا عبد الرحمن الناصر لدين الله نقداً لا ذعاً مبطناً من على المنبر في خطبة الجمعة بسبب إسرافه في الإنفاق على بناء مدينة الزهراء، فتأذى من ذلك النقد عبد الرحمن حيث أسر لابنه الحكم قائلاً: «والله لقد تعمدي منذر بخطبته، وما عني بها غيري، فأسرف عليّ وأفرط في تقريعي وتفزيعي، ولم يحسن السياسة في وعظي، فزعزع قلبي وكاد بعصاه يقرعني». وقد أقسم أن لن يصلي خلفه صلاة الجمعة بعدئذ، ولم يلجأ إلى عقاب القاضي أو مسه بأي ضرر، بعد أن قال له ولده الحكم: «وما لذي يمنحك والإستبدال به؟»، زجره ونهره قائلاً له: «أمثل المنذر بن سعيد في فضله وخيره وعلمه؟ لا أم لك. يعزل لإرضاء نفس ناكبة عن الرشد سالكة غير القصد، وهذا ما لا يكون. وإني لأستحي من الله ألا أجعل بيني وبينه في صلاة الجمعة شفيعاً مثل المنذر في ورعه وصدقه، ولكنه أخرجني، فأقسمت وودت أن أجد سبيلاً إلى كفارة يميني بملكي، بل يصلي بالناس حياته وحياتنا إن شاء الله، فما أظننا نعتاض منه أبداً (٢).

(١) أنظر: ابن غالب، فرحة الأنفس، ص ٣٠٣، ٣٠٢.

(٢) المقرئ، نفع الطيب، ١٨/٢.

قلت: وقد تخير الناصر لخطابة الزهراء أحمد بن مطرف إذا حضر الناصر.

شعره في ذم التقليد :

عديري من قوم يقولون كلما
طلبت دليلا هكذا قال مالك
وإن عدت قالوا هكذا قال أشهب
وقد كان لا يخفى عليه المسالك
وإن زدت قالوا قال سحنون مثله
ومن لم يقل ما قاله فهو آفك
فإن قلت قال الله ضجوا أو أكثروا
وقالوا جميعا أنت قرن مباحك
وإن قلت قد قال الرسول فقولهم
أنت مالكا في ترك ذاك المسالك (١)
من أقواله في الفقه: تزكي سائمة الإبل وغير السائمة منها سواء سواء (٢).

ومنها إثبات إمامة علي بن أبي طالب في جملة الراشدين ورده على من لا يرى ذلك، وقد وقع له وهو قاض أنه طالع أرجوزة لابن عبدربه ذكر فيها الخلفاء وجعل معاوية رابعهم ولم يذكر عليا فيهم ثم واصل ذكر الخلفاء إلى عبد الرحمن بن محمد فغضب المنذر وسب ابن عبدربه وكتب في حاشية الكتاب :

أو ما على لا برحت ملعنا يا ابن الخبيثة عندكم بإمام.

رب الكساء وخير بل محمد ... داني الولاء مقدم الإسلام (٣)

من أقواله في المعتقد: قال المنذر بن سعيد النار لم تخلق حتى الآن (٤)

من أقواله في اللغة والتفسير :

ذكر منذر بن سعيد أن الإملاق الإنفاق يقال أملك ماله بمعنى أنفقه وذكر أن عليا رضي الله عنه قال لامرأته أملقي من مالك ما شئت ورجل ملق يعطي بلسانه ما ليس في قلبه (٥)

(١) نقلا عن ابن عبدبر، جامع بيان العلم وفضله .

(٢) أنظر: ابن حزم، المحلى، مسألة ٦٧٨.

(٣) نقلا عن المقرئ ن نفح الطيب، ٥١٢/٢، ٥١١.

(٤) أنظر: تفسير القرطبي ٢٣٦/١.

(٥) أنظر: تفسير القرطبي ١٣٢/٧.

وذهب منذر بن سعيد إلى أن قفا وقاف مثل جبد وجذب (١)

وحكى القاضي منذر بن سعيد أن بعضهم قرأ أفظن بالألف وذلك في قوله تعالى
"فظن أن لن نقدر عليه" (٢)

وقال المنذر في قوله تعالى "ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو تسلمون" قال إنهم أهل الردة من بني حنيفة وغيرهم الذين قاتلهم أبو بكر الصديق، وقد جعل الله حكمهم القتل أو الإسلام، ولم يذكر الجزية، وهذا لا يوجد إلا في أهل الردة (٣).
المنذر بن سعيد البلوطي والاعتزال: ذكر ابن حزم أن المنذر كان متهما بمذهب الاعتزال (٤)، واتهمه ابن العربي المالكي عدو الظاهرية وخصمها اللدود بأنه أتى ببدعة القدرية من المشرق في الاعتقاد، ونحلة الداودية في الأعمال (٥)، ولم يتيسر لنا أن نقف على صحة قول ابن العربي إذ إن جل مصنفات المنذر مفقودة إلا رسالتين صغيرتين، ومشهور عن ابن العربي تعصبه فلا يمكن أن نثق في كلامه، لا سيما مع حكم ابن حزم المهم أن المنذر كان متهما، ولم يقل كان معتزليا .

وفاته: توفي في ذي الحجة سنة خمس وخمسين وثلاثمائة، وذكر بعضهم ان مولده سنة خمس وستين ومئتين فيكون عمره تسعين سنة كاملة رحمه الله تعالى، وصلى عليه ابنه عبد الملك (٦).

٥- القاضي أبو نصر يوسف بن عمر بن محمد بن يوسف بن يعقوب بن إسماعيل الأزدي (ت ٣٥٦هـ)

قال الشيرازي (ت ٤٧٦ هـ) "وانقرض هذا المذهب ببغداد وبقي بشيراز جماعة من

(١) أنظر: تفسير القرطبي ٢٥٨/١٠

(٢) أنظر تفسير القرطبي ٣٣٢/١١

(٣) نقلا عن ابن جزى، التسهيل لعلوم التنزيل، ٥٣/٤

(٤) أنظر: طوق الحمامة، ص ٤٥

(٥) أنظر: العواصم من القواصم، ٤٩٣/٢

(٦) المقرئ، نفع الطيب، ٢٢/٢

أصحاب أبي الفرج الفامى... وذكر القاضي أبو بكر ابن الأخضر في "أخبار أهل الظاهر" أن أبا نصر يوسف بن عمر بن محمد بن يوسف انتقل من مذهب مالك إلى مذهب داود وتقدم فيه، وتمم كتاب "الإيجاز" لمحمد بن داود، ومولده سنة خمس وثلاث مئة، ووفاته سنة ست وخمسين وثلاث مئة، وقد ذكرته في أصحاب مالك (رضي الله عنهم أجمعين) "(١)". اهـ. ونقل هذا النص أيضاً القاضي عياض في "ترتيب المدارك".

قلت: وهو من أهل بغداد وولى قضاءها وكان أبوه قاضياً عليها، وكذا جده وأبو جده فهو من أعرق الناس في القضاء، وكان أديباً كاتباً شاعراً عالماً باللغة وأسرارها . وذكر ابن حزم أن له في الظاهرية تواليف كثيرة واحتجاجات، وكان جده صاحباً لمحمد بن داود ولعله أخذ الظاهريه عنه أو تأثر به .

ومن قوله في رسالة له يذكر فيها تحوله من مذهب مالك على مذهب الظاهرية "لسنا نجعل من تصديره في كتبه ورسائله بقول سعيد بن المسيب و الزهري وزمعة، كمن تصديره في كتبه ومسائله بقول الله ورسوله وإجماع الأئمة هيئات هيئات" (٢).

٦- القاضي أبو العباس أحمد بن محمد بن صالح المنصوري: سكن العراق وفارس وكان إماماً على مذهب داود الظاهري. قال ابن النديم من أفاضل الداوديين، له كتب جليلة حسنة منها كتاب المصباح كبير، كتاب الهادي، كتاب النير أخذ العلم عن مملوك أبيه الذي اعتقه فخرج إلى بغداد وتعلم وعاد إلى سيده المنصوري (٣). وقال الحاكم "كان من أظرف من رأيت من العلماء". انصرف من خراسان إلى أرجان حيث تولى قضاءها عام ٣٦٠هـ (٤).

٧- القاضي أبو عمر عبيد الله بن أحمد بن الحسين بن السمسار (ت ٣٦١هـ). من تلاميذ محمد بن داود الظاهري، نزل مصر، وكان كثير الخدمة للملوك والأمراء مغرماً بقضاء

(١) أنظر: طبقات الفقهاء، ١٧٩ .

(٢) الذهبي، تاريخ الإسلام، السنين ٣٥١-٣٨٠هـ، ص ١٥٤ .

(٣) أنظر ك الفهرست، ص ٣٠٢ .

(٤) مازن البحصلي، طبقات أهل الظاهر، ص ٦٦ .

حوائج الناس، وكان يتولى سوق الرقيق^(١).

٨- القاضي ابن اخت وليد العلامة القاضي (ت ٣٦٩هـ) أبو محمد عبد الله بن احمد بن راشد بن شعيب البغدادي الظاهري ابن اخت وليد حدث عن ابي قتيبة العسقلاني وغيره، وحدث عنه علي بن منير وابن نظيف الفراء ومحمد بن جعفر بن ابي كان اولاً خياطاً ثم اشتغل وولي قضاء مصر سنة ثم عزل سنة ثلاثين وثلاث مئة ثم ولي قضاء دمشق سنة ثمان واربعين.

قال ابن حزم له مصنفات كثيرة اخذ عن ابي الحسن بن المغلس.

قال الذهبي: لم يحمده في القضاء وبذل فيه ذهباً وقيل كان سخيلاً خليعاً يرتشي.

وقال ابن زولاق تكبر واستهان بالناس وكان يهزل في مجلسه وله اموال ومتاجرة وكان يقول لحاجبه ابن اليهود يعني الشهود وابن الكمنا يعني الامناء وقالت امرأة خذ بيدي قال وبرجلك وكان الذهلي لا ينفذ له حكماً مات سنة تسع وستين وثلاث مئة^(٢).

٩- أبو القاسم عبيد الله بن علي بن الحسن بن محمد بن عمر بن حزم النخعي الكوفي (ت ٣٧٦هـ).

فقيه الداوودية بخراسان وقيل عنه شيخ أهل الظاهر في عصره، سمع الحديث بالعراق ومصر وأكثر من السماع، توفي ببخارى وكان قد سكنها قبل وفاة في جمادى الأولى سنة ٣٧٦هـ^(٣).

١٠- القاضي أبو الفرج الفامي الشيرازي: أخذ العلم عن بشر بن الحسين وكان إماماً في مذهب داود وعنه أخذ فقهاء شيراز مذهب أهل الظاهر وكان نظاراً شافياً الكلام على مذهب المعتزلة. قال الشيرازي: وكنت أناظره بشيراز وأنا صبي^(٤).

١١- أبو سعيد بشر بن الحسين الشيرازي (ت ٣٨١هـ). كان إماماً في أصحاب داود وأخذ

(١) الذهبي، تاريخ الإسلام، السنين ٣٥١-٣٨٠هـ، ص ٢٨١.

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٢٢٥/١٦، ٢٢٦.

(٣) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ١٥١/٤.

(٤) أنظر: طبقات الفقهاء، ص ١٧٩.

العلم عن علي بن محمد البغدادي صاحب ابن المغلس، قدمه عضد الدولة للقضاء وولاه الخليفة العباسي الطائع قضاء القضاة سنة ٣٦٩هـ، ثم عزل في سنو وفاته ٣٧٦هـ، وتوفى بشيراز وهو في السبعين من عمره (١).

١٢- أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إبراهيم بن البختری الظاهري. روى علم ابن المغلس الظاهري، ومن تلاميذه الذين رووا عنه التنوخي، والصاحب بن عباد، وكان قاضيا للقضاة، وله شهرة بمدينة السلام (٢).

١٣- القاضي أبو الحسن عبد العزيز بن أحمد الخزري شيخ الظاهرية ببغداد (ت ٣٩١هـ) (٣) أبو الحسن عبد العزيز بن أحمد الأصفهاني الحزري أحد علماء الداوديين في عصر ابن النديم والمتمكنين من المذهب من أفاضل أصحابه ومصنفهم وولاه عضد الدولة قضاء الربع الاسفل من الجانب الشرقي من مدينة السلام والى وقت تصنيف ابن النديم لكتاب الفهرست وهو سنة سبع وسبعين وثلاثمائة وله من الكتب كتاب مسائل الخلاف (٤).

قال السمعاني: الخزري: بفتح الخاء المعجمة والراء وبعدها الزاي .. وهذه النسبة إلى الخرز وبيعها وهم جماعة منهم أبو الحسن أحمد بن نصر بن محمد الزهيري الخزري البغدادي من أهل بغداد نزيل نيسابور في المدينة الداخلة (٥) .. وذكر الحاكم أبو عبد الله الحافظ وقال أبو الحسن الخزري البغدادي نزيل نيسابور في المدينة الداخلة سمعته غير مرة يذكر سماعه من أبي عبد الله بن مخلد وأبي عبد الله المحاملي .. أخذ الخزري العلم عن

(١) أنظر: الشرازي، طبقات الفقهاء، ص ١٧٧؛ الذهبي، ٣٨١-٤٠٠، ص ٣٠. تاريخ الإسلام، السنين

(٢) الصفدي، الوافي بالوفيات، ٨١/٧.

(٣) نفسه، ٤٨٨/١٦. انظر ترجمته في: تاريخ بغداد (١٠/٤٦٦)، الفهرست (ص ٢٧٣)، المنتظم (١٥/٣٠)، الكامل في التاريخ (٧/٥٢٣)، البداية والنهاية (١١/٣٣٠)، تاريخ الإسلام [حوادث ووفيات ٣٨١. ٤٠٠] (ص ٢٥٦)، تذكرة الحفاظ (٣/١٠٢٣)، العبر (٢/١٨١)، مرآة الجنان (٢/٤٤٢)، شذرات الذهب (٣/١٣٧).

(٤) أنظر: تراجم هؤلاء في الفهرست، ص ٣٠٥-٣٠٧.

(٥) الأنساب، ٣٤٤/٢-٣٤٥.

بشر بن الحسن .

قال أبو عبد الله الصِّيمَرِي: أبو عبد الله الصيمري الحنفي فيه وفي أبي حامد الاسفرائيني ما رأيت انظر منهما وجاء الى بغداد هو والقاضي أبو بكر الباقلاني الأشعري في صحبة عضد الدولة من شيراز وأخذ عنه فقهاء بغداد من أهل الظاهر وأخذ عنه ابن له وكان يناظر وأخذ عنه القاضي أبو بكر محمد بن عمر بن محمد بن اسماعيل ابن عبيد الله ابن الأخضر وكان من أجلاء شهود قاضي القضاة ببغداد وعن أبي الحسن الخريزى أخذ القاضي أبو علي الداوودي قاضي فيروز آباد .

وقال أبو إسحاق الشيرازي: كان نظاراً ... وعنه أخذ فقهاء بغداد من أهل الظاهر وأخذ عنه ابن له رأيته وكان يناظر (١).

قلت: من قول الشيرازي تتضح عظمة أهل الظاهر في ذلك الزمن وكثرتهم حتى شغلوا كتاب السير والتراجم .

وقال الخطيب: كان فاضلاً، فقيه النفس، حسن النظر، جيد الكلام، ينتحل مذهب داود بن علي الظاهري.

وقال الخوارزمي: ما رأيت الخريزى كلم خصماً له قط وناظره فانقطع .

وقال ابن كثير: كان ظاهرياً على مذهب داود، وكان لطيفاً .

وقال الذهبي: الفقيه، إمام أهل الظاهر في عصره .

قال ابن الجوزي: كان يقضي بالمخرم وحريم دار الخلافة وباب الأزج والنهروانات وطريق خرسان، وكان على مذهب داود الأصفهاني، وتقدم إليه وكيلان في خصومة فاحتكما فبكى أحدهما، فقال القاضي: أرني الوكالة فأراه إياها فتأملها، ثم قال: ما رأيت فيها أنه جعل إليك أن تبكي عنه، فنهض الوكيل وضحك الحاضرون .

وقال الشيرازي: هو القاضي الخريزى أيده الله أبو الحسن عبد العزيز بن أحمد الأصفهاني .. جاء إلى بغداد هو والقاضي أبو بكر الباقلاني الأشعري في صحبة عضد الدولة من شيراز .. أخذ العلم عن بشر بن الحسن، وأخذ العلم عن فقهاء بغداد من أهل الظاهر ..

(١) أنظر: طبقات الفقهاء، ص ١٧٨ .

وأخذ عنه ابن له رأيته وكان يناظر .. وأخذ عنه القاضي أبو بكر محمد بن عمر بن محمد بن إسماعيل بن عبيد الله بن الأخضر وكان من أجلاء شهود قاضي القضاة ببغداد .. وأخذ عنه القاضي أبو علي الداودي قاضي فيروز آباد (١) ..

قال ابن تميم الظاهري (٢) .. وابن الأخضر هذا أظنه هو صاحب كتاب أخبار أهل الظاهر .. وهو كتاب لا أظن أنه موجود كمخطوط والله أعلم .. وهو الذي حكى الحكاية التي وقعت بعد وفاة الإمام داود للإمام محمد بن داود حين استصغروا سنه ..

قلت: حكى القاضي أبو الحسن الخرزى إن أبا بكر - يعني الإمام محمد بن داود - لما جلس بعد وفاة أبيه في حلقة يفتي استصغروه فدسوا إليه رجلا فقالوا له سله عن حد السكر فأتاه الرجل فسأله عن حد السكر ما هو ومتى يكون الإنسان سكران فقال محمد إذا غربت عنه الهموم وباح بسره المكنون فاستحسن ذلك منه وعلم موضعه من العلم (٣).

وهذا تساؤل عن لى وأنا أنقب فى بعض الأفكار حول الظاهرية وأصل هذا التساؤل يرجع إلى بضعة سنوات حيث كان أحد أصحابنا يتم بحثه للماجستير وكان عن القضاء فى عهد بنى بويه وكنت قد لفت نظره إلى ضرورة الاهتمام بالمذهب الظاهرى خلال فترته إذ كانت مزدهرة بجماعة من الظاهرية وعلى رأسهم القاضى عبدالعزيز بن أحمد، أبو الحسن الخرزى الظاهري المهم تكاثرت الأسئلة والمناقشة حول الموضوع وكان من أبرز الأسئلة التى وجهتها له كى يحلق حولها فى دراسته ما السبب فى اختيار عضد الدولة البويهى الشيعى الإمامى لقاض ظاهرى كالخرزى؟ فأنا شخصيا كنت فى حيرة تجاه هذا الأمر، وكذا احتار صاحبى حيرة شديدة خاصة بعد أن حدثته عن مواطن الخلاف بين الشيعة كأهل باطن وكذب وتدليس، وبين أهل الظاهر الذين لا يحددون عن النصوص. طرحت على الباحث وقتها وجهة نظر يبدأ بها التحليل وهى هل هناك علاقة بين نفى الإمامية للقياس، ونفى الظاهرية له أيضا

(١) طبقات الفقهاء، ص ١٧٧.

(٢) أحد إخواننا من الظاهرية النشطين، له كتابات عديدة على موقع الظاهرية، حول القياس والمجاز، وله جهد مضى فى الرد على تساؤلات الظاهرية وغيرهم من المعجبين بالمذهب، شغل نفسه فى هذه الأيام بتصنيف كتاب عن تاريخ الظاهرية، وهو الآن عام ٢٠٠٨ م مدير إدارة موقع الظاهرية.

(٣) أنظر: الشيرازى، طبقات الفقهاء، ص ١٧٦-١٧٧ ..

هل هذا منطلق للإجابة على التساؤل؟ أم أن ازدهار المذهب الظاهري وقتها كان سببا آخر؟ أم أن الحرية الفكرية التي كان ينشدها عضد الدولة البويهى كانت من وراء توليته لقاض ظاهري؟ أم كان للخزى تأثير كبير فى المجتمع كظاهري وقتها الأمر الذى دعا عضد الدولة لاختياره كقاضى. وتركت الباحث يحاول ان يصل لحل هذا الأمر لكن لأنه ليس ظاهريا وإنما هو محب لابن حزم فحسب لم أره اتى بجديد تجاه هذا الأمر سوى ما ذكرته له.

وفاتة: قال السمعاني: مات فى جمادى الآخرة سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة (١).. وقال الخطيب حدثني هلال بن المحسن الكاتب قال توفي القاضى أبو الحسن الخزى فى يوم الجمعة الخامس من جمادى الآخرة سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة (٢) وقال الخطيب .. أنه تولى القضاء على جازر .. وتولى القضاء على تكريت (٣) ..

١٤- القاضى أبو بكر محمد بن عمر الداوودى أخذ عن القاضى الخزى القول بالظاهر.

١٥- أبو على الداوودى قاضى فيروزآباد تلميذ الخزى وعنه أخذ القول بالظاهر

١٦- أحمد بن محمد بن شعيب الداوودى: ذكر ابن زولاق أنه عين قاضيا، وكان بنى الجند إلا أنه لازم الاشتغال بالعلم، وقد ألبسه ابن وليد الطيلسان والقلنسوة وأجلسه للنظر بين الناس (٤)

١٧- أبو القاسم عمر بن محمد بن نظيف القاضى الحرقي (ت ٤١٣هـ). من أهل شيراز كان فقيها على مذهب داود بن على الظاهري، قال محمد بن عبدالعزيز القصار الشيرازى فى كتابه "طبقات الشيرازيين" كان قاضيا ببغداد سنين يناظر على مذهب داود، ومات بشيراز فى جمادى الآخرة سنة ٤١٣هـ (٥).

١٨- أبو القاسم على بن الحسن الهروى القاضى الداوودى (ت ٤١٨هـ) قال الذهبى

(١) الأنساب ٣٤٥/٢

(٢) تاريخ بغداد، ٤٦٦/١٠ ..

(٣) أنظر: تاريخ بغداد، ١٤/١١، ٣١.

(٤) نقلا عن: ابن حجر، رفع الإصر عن قضاة مصر، ٧٥/١.

(٥) نقلا عن ابن النجار، ذيل تاريخ بغداد، ١٢١/٥.

مصنف التفسير (١)

١٩- أبو القاسم علي بن عبدالعزيز بن أحمد الخرزى، ولد القاضى الخرزى لما توفى والده ولى على القضاء ببغداد يوم الاثنين ٢٩ جمادى الآخرة سنة ٣٩١هـ، وبقي فترة ثم عزل عن القضاء، وولى نظر البيمارستان، أخذ القول بالظاهر عن والده وكان يناظر عليه (٢)

٢٠- القاضى ابن الأخضر محمد بن عمر بن إسماعيل الظاهرى (ت ٤٢٩هـ): قال الذهبي: "محمد بن عمر بن محمد القاضى، أبو بكر بن الأخضر الداودى الفقيه ببغدادى ثقة إمام. سمع أبا الحسن بن لؤلؤ، وأبا الحسين بن المظفر، وجماعة. وثقه الخطيب وروى عنه. عاش ستاً وسبعين سنة." (٣) اهـ.

قلت: وسمع ابا الحسن الدارقطنى، ومحمد بن عبد الله بن أيوب القطان، ومحمد بن عبد الله بن الشخير، وابا حفص بن شاهين .

وقال الشيرازى: أخذ عن القاضى الخرزى وكان من أجلاء شهود قاضى القضاة ببغداد(٤)

وقال الخطيب البغدادى: كتبت عنه، وكان ثقة يسكن بالجانب الشرقى من ناحية الحطابين، وسألته عن مولده فقال: ولدت فى سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة، ومات فى ليلة الخميس السابع من شوال سنة تسع وعشرين واربعمائة، ودفن من الغد (٥)

٢١- أبو عبد الله محمد بن علي بن عبد الرؤوف صاحب ابن حزم الظاهرى (ت ٤٢٤هـ / ١٠٣٢م) صاحب أحكام المظالم كان من أشد الأصحاب مدافعة عن ابن حزم وفكره ضد المعارضين .

٢٢- القاضى ابن حزم الظاهرى (ت ٤٥٦هـ) علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب أبو

(١) أنظر: تاريخ الإسلام، السنين من ٤٠١-٤٢٠هـ، ص ٤٥٠.

(٢) الصفدى، الوافى بالوفيات، ٢١/٢٣٩، ٢٣٨.

(٣) أنظر: تاريخ الإسلام، وفيات ٤٢١-٤٣٠ هـ .

(٤) أنظر: طبقات الفقهاء، ص ١٧٨.

(٥) أنظر: تاريخ بغداد، ٣/٣٨.

محمد الشهير بابن حزم الظاهري الأندلسي^(١) سبق ذكره في الوزراء .

قلت: ذكر ابن حزم رضى الله تعالى عنه أنه فى سنة ٤٢٢هـ/١٠٣٠م قضى بالميراث لمحمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن ودفعه إليه، على أثر وفاة محمد بن عبيدالله بن عبد الله بن مروان^(٢) فهذا النص يوضح أن ابن حزم كان متولياً ولاية القضاء، حيث قضى فى حكمه بدفع الميراث إلى محمد بن عبد الملك، وأن ذلك كان فى عهد المعتمد بالله آخر خلفاء بنى أمية بالأندلس وكان ابن حزم له وزيراً.

وقد شكك بعض إخواننا المغاربة من أهل الظاهر فى تولية ابن حزم لمنصب القضاء بحجة أن الفقهاء الذين يتولون القضاء يسمون: بالفقهاء المشاورين .

فأجبناه قديماً على دارة أهل الظاهر وهذا نص قولنا :

ليس معنى صدور اطروحة عن الفقهاء المشاورين وعدم ذكر ابن حزم فيهم انه ليس بقاض. بل إن نص عمله كقاضى ذكره ابن حزم نفسه، وقد تغافل عنه المتخصصون اصلاً. فكيف بمن يدرس الفقهاء جملة دون تركيز على ابن حزم او جماعة من المشاورين، وعموما بشأن الفقهاء المشاورين لن أطيل فيها كثيراً ولكن اوضح حقيقة وهى أن من زعم أن الفقهاء المشاورين يكونون عادة مرشحو لولاية القضاء هو المستشرق الفرنسى ليفى بروفنسال، وكلامه غير مسلم به إذ إن تراجم الفقهاء المشاورين أماننا، وتراجم القضاء كذلك وليس فى تراجم القضاة دليلاً واحداً على مشاركة الفقهاء للقاضى فى مجلسه. كما انه ليس فى التراجم ما يوضح ان الفقهاء كانوا من صغار اهل العلم بل كانوا من الكبار، ومن ثم اخى الحبيب فالربط بين الفقهاء والقضاء امر لا يسلم به ابداً. لان هيئة الفقهاء المشاورين كانت تكون باختيار الامراء ليستشيرونهم فيما يعرض عليهم من مشاكل، ولكى يستشيرهم القضاة أيضاً، وقد يختارهم القاضى نفسه ولكن بموافقة الامير. وكان للفقهاء مهام أيضاً منها أن الحاكم يستشيرهم فى اختيار قاضى الجماعة، وفى احيان أخرى يعين الحاكم القاضى دون أخذ

(١) عنه بالتفصيل أنظر الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٨ / ١٨٤-٢١٣، وانظر كتابنا ابن حزم الظاهري وأثره فى المجتمع الأندلسي، وهو أطروحتنا للماجستير .

(٢) أنظر: جمهرة أنساب العرب، ص ٥، ٦.

رايهم. وفي أحيان أخرى نرى القاضى يرفض رأى المفتى او المشاور وتطول المناقشة بينهما فيغضب المشاور وينصرف وينفذ القاضى حكمه مثل ما دار بين القاضى يحيى بن معمر الألهانى وعبد الملك بن حبيب المفتى المشاور. المهم أن الفقهاء المشاورين كانوا هيئة إفتاء يستأنس بهم الحاكم، والقاضى؛ وقد قلنا إن ابن حزم كان قاضيا، وليس فقيها مشاورا. بارك الله فيك ووفقك لما يحبه ويرضى.

٢٣- أبو محمد عبد الله بن إسماعيل الإشبيلي (ت ٤٩٧هـ) كان من أهل العلم التام والحفظ للحديث والفقهاء يميل فى فقهه إلى النظر وظاهر الحديث، ولى قضاء أغمات ثم انتقل لقضاء (الحضرة) مراكش، وكان حسن السيرة والمخاطبة، وكثيرا ما كان يقول للأعوان وهم يطبقون حكمه بالسجن على المسجون "خذوا بيد سيدى إلى السجن"، وله تصنيفان فى شرح المدونة، ومختصر لابن أبى زيد (١).

قلت: وشأن المالكية كالقاضى عياض وغيره أن يترجموا لأهل الظاهر على أنهم مالكية، رغم اشتهاؤهم من أهل الظاهر، إما باتباعه لفقهاء داوود، أو بثبات عمله بظاهر الحديث أو ما شابه ذلك، وما موقف محمد بن عمر بن الفخار منا ببعيد فقد اعتبره القاضى عياض من أئمة المالكية رغم ما ذممه عنه من قوله بفقهاء داوود.

٢٤- أبو موسى عيسى بن عمران بن دافال المكناسى التازى (ت ٥٧٨هـ) من أهل مكناسة تازة ولد سنة ٥١٢هـ كان من الراسخين فى العلم فقيها شاعرا أدبيا خطيبا مفوها ولى قضاء الجماعة بالمغرب فحمدت سيرته، وتوفى بمراكش وهو فى منصب قاضى القضاة، وتولى بعده المنصب ابن مضاء النحوى الظاهرى (٢)، كان من أهل الظاهر إذ اشتهر عن الموحدين أنهم لم يولوا منصب القضاء إلا لأهل الظاهر .

٢٥- سعد السعود بن أحمد بن هشام بن إدريس بن محمد بن سعيد بن سليمان بن عبد الوهاب بن عفير الأموى (ت ٥٨٨هـ) ولد سنة ٥١٣هـ كان ظاهرى المذهب شديد التمسك بالسنن ملازما للأذان والإمامة بمسجده وإذا أذن سمع من نحو أربعة

(١) أبو معاوية البيروتى، طبقات أهل الظاهر، ص ١٠٠.

(٢) المراكشى، الذيل والتكملة، ج ٨ ترجمة ٤٤.

أميال، ألف كتابا في السنن سماه كتاب السبيل، وقال عند موته لا أبالي بالموت ثقة بحب الرسول .

توفى بقرية برجلاثة من قرى لبلة وصلى عليه إثر صلاة عصر الجمعة ودفن بجوف داره بموضع كان يقدهه ويقراً فيه ويوصى به ويتعاهده بتقديسه والقراءة فيه. له من الولد إبراهيم وإسماعيل (١)، وأما إسماعيل فكان قاضيا ظاهريا وستأتي ترجمته .

قلت: روى عن الحافظ الشهيد أحمد بم عبد الملك الأنصاري الإشبيلي الظاهري وكان صهرا له، وروى عن أبي الحسن شريح الظاهري، وابن كوثر الظاهري .

وممن روى عنه من الظاهرية: أبو العباس ابن نباتة المحدث الظاهري الشهير .

٢٦- قاضى القضاة أحمد بن محمد بن مضاء النحوى القرطبي (ت ٥٩٢هـ/١١٩٥م) صاحب كتاب الرد علي النحاة، والمشرق في النحو، وتنزيه القرآن عما لا يليق بالبيان، وقد صنفهم لتأصيل مذهب جديد في النحو يعارض فيه النحو المشرقي الغارق في التأويل بناء علي منهج ظاهري يقوم علي إلغاء القياس والتعليل وإلغاء نظريات وعلل كثيرة في النحو (٢) .

ولد سنة ٥١٣هـ بقرطبة في إحدى بيوتات قرطبة المشهورة بالعلم والمعرفة، وجرس في مراكز قرطبة العلمية فتعلم القرآن والقراءات وعلوم الحديث وتنقل بين مدن الأندلس، وانتقل للمغرب فأخذ الحديث عن القاضي عياض اليحصي، وأكثر من الرواية عن شريح الرعيني وابن العربي المالكي، وحصل العربية عن ابن بشكوال والسهيلي .

ومن تلاميذه: محمد بن محمد بن سعيد بن زرقون، وبنو حوط الله أبو سليمان وأبو

محمد.

وكان ماهرا في علوم الطب والحساب والهندسة، وكذا كان بليغا شاعرا كاتبا إماما في

اللغة والنحو .

(١) ابن الأبار، التكملة، ٣/٢١٨.

(٢) أحمد بكير، المدرسة الظاهرية، ص ٥٩؛ وانظر: أحمد أمين، ظهر الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، ط ٣،

١٩٦٢م، ٣/٩٥، ٩٦؛ خديجة الحديثي، أبوحيان النحوى، مكتبة النهضة، بغداد، ١٩٦٦م، ص ٣١٩.

وكان طيب النفس كريم الاخلاق جميل العشرة عفيف اللسان صادق اللهجة كامل المروءة .

قلت: ولما صنف ابن مضاء الظاهري كتابيه "المشرق" و"تنزيه القرآن مما لا يليق بالبيان" ناقضه أبو الحسن علي بن محمد بن علي الحضرمي المعروف بابن خروف الإشبيلي المالكي ورد عليه في كتابه "تنزيه أئمة النحو عما نسب إليه من الخطأ والسهو"، فلما وصل

أمر هذه المناقضة لابن مضاء قال: نحن لا نبالي بالكباش النطاحة، وتعارضنا أبناء الخرفان" (١)

ابن مضاء الظاهري وموقفه من عصمة ومهدوية ابن تومرت: هذا نص ما قاله ابن مضاء حرفيا "و أسأل الله الرضى عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، و عن خليفية سيدنا أمير المؤمنين، الوراثةين مقامه العظيم، وأصل الدعاء لسيدنا أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين... عنى ابن مضاء بالإمام المعصوم "محمد بن تومرت" وعنى بأمرى المؤمنين عبد المؤمن" بن علي، وابنه يوسف بن عبد المؤمن وعنى بأمرى المؤمنين بن أمير المؤمنين يعقوب المنصور الموحدى. نشأ ابن مضاء ظاهريا فى ظل دولة يوسف بن عبد المؤمن الذى ولاه القضاء ثم جعله قاضى قضاة، ولما توفى يوسف وتولى من بعده يعقوب المنصور أقر ابن مضاء على منصبه كقاض للقضاة. المهم عبد المؤمن بن علي ويوسف ابنه كانا يؤمنان بعصمة المهدي إيماننا ظاهريا يشوبه الشك، ومن ثم لم يستطيعا تغير هذا الأمر لانتشاره بين القبائل البربرية. وأول من بدا فى الإنكار علانية على عصمة المهدي ومهدويته فى آن واحد هو المنصور الموحدى، ولكن أيضا لخطورة هذا الأمر لم يستطع المنصور ان يقضى عليه نهائيا، ومن ثم ظلت صيغة الدعاء للمهدي فى الكتب حتى جاء المأمون بن المنصور وقطع ذلك نهائيا وأعلن ذلك فى محضر رسمى وبته فى أقاليم الدولة الموحدية آنذاك. ولكن وقع ما كان يخشى منه كل من عبد المؤمن ويوسف والمنصور من انتفاض العديد من القبائل على

(١) ابن فرحون، السدياج المذهب، ٢١٠/١؛ وانظر: المراكشى، سابق، القسم الأول السفر الأول، ص ٢١٧، ٢١٨.

المأمون بسبب هذا التغيير، وكان ذلك سببا من اسباب سقوط الدولة الموحدية إلى جانب اسباب أخرى كثيرة.

ويبدو أن ابن مضاء كان مدهانا إلى حد كبير لا سيما أن الأمر في عهد عبد المؤمن وابنه يوسف كان فيه من الخطورة ما فيه حتى أن عبد المؤمن نفسه رغم ظاهريته لم يستطع أن يفرضها على المالكية وخاف من انتفاضة الفقهاء ومن يشايهم من القبائل، ويبدو أن الأمر كان خطة من قبل الدولة منعا من النزاع والفرقة بشأن مسألة المهدوية والعصمة، وقد يفترض جدلا أن البعض من العلماء أقر على الحقيقة بمهدوية ابن تومرت. أما المغالاة إلى حد القول بعصمته فهذا ما أستبعده من واقع مطالعات تاريخ ابن مضاء وغيره من الأكابر على عصر الموحدين.

وفاتة: توفي في جمادى الأولى سنة ٥٩٢ هـ بإشبيلية، وقد شارف على الثمانين .

٢٧- أبو عبد الله محمد بن علي بن مروان بن جبل الوهراني (ت ٦٠١ هـ) من أهل وهران ونشأ بتلمسان وأصله من الأندلس ولي قضاء تلمسان ثم نقل إلى قضاء الجماعة بمراكش بعد ابن مضاء ثم تحول إلى قضاء إشبيلية بالأندلس ثم أعيد إلى قضاء الجماعة بعد صرف ابن بقي الظاهري، وكان حميد السيرة عارفا بالأحكام سريع الفصل بين الخصوم لم يجلد أحدا بسوط طول ولايته. توفي ليلة الأحد ٩ جمادى الأولى سنة ٦٠١ هـ ودفن عصر يوم الاثنين وصلى عليه أمير المؤمنين محمد الناصر بن المنصور الموحدى (١).

وكان قد مدح المنصور الموحدى على قطع الناس عن كتب الفروع وإحراقها، ولما مرض ابن مضاء فى سفر المنصور إلى أفريقيا عام ٥٨٣ هـ اشتغل ابن مروان بالحكم بين الناس فظهر منه من حسن الخلق والسياسة ما اشتهر به ونسى معه ابن مضاء، وتولى القضاء للمنصور. فكان ابن مضاء إذا رآه والناس مقبلون عليه أنشد قائلا :

وما يستوى الثوبان ثوب به البلى ... وثوب بايدى البائعين جديد .

٢٨- أبو عمران موسى بن محمد على بن بن مروان بن جبل الوهراني (ت ٦٠٨ هـ). نشأ

(١) ابن الأبار، التكملة، ٦٨١/٢.

بمراكش وطلب العلم بها، وتولى قضاء مالقة وغرناطة، وتوفي بغرناطة ودفن بها وشهد جنازته الجم الغفير من الناس (١).

٢٩- محمد بن عبد الله بن مروان التلمساني (ت ٦٠١هـ) قاضي الجماعة في عهد المنصور الموحدى وابنه محمد الناصر نزل بدار واحد من اليهود بمدينة تلمسان، واحتفل اليهودى به وأحسن وفادته (٢).

٣٠- محمد بن عبد الله بن طاهر الصقلي الحسينى قاضى القضاة بالمغرب (ت ٦٠٩هـ) يعرف بابن الصيقل من أهل مدينة فاس كان متصوفا اتصل بالمنصور الموحدى سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م فحظى عنده وكان قبل ذلك ينتحل طريقة الوعظ والتصوف والتدريس، وكان عالما بأصول الدين وأصول الفقه، ومسائل الخلاف، وكان عادلا فاضلا لم يعرف ميل ولا يقبل هدية من أحد منذ أن ولى القضاء حتى مات. ولى قضاء الجماعة للمنصور وكانت له عنده منزلة عظيمة حتى قال بنفسه "وصل إلى من صلات أمير المؤمنين المنصور منذ عرفته إلى أن مات تسعة عشر ألف دون الخلع والمراكب والإقطاع"، ثم ولى قضاء الجماعة للناصر بعد أبيه ولم يزل كذلك حتى وفاته سنة ٦٠٩هـ/١٢١٢م (٣).

٣١- القاضى أبو محمد عبد الله بن سليمان بن داود بن حوط الله الأنصاري الحارثي الأندلسي الإندى (ت ٦١٢هـ) (٤) سيذكر فى المحدثين.

٣٢- أبو القاسم أحمد بن أبي الوليد يزيد بن عبد الرحمن بن أحمد بن محمد بن أحمد بن مخلد بن عبد الرحمن بن أحمد بن بقي بن مخلد الأموي القرطبي الإمام العلامة المحدث المسند قاضي الجماعة (ت ٦٢٥هـ). فى عهد الموحدين شيوخه: سمع أباه، وجده أبا الحسن، ومحمد بن عبد الحق الخزرجي صاحب محمد

(١) ابن الزبير، صلة الصلة،

(٢) ابن سعيد، الغصون اليانعة، ص ٣٣.

(٣) أنظر: المراكشى، المعجب، ص ٢٥٨؛ ابن أبي زرع، الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية، دار المنصور، الرباط، ١٩٧٢م، ص ٤٨.

(٤) بالنشيا، تاريخ الفكر الأندلسى، ص ٢٣٨، توفيق الغلبزورى، المدرسة الظاهرية، ص ٢٩٤.

بن الفرغ الطلاعي، وخلف بن بشكوال، وأبا زيد السهيلي. وأجاز له المقرئ أبو الحسن شريح بن محمد، وعبد الملك بن مسرة. وتفرد بأشياء منها "موطأ" يحيى بن يحيى عن الخزرجي. روى الحديث هو وجميع آبائه.

تلاميذه: روى عنه بالإجازة محمد بن عياش الخزرجي، والخطيب أبو القاسم بن الأيسر الجذامي، وأبو الحكم مالك بن المرحل الأديب، العلامة أبو الحسين بن أبي الربيع، وبالإجازة محمد بن محمد المومنائى الفاسي.

تقريظ العلماء له: قال ابن الأبار: هو من رجال الأندلس جلالا وكمالا لا نعلم بيتا أعرق من بيته في العلم والنباهة إلا بيت بني مغيث بقرطبة، وبني الباجي ياشبيلية، وله التقدم على هؤلاء، ولي قضاء الجماعة بمراكش مضافا إلى خطتي المظالم والكتابة العليا، فحمدت سيرته، ولم تزد الرفعة إلا تواضعا، ثم عزل، وأقام بطالا إلى أن قلد قضاء بلده، وذهب إليه، ثم عزل قبل موته، فازدحم الطلبة عليه، وكان لذلك أهلا.

وقال ابن الزبير: كان له باع مديد في النحو والأدب، تنافس الناس في الأخذ عنه، وقرأ جميع "كتاب سيويه" على أبي العباس بن مضاء، وقرأ عليه "المقامات".

وقال ابن مسدي: رأس شيخنا هذا بالمغربين، وولي القضاء بالعدوتين، ولما أسن استعفى، ورجع إلى بلده، فأقام قاضيا بها إلى أن غلب عليه الكبر، فلزم منزله، وكان عارفا بالإجماع والخلاف، ماثلا إلى الترجيح والإنصاف. (١)

قلت: وقد أخطأ: الحافظ الذهبي لما جعله من المالكية، فهو من أهل الظاهر بلا ريب وقد أكد ظاهره غير ما واحد منهم ابن الزبير كما نقله عنه النباهي (٢)، والسيوطي (٣)، وكفى على تناقض الحافظ الذهبي رحمه الله قوله عن أحمد بن يزيد "وقد كان - رحمه الله - يغلب عليه الميل إلى مذهب أهل الأثر، والظاهر في أموره وأحكامه.

وفاته: مات يوم الجمعة بعد الصلاة منتصف رمضان سنة خمس وعشرين وستمائة بقرطبة،

(١) نقلا عن الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٢٢/٢٧٥، ٢٧٦.

(٢) أنظر: تاريخ قضاة الأندلس، ص ١٥١.

(٣) أنظر: بغية الوعاة، ١/٣٩٩.

وقد تجاوز ثمانيا وثمانين سنة - رحمه الله - وهو آخر من حدث "بالموطأ" في الدنيا عاليا بينه وبين الإمام مالك فيه ستة رجال بالسماع المتصل .

٣٣- أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الملك بن يحيى بن محمد بن يحيى بن إبراهيم بن خلسة بن سماحة الحميري الكتامي ابن القطان الفاسي (ت ٦٢٨هـ) كان معظما عند الخاصة والعامّة من الموحدين، وكان المنصور أول من قرّبه وأحظاه إذ عينه لقراءة الحديث بين يديه، وجعله على رأس طلبة العلم بمراكش (١) وراح ينتقد المحدثين من المالكية وعلى رأسهم عبدالحق الإشبيلي الذي استدرك على كتابه الأحكام بكتاب سماه (بيان الوهم والإيهام الواقعيين في كتاب الأحكام)، بل انتقد ابن حزم الظاهري نفسه في كتابه المحلى فيما يتعلق بعلم الحديث، وصنف كتبا ورسائل عدة لتأصيل دراسة الحديث بتوجيه من حكام الموحدين لا سيما المنصور ومنها كتاب في الحديث الصحيح محذوف السند، ومقالة في منع المجتهد من تقليد المحدث في صحيح الحديث لدى العمل، ومقالة في تفسير قول المحدثين في الصحيح إنه حسن، وقد ترتب على هذا الجهد الحديثي لابن القطان أن عينه المنصور لقراءة الحديث بين يديه (٢)، فنجح في تكوين مدرسة حديثية فقهية كان عمادها بضع وثلاثين تلميذا من تلامذته (٣).

وقد اعتبر ابن القطان أن الخلافة الموحدية هي أجدر الخلافات بحكم العالم الإسلامي (٤) وصنف رسالة في الإمامة الكبرى دافع فيها عن أحقية بني عبد المؤمن في الخلافة، وتكلم عن صحة حكمهم، بل وصل الأمر به لتأكيد ذلك أن جعل المنصور الموحدي أحد حكام الموحدين ضمن برنامج شيوخه (٥).

(١) ابن القطان، نظم الجمان، ص ١٧، ١٩.

(٢) ابن القطان، نظم الجمان، تقديم محمود مكى ص ٢٠، ١٦، ١٧؛ وانظر: محمد عادل، التربية الإسلامية، ص ٩٠.

(٣) الحسين آيت سعيد، دراسة عن ابن القطان ضمن كتاب بيان الوهم والإيهام، دار طيبة، الرياض، ط ١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ١/٧٩-٨٤.

(٤) نفسه، ص ١٨٩.

(٥) ابن القطان، نظم الجمان، ص ١٦، ٢٠.

لقد نهج ابن القطان في مؤلفاته نهجا تأصيليا بعيدا عن نهج أصحاب الفروع متأثرا في ذلك بشيخه المنصور الموحدى الذى كان يوجهه ويعلمه حتى حظى لديه وقربه من مجلسه^(١)، وقد استفاد من كتاب المحلى بالأثار، وكتاب الإيصال فى شرح الخصال، وكتاب حجة الوداع، وكتاب الأحكام فى أصول الأحكام، وكتاب الإعراب عن الحيرة والالتباس الموجودين فى مذاهب أهل الرأى والقياس^(٢)، مراتب الإجماع لابن حزم، ونسج كتابا على منواله سماه "الإقناع فى مسائل الإجماع"، بل سماه بعضهم بنفس اسم كتاب ابن حزم وفيه ينقل من كتاب ابن حزم المذكور، ومن المحلى، وكتاب ابن القطان هذا صنفه بأمر من شيخه المنصور الموحدى، وهو ما يؤكد مدى الأثر الظاهرى على ابن القطان إذ قبل أن يؤلف كتابا يؤكد أصلا من أصول الظاهرية وهو الإجماع، بأمر من الدولة التى أبطلت القياس واستعاضت عنه بالنص والإجماع^(٣). كما اعتمد قاعدة ابن حزم القاضية بأن اختلاف الثقات فى الوقف والرفع والإرسال والإسناد لا يضر الحديث ولا يعله لأن الكل ثقة، وقد أداه على وجه صحيح، واعتماده تعريف ابن حزم للحديث الحسن، وقبوله زيادة الثقة فى الحديث كابن حزم، وتأثره بابن حزم فى عدم قبول من أخبر عن نفسه أنه صحابى أو تابعى إذ لا بد من التواتر، وكذا فقد تبنى منهج ابن حزم الحديثى فى كتبه لا سيما مسألة تعليل الحديث بالظاهر، التى انفرد بها الأندلسيون والمغاربة^(٤).

ولما صنف عمر بن محمد بن على الصنهاجى المعروف بابن الطوير (ت ٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ م) ردا على الظاهرية وأكد حجية القياس^(٥) قام ابن القطان المراكشى بالرد على

(١) ابن القطان، نظم الجمان، تقديم محمود مكى، ص ١٦، ١٧. ومن مؤلفاته "مسائل فى أصول الفقه" قال عنها إنه لم يذكرها الأصوليون فى كتبهم، "ومقالة فى الطلاق الثلاث"، "ومقالة فى الأيمان اللازمة"، "ومقالة فى الختان"، "ومقالة فى فضل عاشوراء وما ورد فى الإنفاق فيه - عاشوراء - على الأهل". أنظر: نفس المصدر والصفحتين.

(٢) الحسين آيت سعيد، دراسة عن ابن القطان ضمن كتاب بيان الوهم والإيهام، ١/٣١٥، ٣١٦، ٣٢٠.

(٣) الغلبزورى، المدرسة الظاهرية، ص ٨٣٥، ٨٣٦.

(٤) الحسين آيت سعيد، دراسة عن ابن القطان ضمن كتاب بيان الوهم والإيهام، ١/٢٩٦،

٢٧٢، ٢٧٤، ٢٧٣؛ وأنظر: توفيق الغلبزورى، المدرسة الظاهرية، ص ٨٢٥، ٨٢٤، ٨٢٣، ١٨٠.

(٥) المراكشى، الذيل، الفر الثامن، القسم الأول، ص ٢٣٩.

ابن الطوير في كتاب له أسماه (النزع في القياس لمفاضلة من سلك غير المهيع في إثبات القياس) أثبت فيه عدم حجية القياس، كما صنف كتابا آخر وسمه بـ (إنهاء البحث منتهاه عن مغزى من أثبت القول بالقياس ومن نفاه) جمع فيه أقوال من أثبت القياس ومن نفاه وأكد نفى استخدام القياس في الأحكام (١).

ولما وقعت منافرة فقهية بين القاضى يوسف بن محمد بن المعز المكلاتى الفاسى (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م) وبين ابن القطان أسفرت عن مقاطعة مشهورة بينهما - وكلاهما كانا ممن يحضر مجلس المنصور العلمى - ورغم ذلك لما رفع إلى المكلاتى رسمين بشأن ابن القطان أحدهما عليه شهادة الشهود، والثانى فتاوى أهل العلم فى قول ابن القطان فيما نسب إليه عند قوله من أعلام النبوة باكتساب النبوات، حيث نسب معظم أهل الفروع من المالكية ابن القطان إلى البدعة، وكفره آخرون، وأجمع المتألبون عليه أنه لا يتم لهم الغرض من عملهم هذا إلا بفتيا القاضى أبى الحجاج المكلاتى الذى قرعهم ووبخهم وقال لهم "فما الذى تفعلون غدا أو بعد غد معى أو مع أمثالى مما لا يعمر مجالسه أبدا إلا بالنظر مع القدرية والخوارج والشيعة والروافض والمعتزلة والكرامية والأباضية والإمامية والاسماعيلية وغيرهم من أهل الأعواء والبدع والفلاسفة الحائدين عن مذاهب أهل السنة، ولا يشتغل إلا فى ضرب بعض أقوالهم ببعض اذهبوا خيب الله سعيكم" فعظم تعجب المالكية منه وانتشرت هذه الأحداث فى مجالسهم ومجالس الظاهرية وطلبة العلم مدة طويلة (٢).

مصنفاته: إضافة إلى ما صنفه فى نفى القياس والرد على ابن الطوير فقد صنف بيان الوهم و الإيهام الواقعين فى كتاب الأحكام لعبد الحق الخراط، النظر فى أحكام البصر، أسماء الخيل وأنسابها وأخبارها، رسالة فى (فضل عاشوراء وما ورد فى الإنفاق فيه على الأهل) (٣)، (رسالة فى الختان) أوضح فيها حكمه، وما يجوز فعله، وما لا يجوز أثناء الاحتفالية (٤)، (رسالة فى

(١) ابن القطان، نظم الجمان، ص ١٥، ١٧.

(٢) نفسه، السفر الثامن القسم الثانى، ص ٤٣٢-٤٣٤.

(٣) محمود مكى، مقدمة نظم الجمان لابن القطان، ص ١٧.

(٤) محمود مكى، تقديم نظم الجمان لابن القطان، ص ١٦.

الطلاق الثلاث (١)، بين فيها أحكامه، وذلك لزجر الناس عن التلفظ به حماية لكيان الأسرة، فضلا عن احتواء الخلاف الذى نشأ بين الفقهاء خاصة المالكية أنفسهم إذ ذهب بعضهم إلى أن الطلاق الثلاث لا يقع إلا واحدة، وكتاب نظم الجمان، وكتاب شفاء الغلل فى أخبار الأنبياء والرسول، وكتاب الأحكام لبيان آياته عليه السلام (٢)، ولما وفد على الناصر بن المنصور ألفونسو التاسع ملك ليون طلب من ابن القطان صاحب النزعة الظاهرية أن يصنف

له رسالة فى طريقة التعامل مع ملك ليون، فصنف له رسالة سماها "مقالة فى معاملة الكافر" (٣).

وقد امتحن فى سنة ٦٢١ (١٢٢٤)، فى ولاية العادل، إذ صرفه هذا عن الخطط والأشغال التى كان يتولاها. ولما قتل العادل تولى بعده أبو العلاء إدريس المأمون، وكان بالأندلس؛ فأبطأ فى العودة إلى مراکش؛ فنكث بعض أهل الحل والعقد بيعتهم له وصرفوها لابن أخيه يحيى المعتصم، وكان منهم ابن القطان، حرصا منه على نيل الخطوة عند المعتصم. فعاد المأمون، وقتل الناكثين وانتهب أموالهم وشرذ أهلهم، وحارب المعتصم وشيعته. ففر هذا ومن معه إلى سجلماسة. فأدركت أبا الحسن ابن القطان منيته بها، مبطونا حسيرا على ما فقد من أهله وبيته وكتبه، وذلك فى الليلة التى أهل فيها هلال شهر ربيع الأول من سنة ٦٢٨ الموافق ٧ يناير - كانون الثانى ١٢٣١ (٤).

٣٤- أبو الحسن على بن عبد الله بن يوسف بن خطاب المعافى قاضى إشبيلية (ت ٦٢٩هـ/ ١٢٣١م) كان محدثا فقيها على مذهب أهل الظاهر عاقدا للشروط، ذا مشاركة فى الأدب والنثر، ولى قضاء إشبيلية واستنابه القضاة كثيرا فى الأحكام، كف بصره فى آخر أيامه ولزم داره إلى أن توفى ١٧ من ذى القعدة ٦٢٩هـ ودفن بعد عصر

(١) محمود مكى، تقديم نظم الجمان لابن القطان، ص ١٦.

(٢) ابن القطان، نظم الجمان، تقديم محمود على مكى، ص ٣٨، ٣٩.

(٣) ابن القطان، نظم الجمان، مقدمة محمود مكى، ص ١٧.

(٤) ابن عبد الملك المراكشى، الذيل والتكملة، ٨ / ١٦٥-١٩٥

ذلك اليوم (١)

٣٥- عبدالمنعم بن محمد بن عبدالرحيم الخزرجي الذي تولى قضاء غرناطة وجزيرة شقر ومدينة وادي آش وجيان ثم تولى الحسبة والشرطة في عهد المنصور الموحدي (٢)

٣٦- أبو الرضى بسام بن أحمد بن حبيب بن عمر بن عبد الله بن شاكر الغافقي (ت ٦٣١هـ) من أهل جيان واستوطن مالقة ولد في شعبان سنة ٥٥٧هـ سمع ابن مضاء الظاهري وروى عن السهيلي وحضر مجلس ابن بشكوال وسمع عليه بقراءة أبيه وأجيز منه، له مشاركة قوية في الأدب وقرض الشعر، ولي القضاء بالمنكب وغيرها فحمدت سيرته. له كتاب أسماه "النواهي عن الدواهي" تعقب فيه القاضي ابن العربي المالكي وانتصف لابن حزم الظاهري (٣).

وفاته: توفي ليلة الجمعة لعشر خلون من شعبان سنة ٦٣١هـ ودفن بعد لصلاة الظهر بمالقة، وكان الجمع في جنازته عظيما (٤)

٣٧- القاضي أبو الخطاب ابن دحية الكلبي الظاهري (ت ٦٣٣هـ): الشيخ العلامة المحدث الرحال المتفنن مجد الدين أبو الخطاب عمر بن حسن بن علي بن الجميل - واسم الجميل محمد بن فرح بن خلف بن قومس بن مزلال بن ملال بن أحمد بن بدر بن دحية بن خليفة الكلبي الداني ثم السبتي. هكذا ساق نسبه ! أما أمه فهي أمة الرحمن بنت أبي عبد الله بن أبي البسام موسى بن عبد الله بن الحسين بن جعفر بن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ولهذا كان يكتب لنفسه: ذو النسبتين بين دحية والحسين.

(١) ابن الأبار، التكملة، ٣/١١٦؛ وانظر: توفيق الغلبزوري، المدرسة الظاهرية، ص ٣٠٨، ٣٠٩.

(٢) النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص ١١٠. وجزيرة شقر تقع بين بلنسية وشاطبة، ومدينة جيان كوره تتصل أحوزها بأحواز كوره البيرة ومسافة ما بينها وبين قرطبة خمسون ميلا أنظر: ابن غالب، فرحة الأنفس، ص ٢٨٤، ٢٨٥.

(٣) ذكر هذا الكتاب الشيخ مشهور حسن في هامش ١ ص ٣٠٨ من تحقيقه لكتاب الصادق لابن حزم الظاهري .

(٤) ابن الأبار، التكملة، ١/٢٢٦.

شيوخه: قال أبو عبد الله الأبار: سمع أبا بكر بن الجعد، وأبا القاسم بن بشكوال، وأبا عبد الله بن المجاهد، وأبا عبد الله بن زرقون، وأبا القاسم بن حبيش، وأبا محمد بن عبيد الله، وأبا محمد بن بونة. وحدث بتونس ب "صحيح مسلم" عن طائفة، وروى عن آخرين منهم أبو عبد الله بن بشكوال، وقال: سمعت منه كتاب "الصلة"، وأبو عبد الله بن المناصف، وأبو القاسم بن دحمان، وصالح بن عبد الملك، وأبو إسحاق بن قرقول، وأبو العباس بن سيده، وأبو عبد الله بن عبيدة، وأبو خالد بن رفاعة، وأبو القاسم بن رشد الوراق، وأبو عبد الله القباعي، وأبو بكر بن مغاور.

قال ابن مسدي: رأيت بخطه أنه سمع قبل سنة سبعين من جماعة كأبي بكر بن خليل، واللواتي، وابن حنين، قال: وليس ينكر عليه، ثم لم يزل يسمع حتى سمع من أقرانه، وحصل ما لم يحصله غيره. قرأت بخط ابن مسدي في "معجمه"، قال: كان والد ابن دحية تاجرا يعرف بالكليبي - بين الفاء والباء - وهو اسم موضع بدانية، وكان أبو الخطاب أولا يكتب "الكليبي" معا "إشارة إلى المكان والنسب، وإنما كان يعرف بابن الجميل تصغير جمل. قال: وكان أبو الخطاب علامة زمانه، وقد ولي أولا قضاء دانية. وكان ممن يترخص في الإجازة، ويطلق عليها "حدثنا". وقد سمع منه أبو عمرو بن الصلاح "الموطأ" بعيد سنة ست مائة. وأخبره به عن جماعة منهم: أبو عبد الله بن زرقون بإجازته من أحمد بن محمد الخولاني، أخبرنا أبو عمرو القيشطالي سماعا، أخبرنا أبو عيسى يحيى بن عبد الله. وقال ابن دحية مرة أخرى: حدثني القاضي علي بن الحسين اللواتي، وابن زرقون قالا: حدثنا الخولاني. سئل ابن دحية عن مولده فقال: سنة ست وأربعين وخمس مائة وحكي عنه في مولده غير ذلك.

وفي كتب التراجم أن السلطان الكامل اليوبي بن العادل حاكم مصر قرب ابن دحية .. فطلب إليه شرح مسند الشهاب .. فشرحه له وأعطاه الكتاب .. ونمى إلى الكامل من بعض خصوم ابن دحية أنه يدعي ما ليس عنده وأنه يحدث عن شيوخ لم يلقهم .. فطلب الكامل من ابن دحية شرح مسند الشهاب مرة أخرى لأنه فقد الكتاب الأول .. فشرحه ابن دحية فجاء على غير ما شرحه أول مرة .. قيل أن الكامل علم أنه ليس بعالم وأقصاه من منصبه

الذي كان في مدرسة الحديث ... وقيل إن ذلك لم يتم وأن ما أصاب ابن دحية من نوبة كانت تأتيه هو ما جعل الكامل يستبدله بأخيه تكريما له .

وكان الكامل قد استعمله رسولا للخليفة الناصر لدين الله ببغداد، ولقى ابن دحية إكراما من أمير المؤمنين، كما أرسل رسولا إلى ملوك ما وراء النهر والتقى هناك بالشيخ وحمل الكثير من الكتب النادرة .

رحلاته واستفاداته من شيوخه: أقدم هذه الرحلات والاستفادات من الشيوخ كانت على شاعر المغرب أبي عبد الله بن حبوس سنة (٥٦٤هـ) بحضرة مراکش، ثم في داره بفاس بدرب السراجين منها.. وفي شهر رمضان من السنة نفسها سمع من الفقيه المحدث اللغوي أبي إسحاق ابن قرقول، وكان قد صحبه في سفره، وأجاز له جميع رواياته، ومن ذلك "صحيح مسلم" و"تاريخ ابن أبي خيثمة" .. ثم لقي أبا بكر ابن ميمون العبدي بمراكش سنة (٥٦٥هـ)، وكان ممن تصدّر لإقراء النحو والأدب، فأخذ عنه بها، ورحل إلى مرسية، فسمع أبا القاسم عبد الرحمن بن محمد المروي بجامعها، وبمنزله بها.. وروى ابن دحية عن أبي الحسن ابن حنين الكِناني، وأبي عبد الله ابن خليل القيسي المتوفيين بفاس (٥٦٩هـ)، وصرح بأن ابن حنين المذكور أجاز به فاس.. وفيما بين سنتي ٥٧٢ و٥٧٣ هـ لقي أبا محمد الرُّعيني الحجري بمسجده بسبته، وأخذ عنه، كما حدثه أبو بكر ابن خير بمسجد المحجة باشبيلية، وأبو بكر ابن الجد الفهري بمنزله منها، وقرأ على أبي محمد ابن مغيث بقرطبة، وسمع أبا بكر ابن الجَنان بمراكش، وأبا الحسن اللواتي بفاس بمنزله منها.. وفي سنة ٥٧٤ هـ لقي أبا القاسم ابن بشكوال بقرطبة، وقرأ عليه في شهر صفر وربيع الأول وربيع الآخر وغيرهما بمنزله منها، وبالجامع الأعظم ومسجد أبي علاقة ومسجد الغدير بن الشَّماس، وسمع أبا محمد ابن دحمان بمالقة، وأبا القاسم السُّهيلي في شهر صفر بمسجده منها، وكان قد أملى عليه كثيرا من تصانيفه، وأجاز له ولأخيه جميع مسموعاته ومجموعاته.. وقد صحب ابن دحية أبا محمد عبد الله بن محمد التادلي الفاسي عندما تولى قضاء فاس سنة ٥٧٩هـ، وفي سنة ٥٨٤ هـ شهد بمراكش جنازة أبي الحكم اللخمي، وكان قد صحبه كثيرا، وأخذ عنه فضلا غزيرا.. " .. ومعلوم أن الإمام السهيلي -دفين مراكش- هو أكثر شيوخ

ابن دحية شهرة على الإطلاق لقيه ابن دحية بالمغرب والأندلس.. ويرجع الفضل لابن دحية -وتلاميذ السهيلي الآخرين- في نشر كتاب "الروض الأُنْف" للإمام السهيلي بالمشرق (١). موقفه من حرق كتب الفروع: كان ابن دحية شأنه شأن ابن خليل وجل أهل الظاهر من المؤيدين لقطع الناس عن كتب الفروع ومن ثم رأيناه يصف واقعة الحرق هذه في ترجمته لشيخه ابن زرقون متشفياً حيث قال "وشاهدناه في آخر عمره قد اتخذ المسجد الجامع داراً، والتفت إلى رواياته وتوليفه فروى صغاراً وكباراً. قرأت عليه كثيراً وسمعت، وأجاز لي ولأخي الحافظ أبي عمرو جميع رواياته ومجموعاته. وتوفي رحمه الله على أحسن حالاته ببلدة إشبيلية سنة ست وثمانين وخمسمائة، وله أربع وثمانون سنة. وخلف أموالاً عظيمة، وكتباً في كل فن كريمة؛ وكان له ولد يكنى أبا الحسين، وكان سخنة عين؛ فأساء ذكره، ولم يتبع حسنه، فأمر صاحب المغرب أن يصفد في الحديد، وأن يلقي في عنقه ما يتصل بحبل الوريد؛ وحمل إلى السجن الذي بباب حميدة، على حالة مذمومة بكل لسان غير حميدة؛ ثم احضر في موطن جرت العادة فيه بضرب رقاب أهل الظلم والعدوان، وهو يحجل في قيوده ويضطرب اضطراب الخيزران؛ ثم أمر بإطلاقه بعد هوان، وخوف غلب على أمان. ثم أمر بإحضار كتبه وهي التي ورثها من أبيه، وكانت تقاوم مالأً جسيماً وتساويه، في كل صنف تشتمل عليه من الرأي وفيه؛ فأوردت النار وبئس الورد المورود، فأحرقت فسمع للنار تسعسع ورئي لهما وقود، واحترق الكاغد وانزوت الجلود، وذلك يوم يؤرخ به مشهود. (٢)

تقريظ العلماء له :

قال ابن خلكان: كان أبو الخطاب ... من أعيان العلماء ومشاهير الفضلاء، متقناً لعلم الحديث النبوي وما يتعلّق به، عارفاً بالنحو واللغة وأيام العرب وأشعارها، أكثر بطلب الحديث في أكثر بلاد الأندلس الإسلامية، ولقي بها علماءها ومشائخها، ثم رحل منها إلى برّ العدو، دخل مراكش واجتمع بفضلائها، ثم ارتحل إلى إفريقيّة ومنها إلى الديار المصرية،

(١) أنس وجّاج، أبو الخطاب ابن دحية الكلبي السبتي الحافظ الرحال، منشورات الرابطة المحمدية للعلماء، ٢٠١٠، ص ٣٥ وما بعدها.

(٢) أنظر: المطرب، ٢٢٢-٢٢١.

ثم إلى الشام والشرق وإلى العراق، وسمع ببغداد من بعض أصحاب ابن الحصين، وسمع بواسطة من أبي الفتح محمد بن أحمد بن المندائي، ودخل إلى عراق العجم وخراسان وما والاها ومازندران، كل ذلك في طلب الحديث والاجتماع بأئمة الحديث، وأخذ عنهم، وهو في تلك الحال يؤخذ عنه ويستفاد منه، وسمع بأصبهان من أبي جعفر الصيدلاني، وبنيسابور من منصور ابن عبد المنعم الفراوي (١).

قال ابن الأبار: وكان بصيرا بالحديث معتنيا بتقييده، مكبا على سماعه، حسن الخط، معروفا بالضبط، له حظ وافر من اللغة ومشاركة في العربية وغيرها. ولي قضاء دانية مرتين، وصرف لسيرة نعتت عليه، فرحل، ولقي بتلمسان أبا الحسن بن أبي حيون، فحمل عنه، وحدث بتونس في سنة ٥٩٥، ثم حج وكتب بالمشرق: بأصبهان، وبنيسابور عن أصحاب الحداد والفراوي، وعاد إلى مصر فاستأذبه الملك العادل لابنه الكامل ولي عهده، وأسكنه القاهرة فنال بذلك دنيا عريضة، وكان يسمع ويدرس. وله تواليف، منها كتاب "إعلام النص المبين في المفاصلة بين أهل صفين". سمع من أبي القاسم البوصيري بمصر، ومن أبي جعفر الصيدلاني بأصبهان، ومن منصور الفراوي بنيسابور؛ سمع بها "صحيح مسلم" عاليا، بعد أن رواه نازلا، وحدث بدمشق وسمع بها، وسمع بواسطة من أبي الفتح المندائي، سمع منه "مسند أحمد". روى عنه ابن الديبشي، فقال كان له معرفة حسنة بالنحو واللغة، وأنسة بالحديث.

وقال الغبريني: "قد رأيت له تصنيفا في رجال الحديث لا بأس به، وارتحل إلى المشرق في دولة بني أيوب فرفعوا شأنه وقربوا له مكانه، وجمعوا له علماء الحديث وحضروا مجلسا أقروا له بالتقدم، وعرفوا أنه من أولي الضبط والإتقان والفهم. وذكروا أحاديث بأسانيد حولوا متونها، فأعاد المتون المحولة، وعرف عن تغييرها، ثم ذكر الأحاديث على ما هي عليه من متونها الأصلية".

وقال أبو جعفر بن الزبير: "وكان معتنيا بالعلم مشاركا في فنون منه، مجتهدا معتنيا بالأخذ عن الشيوخ، ذاكرا للتاريخ والأسانيد ورجال الحديث والجرح والتعديل".

(١) أنظر: وفيات الأعيان: ٤٤٨/٣ - ٤٥٠.

وقال السيوطي: عمر بن الحسن بن علي بن محمد بن جميل بن فرح بن دحية الكلبي الأندلسي البلنسي الحافظ، أبو الخطّاب، كان من أعيان العلماء ومشاهير الفضلاء، متقناً لعلم الحديث وما يتعلّق به، عارفاً بالنحو واللغة وأيام العرب وأشعارها، سمع الحديث ورحل، وله بنى الكامل دار الحديث الكامليّة بالقاهرة، وجعله شيخاً، حدث عنه ابن الصلاح وغيره (١).

وقال أيضاً: ابن دحية، الإمام العلامة الحافظ الكبير، أبو الخطّاب، عمر بن الحسن الأندلسي البلنسي، كان بصيراً بالحديث متقناً به، له حظّ وافر من اللغة ومشاركة في العربيّة، له تصانيف، توطّن مصر وأدّب الملك الكامل، ودرّس بدار الحديث الكامليّة (٢).
وقال المقري: "كان من كبار المحدثين، ومن الحفاظ الثقات الأثبات المحصلين".
مؤلفاته:

١- الابتهاج في أحاديث المعراج: مطبوع بتحقيق د. رفعت فوزي عبد المطلب عام ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م نشر مكتبة الخانجي بالقاهرة. مخطوطاته: النسخة الأولى: نسخة في مكتبة الأوقاف بالسليمانية ٩٩/١ [ت ٢٨٩] تقع في ٨٢ لوحة، نسخت سنة ٦٦٦ هـ. النسخة الثانية: في كوبرلي ١٢٥/١ [٢٣٢] في ٦٦ لوحة، نسخت عام ٧٢١ هـ.

٢- أداء ما وجب من بيان وضع الموضوعين في رجب:، حققه محمد بن سليمان الفوزان في رسالة ماجستير بجامعة الإمام محمد بن سعود، كلية أصول الدين، قسم السنة وعلومها، سنة ١٤٠٤ هـ. طبع كذلك بتحقيق زهير الشاويش و تخريج العلامة محمد ناصر الدين الألباني ط ١ عام ١٤١٩ هـ/١٩٩٨ م عن المكتب الاسلامي.
مخطوطاته: موجودة ضمن مخطوط كتابه (العلم المشهور) ونسخة: مكتبة الشيخ سليمان بن صالح البسام الخاصة بعنيزة، كتبت في عهد المؤلف سنة ٦٢٥ هـ وعليها سماع وقراءة وإجازة. النسخة الثانية: مكتبة جامعة الملك سعود رقم (١٦٦٥).

(١) أنظر: بغية الوعاة، ٢/٢١٨.

(٢) أنظر: حسن المحاضرة، ١/٢٠١.

- ٣- الارتقا إلى أفضل الرقى: ذكره ابن الشعار في (عقود الجمان) .
- ٤- الإرشاد في الحض على طلب الرواية والإسناد: ذكره ابن دحية في كتابه (العلم المشهور).
- ٥- استيفاء المطلوب في تدبير الحروب: ذكره محقق نهاية السؤل لابن دحية ويأتي.
- ٦- أعلام النصر المبين في المفاضلة بين أهلي صفين: تحقيق د. محمد أمحزون، توفر مخطوط: نسخة في الاسكوريال تحت رقم (١٦٩٣cod) وليس له نسخة أخرى بحسب ما أعلم، نشر دار الغرب الإسلامي سنة ١٩٩٨ م.
- ٧- أنوار المشرقين في تنقيح الصحيحين المشرقين: ذكره محقق نهاية السؤل، وذكره العلامة عبد الله كنون رحمه الله في كتابه: النبوغ المغربي في الأدب العربي في سياق حديثه عن كتب المغاربة في الحديث النبوي خلال العصر الموحدى .
- ٨- تأليف في بلاغات مالك.
- ٩- تاريخ الأمم في أنساب العرب والعجم: ذكره محقق نهاية السؤل.
- ١٠- التحقيق في مناقب أبي بكر الصديق: ذكره صحاب هداية العارفين وغيره.
- ١١- تنبيه البصائر في أسماء أم الكبائر: مخطوط: نسخة ليدين في هولندا، رقم (٧٩) ولها صورة في مكتبة مخطوطات مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي في جامعة أم القرى رقم ٧١٤/١.
- ١٢- وهج الجمر في تحريم الخمر: تحقيق محمد ظفر الله عطاء الله في رسالة ماجستير بجامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض، كلية أصول الدين، قسم الحديث. توفر مخطوط: النسخة الأولى: مكتبة المحمودية في المدينة المنورة، وهي ضمن مكتبة الملك عبد العزيز، ٤٥ لوحة، رقم ٢١٨ حديث، نسخت سنة ٧٥٢ هـ. النسخة الثانية: مكتبة الكتاني في الخزانة العامة بالرباط في المغرب، رقم ٥٨٧، قسم الحديث، لها صورة في الجامعة الإسلامية برقم ٢٦٨٠ مصورات، وهي في ٣٠ لوحة.
- ١٣- التنوير في مولد السراج المنير: مخطوط: ذكر المنجد أنها في برلين ٩٥٤٧/١، وقال محقق الآيات البيئات أنه وهم منه، وأن محقق النبراس لابن دحية ذكر أنها كانت

- عنده ولا يدري في أي مجموع، وهو عباس العزاوي.
- قلت: وهذا الكتاب صنفه ابن دحية للملك المعظم مظفر الدين بن زين العابدين صاحب إربل سنة ٦٠٤هـ، وكان الملك المعظم مولعا بالاحتفال بذكرى ميلاد النبي .
- ١٤- قصيدة في الرسول: ختم فيها كتابه التنوير في مولد السراج المنير، وهي في فهرس باريس ١٤٧٦، ٣١٤١، رقم ٢
- ١٥- جزء في أحاديث الحوض.
- ١٦- جميع العلوم الكليات في قوله الأعمال بالنيات.
- ١٧- خطب بليغة .
- ١٨- دليل المتحيرين: أو عصمة الأنبياء.
- ١٩- الرد على اللاغي في تفضيل الباغي.
- ٢٠- رسائل ومخاطبات.
- ٢١- سلسلة الذهب في نسب سيد العجم والعرب: أو النبراس.
- ٢٢- شرح مسند الشهاب للقضاعي: وهناك كتاب باسم المنتخب من الشهاب، ذكر صاحبه أنه توفر مخطوط: مكتبة خدابخش رقم ٣٨٢، ٢٥ لوحة .
- ٢٣- الصارم الهندي في الرد على الكندي.
- ٢٤- الصحيح المنتخب.
- ٢٥- العلم المشهور في فضائل الأيام والشهور: وسمي: العلم المشهور في فوائد فضائل الأيام والشهور، أو فضل بدل فضائل. مخطوط: توجد نسخة عند الشيخ عبد العزيز الحنوط من مكتبة الرباط.
- ٢٦- مرج البحرين في فوائد المشرقين والمغربيين: أو الإنذارات، أو البشارات والإنذارات المتلقاة من أصدق البريات: وهو عن الدجال ونزول عيسى عليه السلام وغيرها.
- ٢٧- المستوفى في أسماء المصطفى: أو المستوفى في شرف المصطفى.
- ٢٨- المسائل المفيدة.
- ٢٩- المسائل الموصلية.

- ٣٠- مصنف في رجال الحديث
- ٣١- المطرب من أشعار أهل المغرب تحقيق إبراهيم الأبياري وحامد عبد المجيد وأحمد أحمد بدوي، المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩٥٤ م، ونشر أيضاً لمصطفى عوض الكريم، نشر مطبعة مصر بالخرطوم ١٩٥٤ م. له مخطوطة نفسية كتبت سنة ٦٤٩ هـ، أي بعد وفاة المؤلف بستة عشر عاماً.
- ٣٢- المعجم في أسماء من لقي من أهل العلم
- ٣٣- معجم شيوخ ابن مضاء
- ٣٤- من ألقم الحجر إذ كذب وفجر وأسقط عدالة من قال من الصحابة (ما له أهرج): سجل كرسالة علمية في المغرب. حققه الأستاذ عبد العزيز فارح و صدر عن مجلة دعوة الحق سنة ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٢ م ط ١، مخطوط: نسخة الاسكوريال رقم ١١٩٠ بخط تلميذ ابن دحية محمد بن محمد بن يحيى السبتي.
- ٣٥- المنتخب من معجم الطبراني الكبير.
- ٣٦- النبراس في ذكر خلفاء بني العباس: تحقيق، عباس العزاوي مطبعة المعارف ببغداد سنة ١٩٤٦ م. مخطوط: نسخة نور عثمانية بتركيا رقم ٣١١٦ نسخة قرئت على المؤلف سنة ٦١٣ هـ، وعليها سماعات.
- ٣٧- نثر الدرر في فضل من تمسك بسنة سيد البشر.
- ٣٨- نهاية السؤل في خصائص الرسول:، تحقيق د. عبد الله عبد القادر الشيخ محمد نور الفادني في وزارة الأوقاف القطرية سنة ١٤١٦ هـ، وهي رسالته للدكتوراة النسخة الأولى: نسخة برلين بألمانيا رقم ٢٥٦٧ توفر مخطوط: النسخة الثانية: دار الكتب المصرية رقم ٦٦٤١ النسخة الثالثة: دار الكتب المصرية رقم ١٩٥٠٧ ب. النسخة الرابعة: دار الكتب المصرية رقم ٢١٤٩٤ ب.
- ٣٩- الوفيات:
- ٤٠- البشارات و الانذارات المتلقاة عن سيد البريات، و هو في باب المعجزات.
- ٤١- الآيات البينات في ذكر ما في أعضاء رسول الله صلى الله عليه و سلم من المعجزات. من أقواله في الحديث :

١- ذكر الحافظ أبو الخطاب عمر بن دحية أن الحديث في إيمان أم النبي وأبيه موضوع يرده القرآن العظيم والإجماع قال تعالى "ولا الذين يموتون وهم كفار" وقال "فيمت وهو كافر" فممن مات كافرا لم ينفعه الإيمان بعد الرجعة بل لو آمن عند المعاينة لم ينفع فكيف بعد الإعادة؟! وفي التفسير أنه عليه السلام قال ليت شعري ما فعل أبواي؟! فنزل "ولا تسأل عن أصحاب الجحيم".

٢- وقال رحمه الله في تعريفه للحديث الموضوع: الموضوع: الملتصق، وضع فلان على فلان كذا أي ألصقه به^(١)

ابن دحية والظاهرية: اعترض بعض أصحابنا من أهل الظاهر بالمغرب على ظاهرية ابن دحية قائلاً: قال ابن دحية الكلبي في كتابه (أداء ما وجب من بيان وضع الوضاعين في رجب) ص ٩٢: وقد نطق الكتاب العزيز بصحة حدثنا وأخبرنا بالإجازة حيث قرنها التواطئ من المجيز والمستجيز على النقل بها من جهة القياس أن الله تعالى حكى عن بني إسرائيل فقال في قصة البقرة [٧١] (فذبحوها) وقد علمنا أن الذابح إنما كان واحداً من جهة العادة الشرعية، فلم لا يجوز أن يقال في الإجازة قياساً على هذا مع وجود التواطئ منها على النقل بها كوجود التواطئ من بني إسرائيل بأمر نبيهم ومن الذابح لها على ذلك الذبح"... وفي صفحة ١٣٢: يرجح العمل بالحديث المرسل.

وفي ص ١٣٣: يقول أن الحديث الحسن ما دون الصحيح مما فيه ضعف محتمل قريب.... واعتبره.

وفي صفحة ٦٨: يعرض لمقالة الأشعرية الخبيثة في أن النبي بعد موته لم يعد نبياً وقد قال بها أبو الوليد الباجي وابن فورك... ولم يثبت ولم ينف هذا المعتقد الفاسد... قلت: بشأن الاحتجاجات التي يحتج بها من يرى عدم ظاهرية ابن دحية فليست بشيء أصلاً.

أولها مسألة القياس الرجل لم يقل به وهذا امر معروف في كتبه، وما طرحه هنا يخص القياس اللغوي فحسب، ولعله تأثر به من شيخه السهيلي المالكي، فقد كان شيخاً له في

(١) ابن حجر، النكت على كتاب ابن الصلاح، تحقيق ربيع هادي عمير، ٨٣٨/٢.

العربية والتفسير.

وثانيا: بخصوص ما ذكرته عن الحديث المرسل فليس هو قوله إنما هو قول الدارقطني

أما عن تعريفه للحديث الحسن فلا يمكن أيضا أن يؤخذ منه انه غير ظاهري خاصة إذا علمنا أنه كان محدثا فذا وله منهجه، ومن ثم قد يختلف مع غيره من أهل الحديث في بعض الأمور، وهذا امر واضح، حتى وإن استخدم مسألة الاحتمال او غيرها.

وثالثا: أما عن الاحتجاج بعدم نقد ابن دحية لمقولة الاشعرية بأن النبي بعد موته لم يعد نبيا فهو اصلا انتقدها لما خطا ابن حزم في نسبتها لكل الأشعرية في الصفحة ٦٨ ثم اتبع ذلك بذكر كلام ابن حزم حول هذه المسألة. ثم هب انه لم ينقدها والامر ليس كذلك فغن المذهب الاشعري وجد سوقا نافقة في عهد الموحدين، وغن كان الموحدون لم يعمدوا إلا نشر العقيدة الاشعرية باسرها بل اخذوا منها ما يوافق منهجهم الظاهري، ومن ثم وجدت تعقبات لاقوال ابن تومرت في مرشدته الاشعرية.

أيا ما كان الامر ليس هذا ايضا بدليل يثبت عدم ظاهرية ابن دحية، فالباجي مثلا كان مالكيًا وقال بقول الأشاعرة هل نقول عنه أنه ليس بمالكي.

شبهات وأباطيل وجهت للحافظ ابن دحية :

أولا: طعن بعض أهل الأندلس وبعض المشاركة ومنهم الذهبي في الحافظ ابن دحية بأنه ادعى انتسابه للصحابي الجليل دحية بن خليفة الكلبي، وليس الأمر كذلك لأن دحية لم يعقب .

قلت: ويبطل قولهم أن دحية بن خليفة الكلبي له عقب حيث ذكر الطبري في أحداث سنة ١٢٦ هـ أن يزيد بن الوليد بن عبد الملك ندب لولاية العراق عبدالعزيز بن عبد الله بن هارون بن دحية بن خليفة الكلبي فأبى. وهي نفس الحجة التي استند عليها الحافظ ابن حجر في إبطال زعم من اتهم ابن دحية .

كما أن ابن دحية ذاته انتحى للرد على زيد بن الحسن الكندي رئيس النحاة بدمشق لما زعم أن الصحابي دحية لم يعقب، وصنف ابن دحية كتابا في الرد عليه أثبت فيه ان لدحية ذرية وأنه من ذريته .

ثانيا: اتهام ابن دحية بأنه لم يسمع من العلماء حسب المحضر الذى عمله السنهورى الظاهرى.

قلت: ويكفى لإبطال ذلك إثبات من ترجم له من الأندلسيين والمشاركة سماعه من شيوخه، فضلا عن أن أقوال الأقران بعضهم فى بعض تتساقط، لا سيما وان السنهورى تعرض للضرب وطيف به فى مصر لأجل تعرضه لابن دحية، فلا يمكن بحال أن نقبل كلامه بعد ذلك لا فى محضره ولا فى غيره بشأن ابن دحية .

ثالثا: أن ابن دحية اشتغل بطلب العلم بعدما كبرت سنه، وهذا يؤكد نفي سماعه من شيوخه. قلت: ويكفى لإبطال ذلك ما ذكره ابن الأبار والغبريني وابن خلكان وغيرهم عن حفظ الرجل وملكته القوية فى معرفة الحديث ورجاله وأسانيده، فضلا عن رحلاته هنا وهناك ولقائه بالعلماء ومجادلاته ومناظراته وتقريب الحكام له لعلمه وحفظه.

رابعا: ادعاء ابن كثير وغيره ان ابن دحية وضع حديثا فى قصر صلاة المغرب .

قلت: يكفى لإبطال هذا الزعم ان ابن دحية لم يتهم بالوضع لا سيما فى أمر كهذا الإجماع منعقد عليه ن وهو من المعلوم من الدين بالضرورة، ولعل هذه التهمة شأنها شأن غيرها ترجع إلى ما يقع بين العلماء من منافسة بسبب القرب من السلطان وعلو المكانة والشان، فضلا عن ظاهرية ابن دحية التى شغلت الكثيرين مع مكانته عند السلطان.

وفاته: توفي ليلة الثلاثاء رابع عشر ربيع الأول سنة ثلاث وثلاثين وست مائة.

٣٨- القاضى اسماعيل بن سعد السعود بن عفير (ت ٦٣٧هـ/١٢٣٩م) قاضى مراكش: إسماعيل بن سعد السعود أحمد بن هشام بن عفير الأموى اللبلى الإشبلى. ولد عام ٥٥٨هـ، ودرس على جماعة من الظاهرية والمالكية. من أهم شيوخه من الظاهرية والده سعد السعود، ومن المالكية ابن زرقون، وابن بشكوال صاحب الصلة، والسهيلى صاحب الروض الأنف. كان صديقا وصاحبا للعلامة المحدث والفقير والطبيب والصيدلانى والعشاب ابن نباته. تولى ابن عفير قضاء مراكش حاضرة الخلافة الموحدية ثم صرف عن القضاء وعاد إلى إشبيلية(١).

(١) أنظر ترجمته عند: ابن الأبار، التكملة. المراكشى، الذيل والتكملة. توفيق الغليزورى، المدرسة الظاهرية.

ومن شعره وهو يرثى صاحبه ابن نباتة :

أسست بالآثار علمك موقنا *** أن البناء يهَى بغير اساس
من ذا يطهر بالإمارة سنة *** تشكو أذى الآراء والأقياس
من ذا يعالج داءها من حفظه *** بعلاج لا ناس ولا متناس
هزم القياس بعسكر من مسند ال *** آثار لا ميل ولا أنكاس.

٣٩- القاضي محمد بن يحيى بن بكر الأشعري قاضي غرناطة كان لا يقلد مذهبا ويقضي بما يراه صوابا وكان عارفا بالأصول والفروع واللغة والتفسير، والقراءات والحديث وعلومه.

٤٠- بدر الدين محمد بن محمد بن يعقوب الجعبري الدمشقي (ت ٨١٠هـ) اشتغل بالعلم، وولى بعض المدار بدمشق، وكذا ولى نظر الأسرى بدمشق، وولى قضاء صفد، وكان مشكور السيرة .

ظاهريته: ومال إلى القول بالظاهر على قول السخاوى، وشيخه ابن حجر (١) وفاته: مات فى شوال سنة ٨١٠هـ.

٤١- شهاب الدين أحمد بن إسماعيل بن خليفة الحسباني الدمشقي (ت ٨١٥هـ) سيذكر فى المحدثين.

٤٢- القاضي تقي الدين المقرئى (ت ٨٤٥هـ) سيذكر فى المؤرخين.

٤٣- الشيخ القاضي التقي بن محمد عبد الله الشنقيطي (ت ١٤٣٢هـ): أكبر شيوخ البلاد الشنقيطية فى القرآن وعلومه وشيخها الأبرز فى السنة وعلومها وأحد أجل دعاة التوحيد ومحاربي الشرك فى البلاد، يعرفه الشيخ بداه بن البوصيري المفتي السابق رحمه الله فى إحدي إجازاته لبعض طلابه قائلا (أجيزه بما أجازني به شيخى السنّي السنّي التقي) وقد عاش رحمه الله متواضعا زاهدا فيما عند الناس راغبا فيما عند ربه مشتغلا بالعلم والدعوة والعبادة وبعد أن ضيق عليه تفرغ للعلم وللعبادة فكان يقسم وقته بين التأليف واستقبال طلبة العلم فى مكتبة صوتية متواضعة يحرص على أن يكون فيها مساء لاستقبال الطلبة

(١) أنظر: السخاوى، الضوء اللامع، ٢٧/٩.

فمن قارئ للقرآن يريد إجازة الشيخ أو قارئ للبخاري ومسلم والجمع بين الصحيحين وألفية الحديث للعراقي وألفية النحو لابن مالك وفي الصباح مع طلابه في معهد ابن عباس له تفسير للقرآن مسجل بصوته وقراءته الخاشعة ومخطوط بخطه وله شرح لصحيح مسلم بيض منه الجزء الأول وبلغ تسويده الصلاة وهو عبارة عن قراءة في منهجية مسلم وترتيبه والتعليق علي الصناعة الحديثية فيه، كما أن له رسالة في أحكام الصلاة طبعت علي ورد وانتهى من تصحيحها ورسالة أخرى في حكم الحلف بالحرام أضعها متعصبوا المعهد العالي من أرشيفهم ومازلنا نبحث عنها. كان الشيخ محمد بن أبي مدين رحمه الله يسميه طريد السنة فقد كان لا يجامل في قضايا التوحيد ومخالفة السنة ويقول بالحق لا تأخذه فيه لومة لائم ولذلك حاربه طوائف أهل البدع والتعصب واستعدوا عليه السلطة وسجن مرات رغم كونه قاضيا وأهمل حتى يخمل ذكره وفي حين كان هذا عقابا له كان هو يراه نعمة من الله فقد كان متواضعا زاهدا يكره الظهور.

كان يحب طلبة العلم ويبش في وجوههم ويبذل لهم وقته وخصوصا إذا كانوا مغتربين، فقد نقل عن من حضره وقد جاءه شبة صغار من اليمن يريدون قراءة الصحيحين عليه فرحب بهم ودمعت عيناه إجلالا لما جاؤوا له وتأثرا بما بذلوه من جهد. وقد عرف من حضره قبل وفاته أنه بدأ يفقد الوعي بأن بدأ يصلي المغرب قبل وقته فقيل له الوقت لم يحن بعد فقطع صلاته ثم عاد وكبر فكان ذلك آخر عهده بالحركة حتى توفي بعد العشاء في المستشفى في ٢١ ذوالقعدة ١٤٣٢ للهجرة فرحمه الله رحمة واسعة. قال تلميذه محمد الأمين الموسوي: وكان لا يقول برأي ولا قياس ولا تعليل، وكان يُجل ابن حزم ويعظمه، وقد أوصاني بقراءة كتاب الأحكام في أصول الأحكام، فقلت له ألا يكفيني ارشاد الفحول، فقال: لا .. عليكم بالأحكام فهو عمدة في هذا الفن والشوكاني عالية عليه (أوكلاما هذا معناه)

وقد قرأت عليه نخبة الفكر، ومقدمة مسلم، وقرأ عليه بعض أبواب صحيح البخاري وأنا أسمع.

ومن ما يميز شرح الشيخ لصحيح مسلم هو أنه رجحه على البخاري بالأدلة والبراهين من خلال مقارنة للكتابين، ورجح ما ذهب إليه مسلم من أن عنعنة الثقة مع إمكان اللقاء تحمل على السماع، ورد على المتأخرين من الحفاظ في ترجيحهم للبخاري على مسلم بهذا الشرط الذي زعم أن أول من ابتدعه على بن المديني، والحقيقة أن الشيخ كان صاحب قلم جريء، يقول الحق ولو خالفه أوهل الدنيا كلهم، رحمه الله وأسكنه فسيح جناته وغفر له. وقال تلميذه أبو ميمونة محمد الأمجد بن محمد محفوظ بن الذي بلغنا الخبر بوفاته الشيخ ليلة الأربعاء لثمان بقين من ذي القعدة سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة وألف الموافق: ٢٠١١/١٠/١٩، فعظم الكرب واشتد الخطب ودمعت العين وحزن القلب ولن نقول إلا ما يرضي الرب. كان شيخنا رحمه الله منكبا على التدريس وإسماع كتب السنة باذلا وقته لمن جاءه من الطلبة متواضعا للغاية لا يرى لنفسه فضلا على إخوانه سمعته مرة يصف نفسه بأنه طالب علم!!!

كان الشيخ لا يرى الأخذ إلا بما في الكتاب والسنة الثابتة وأن لا يتعدى ذلك، لا يعول على قياس ولا رأي، وليس هذا ببدع من القول فقد سبقه إلى ذلك أئمة كبار، يحث من يتردد إليه دائما على تعلم القرآن والحديث والعمل بهما، ويعظم ذلك في قلوب طلابه. كان الشيخ متقنا لفن النحو، بلغنا أنه يجيد تدريس الكافية الشافية لابن مالك. تولى القضاء فترة وسمعته يقول إنه في فترة القضاء لم تأته نازلة إلا ووجد حكمها في الوحي ولم يحتج إلى قياس قط، قال مع أي طالب علم فكيف يحتاج العلماء للقياس؟! ودرس سنوات في معهد ابن عباس للدراسات الإسلامية رحل شيخنا في سبعينيات القرن الميلادي الماضي إلى عدة بلدان منها: ليبيا والتقى فيها بالشيخ أبي القاسم التواتي رحمهما الله وأعجب به وأجازله رواية الكتب الستة والموطأ ومسنند أحمد وما تضمنه المنهل الروي للسوسى بروايته أي: (التواتي) عن محمد إدريس المهدي السوسى عن أحمد الريفى عن محمد بن علي السوسى، وعندي نسخة مصورة من هذه الإجازة بخط الشيخ التواتي رحمه الله.

كما شملت رحلة الشيخ مصر والتقى فيها بالشيخ صالح الجعفري وأجازته. وزار

دمشق والتقى فيها بالشيخين المسندين: محمد صالح بن أحمد الخطيب الدمشقي الحسني وأحمد المكي بن محمد بن جعفر الكتاني وأجازاه وسمع عليهما بعض الأربعين العجلونية وأجازاه في سائرهما برواية المكي لها عن أبيه بسنده والخطيب بروايته لها عن عبد الحي الكتاني وغيره.

كما زار تونس والتقى فيها بالشيخ محمد الطاهر بن عاشور وأجازاه بأسانيده ومن أعلاها روايته عن جده محمد العزيز عن محمد صالح الرضوي عن رفيع الدين القندهاري عن محمد بن عبد الله الشريف عن عبد الله بن سالم البصري بما في ثبته .

وأجازته أخيرا الشيخ :

أبو أويس بو خبزة محمد بن الأمين بن عبد الله التطواني حفظه الله.

عبد الرحمن بن عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني حفظه الله.

عبد الرحمن بن شيخ بن علوي الحبشي حفظه الله.

خلف الشيخ رحمه الله تعالى: بعض المحاضرات والدروس الصوتية.

دراسة حول صحيح مسلم سماها: "إتحاف المسلم بصحيح مسلم" كان مشتغلا

بتصحيحها آخر عمره.

الصلاة المصطفوية، وقد قمت بتحقيقها وتخريجها يسر الله إكمالها وقد سمعت عليه صحيح مسلم من أوله حتى صدر كتاب الإيمان وقرئ عليه بعض صحيح البخاري وأنا أسمع وبعض الجمع بين الصحيحين للحميدي وسمعت عليه الأربعين العجلونية جميعا وأجازني بها وكتب لي ذلك، وبما أجازته به: محمد صالح الخطيب، وأحمد المكي الكتاني، وصالح الجعفري، والطاهر بن عاشور وأبو القاسم التواتي، وكتب لي بذلك على الثبت الصغير الذي قمت بتخريجه له، وأجازني قبل موته بحوالي نصف شهر بما أجازته به الشيخ: بو خبزة، والحبشي، وعبد الرحمن الكتاني، وقد ذكرت الكثير من أسانيده في الثبت الكبير الذي خرجته له وسميته: "الجوهر النقي من أسانيد شيخنا النقي" وقدر الله أن لا يكمل إلا بعد وفاته، والله الأمر من قبل ومن بعد، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

وقال تلميذه أبو محمد الجعفرى: الأستاذ القاضى التقي بن محمد عبد الله حفظه الله تعالى مازال حيا (١) وكنت قد كتبت عنه مشاركات سابقة وهو قطعاً من المعجبين والمحبين لأبي محمد رحمة الله عليه ولا يقول بالقياس ومن أراد أن يدرس عنده الأصول وجهه للإحكام ويقول عن أبي محمد أنه قلم حر، له شرح على صحيح مسلم ودراسات قرآنية والصلاة المصطفوية لم يطبع منها شيء حتى الآن، وهو الآن قاض متقاعد ويدرس في معهد ابن عباس بانواكشوط وهو مجيز لشيخ هذه البلاد ومفتيها الشيخ بداه بن البوصيري رحمه الله وهو أيضاً من المتأثرين بابن حزم أيضاً وكذلك الشيوخ الآخريين ممن يهتمون بالدليل مثل الشيخ سيديا باب رحمه الله والمحدث محمد بن أبي مدين والشيخ عبد الله بن داداه رحمه الله على الجميع.

والأستاذ التقي أراد بعض المتعصبين ابعاده من المعهد بإعطائه مختصر خليل ليدرسه وهو يقول عنه أنه آراء بشرية من عصور الإنحطاط فقبل لأنه يحرص على الإتصال بطلبة العلم فدرسه مبينا رأيه فيه للطلاب، وكلما سألته عن دروس مختصر خليل تبسم قائلاً أنه يبين للطلبة بعد الدرس أن هذه آراء بشرية لا ندين الله بها.

ولكن الشيخ زاهد جدا وفي بيئة لا تتفهمه ولذلك فهو منسي مبعد لا يحرص على الظهور ولا يحرص مكايده على ظهوره حتى مؤلفاته ضاع بعضها بسبب السجن ونحن نجتمعها الآن حتى يبسر الله طباعتها، وكنت قد عرضت سابقاً أنه يمكن أن نحصل منه علي درس في الغرفة ولكن لم أجد استجابة.

قلت: كان ذلك فى العقد الأول من القرن الحادى والعشرين أيام كنا نتحاور ونحاضر على غرفة البالتوك وغرفة البيلوكس فى أمور الظاهرية وفكرها ومنهجها .

(١) كتب صاحبنا أبو محمد الجعفرى كلامه عن شيخه قبل وفاته بسنين، ونشره على دارة أهل الظاهر القديمة .